الباب الثامن والعشرون

بناة اليابان

تاريخ اليابان مسرحية لم تكمل بعد ، قد تم منها ثلاثة فصول ، أما فصلها الأول – بغض النظر عن القرون البدائية الأسطورية – فهو اليابان البوذية الكلاسيكية (٥٢٢ – ١٦٠٣ ميلادية) التي دخلتها المدنية فجأة على أيدى الصين وكوريا ، والتى هذبها الدين وصقلها ، فخلقت آيات الأدب اليابانى والفن اليابانى فى العصر الذى يدونه التاريخ ؛ أما الفصل الثانى من المسرحية فهو اليابان الإقطاعية الآمنة التى تنسب إلى توكوجادا شوجوناتى (١٦٠٣–١٨٦٨) والتى اعتزلت العالم وحصرت نفسها فى نفسها ، لا تريد لنفسها شيئاً من اتساع الرقعة ولا تنشد تبادلا تجارياً مع الخارج ،قانعة بالزراعة منصرفة إلى الفن والفلسفة ؛ والفصل الثالث واليابان الحديثة ، التى كشف عنها الستار أسطول أمريكى سنة ١٨٥٣ ، والتى اضطرتها العوامل الداخلية والخارجية اضطراراً أن تضرب بسهم فى التجارة والصناعة ، وأن تبحث عن خامات من الخارج وأسواق فى الخارج ، وتقاتل قتالا مستميتا فى سبيل التوسع ، محاكية فى ذلك بلاد الغرب فى نزعتها الاستعمارية وطرائقها فى هذا السبيل ، مهددة بذلك سيادة الجنس الأبيض وسلام العالم ؛ وإن سوابق التاريخ كلها لتدل على أن الفصل التالى من المسرحية سيكون قتالا(*) .

لقد درس اليابانيون مدنيتنا دراسة فاحصة لكى يتشربوا معاييرها ثم يفوقوها ، فقد يكون من الحكمة أن تدرس مدنيتهم فى صبر يشبه صبرهم فى دراسة مدنيتنا ، حتى إذا ما تأزم الأمر على نحو يضطرنا إما إلى حرب أو تفاهم معهم ، كان فى مقدورنا أن نصل معهم إلى تفاهم .

(*) صدر هذا الكتاب قبل الحرب الأخيرة ، وقد جاءت الحرب مصداقاً لما تنبأ به المؤلف
(المعرب)

الفصل الأول

أبناء الآلهة

كيف خلقت اليابان – أثر الزلازل

فى البداية كانت الآلهة ، هكذا يقول أقدم ما دون عن اليابان من تاريخ[1] وكانت الآلهة تولد ذكراً وأنثى ، ثم تموت ، حتى صدر الأمر فى النهاية من شيوخ الآلهة إلى اثنين منها ، هما « إيزاناجى» و« إيزانامى» . وهما أخ وأخت من الآلهة ، أن يخلقا اليابان ، فوقفا على جسر السماء العائم ، وقذفا فى المحيط برمح مرصع بالجوهر ، ثم رفعاه إلى السماء فتقطرت من الرمح قطرات أصبحت هى « الجزر المقدسة » ؛ وشهدت الآلهة ما تصنعه الضفادع فى الماء ، فتعلمت منها سر اتصال الذكر بالأنثى ، ومن ثم التقى « ايزاناجى » و « إيزانامى » التقاء الزوجين وأنسلا الجنس اليابانى ، وولدت « أماتيراسو » — الإلهة الشمس — من عين « إيزاناجى » اليسرى وكذلك من حفيدها « ننيجى » نشأت سلسلة متصلة مقدسة حلقاتها هم كل أباطرة «دى نيبون» (أى اليابان العظمى) فمنذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا ، لم تشهد اليابان إلا هذه الأسرة الحاكمة الإمبراطورية(*)

كان الرمح المرصع بالجوهر قد قطر أربعة آلاف ومائتين وثلاثاً وعشرين قطرة ، لأن هذا هو عدد الجزائر التى يتألف منها أرخبيل الجزر الذى هو اليابان(**) : من هذه الجزر سمائة مأهولة ، لكن ليس بينها إلا خمس لها حجم

(*) إذا اعترض معترض على هذه القصة بقوله إنها مستحيلة الحدوث ، فقد يرد على اعتراضه بما قاله « موتو – أورى » منذ زمن طويل ، وهو أعمق النقاد اليابانيين أثراً ، إذ قال إن تناقض القصة نفسه هو دليل صدق روايتها إذ من ذا تسوغ له نفسه أن يلغى عقله إلغاء يتيح له أن ينتحل قصة قد بلغت كل هذا الحد الظاهر من تفاهة واستحالة على التصديق ؟ » (٢) .

(**) كلمة اليابان قد تكون تحريفاً للفظة تستعمل فى الملايو ومعناها جزر وهى =

جدير بالاعتبار ؛ أما أكبرها فهى « هوندو » أو « هونشو » ويبلغ طولها ١١٣٠ ميلا ومتوسط عرضها هو ٧٣ ميلا ، ومساحتها واحد وثمانون ألف ميل مربع ، وهى تعادل نصف مساحة الجزر كلها ، ويشبه موقعها — كما يشبه تاريخها الحديث — موقع انجلترا وتاريخها : فقد حمتها البحار المحيطة بها من الغزوات ، وحملتها سواحلها الطويلة التى يبلغ مداها ثلاثة عشر ألف ميل على أن تكون أمة بحرية ، فكأنما قضى عليها المؤثر الجغرافى والضرورة التجارية أن تبسط لنفسها سيادة واسعة على البحار ؛ وتلتقى الرياح والتيارات البحرية الدافئة الآتية من الجنوب ، بالهواء البارد الهابط من قمم الجبال ، فينتج عن ذلك فى اليابان مناخ إنجليزى تملؤه الأمطار ، وتكثر فيه الأيام الغائمة بالسحب[٤] ، ومن ثم تمتلىء أنهارها القصيرة السريعة الانحدار ، ويزدهر فيها النبات وتزدان المناظر ، فهاهنا — إذا ما بعدت عن المدن والمساكن العتيقة القذرة — ترى نصف البلاد جنة عدن فى ازدهارها ، وليست جبالها أكداساً مركومة من الصخر والقذر ، بل هى ذوات أشكال فنية ، تكاد تبلغ فى تخطيطها حد الكمال ، كما هى الحال فى فيوجى[*] .

ولا شك أن هذه الجزر قد ولدتها الزلازل لا القطرات التى انتثرت من الرياح[٦] ؛ فليس على الأرض مكان — وربما جاز أن نستثنى أمريكا الجنوبية — قد عانى كل ما عانته اليابان من اضطراب أرضها ، فحدث سنة ٥٩٩ أن اهتزت

— « يابانج » أو « يابون » ؛ وهذه اللفظة الأخيرة هى ما تقابل فى اليابانية كلمة « نيبون » ثم هذه بدورها هى تحريف الكلمة الصينية التى معناها « المكان الذى تشرق منه الشمس » وهى « جب — پن » ؛ وينعت اليابانيون كلمة « نيبون » عادة بكلمة « داى » ومعناها العظمى[٣] .

(*) « فيوجى سان » (أو قد يسمى حديثاً فيوجى ياما) هو معبود الفنانين والكهنة ، ويكاد يكون فى شكله مخروطاً مندرج السفوح تدرجاً سهلا ، وترتفع قمته ١٢٣٦٥ قدماً ، يصعدها ألوف من الحجاج كل عام ؛ وكانت آخر مرة ثار فيها بركان فيوجى فى سنة ١٧٠٧[٥] .

الأرض وابتلعت قرى بأكملها فى فمها الضاحك ، وهوت الشهب ولمعت المذنّبات وابيضت الشوارع بالثلج فى منتصف يوليو ، وأعقب ذلك قحط ومجاعة ، وقضى من اليابانيين ألف الألوف ، وكذلك حدث سنة ١٧٠٣ أن قضى زلزال على اثنين وثلاثين ألفاً فى طوكيو وحدها ، وعادت العاصمة سنة ١٨٨٥ فتقوض بنيانها من جديد ، وانفرجت الأرض عن فجوات واسعة ابتعلت فى جوفها ألوفاً ، وجعلوا يحملون جثث الموتى فى عربات النقل ليقذفوا بها بعيداً جماعات جماعات ؛ وفى زلزال ١٩٢٣ أتت موجة المد وألسنة النار على مائة ألف نفس فى طوكيو ، وسبعة وثلاثين ألف نفس فى يوكاهاما وما يجاورها ، وأما كاما كورا — التى طالما أحسنت ابوذا — فكادت تندك من أساسها[٧] ، مع أن التمثال النحيل الذى كان قائماً هناك للقديس الهندى (يقصد بوذا) قد لبث وسط هذا الخراب الشامل قائماً كما هو ، لم يصبه سوى ارتجاج ، كأنما أراد بقيامه ذاك سليما من الأذى أن يضرب مثلا يوضح للناس أهم درس يلقيه التاريخ — وهو أن الآلهة يمكن لها أن تصمت فى مختلف اللغات ؛ ولبث الناس فى حيرة تملكتهم حيناً ، كيف ينزل هذا الخراب كله بأرض خلقتها الآلهة وتحكمها الآلهة ؛ وأخيراً فسروا هذا الاضطراب بأن سمكة ضخمة تحت الأرض انزعجت فى نعاسها فاهتزت[٨] ويظهر أن لم يطرأ ببال أحد إذ ذاك أن يغادر تلك المدينة التى تعرض ساكنيها لأكبر الخطر ؛ ففى اليوم التالى لاهتزاز الأرض بزلزالها العظيم الأخير ، استخدم صبية المدارس قطعاً من مادة الطلاء المتناثرة أقلاماً ، والأحجار الارتوازية المنثورة من بيوتهم المحطمة ألواحاً[٩] واحتملت الأمة صابرة هذه الضربات من يد القدر وخرجت من هذا الدمار المتكرر نشيطة نشاطاً لا سبيل إلى الحد منه ومقدامة على نحو ما يكون المتفائل إقداما .

الفصل الثانى

اليابان البدائية

قومياتها الجنسية – مدنيتها الباكرة – الدين « شنتو » –
البوذية – بدايات الفن – « الإصلاح العظيم »

لقد ضاعت الأصول اليابانية – كما ضاع غيرها من أصول الامم – فى خليط عام من النظريات ، فيظهر أن الجنس اليابانى مزيج من عناصر ثلاثة : عنصر بدائى أبيض جاء عن طريق « الأينوين » الذين وفدوا إلى اليابان من منطقة نهر أمور فى العصر الحجرى الأخير ؛ وعنصر أصفر مغولى جاء من كوريا أو عبر خلالها فى نحو القرن السابع قبل المسيح ؛ وعنصر قاتم من الملايو وأندونسيا تسرب إلى البلاد من جزر الجنوب : فنى اليابان – كما فى أى بلد آخر – شهدت البلاد خليطاً من عناصر مختلفة قبل أن تشهد – بمئات السنين – قيام نمط جنسى جديد يتكلم بلغة جديدة وينشىء مدنية جديدة ، وكون عملية المزج بين هذه الأجناس لم تبلغ تمامها بعد ، تراه ظاهراً فى الفوارق التى بين الارستقراطى الطويل النحيل طويل الرأس ، وبين الرجال من الشعب فى قصره وبدانته ورأسه العريض .

وتصف الروايات التاريخية الصينية التى ترجع إلى القرن الرابع ، تصف اليابانيين بأنهم «أقزام» ، ثم تضيف إلى ذلك أنهم «لايعرفون الثيرة ولاالوحوش الكاسرة ؛ وهم يَشِمُون وجوههم بزخارف تختلف شكلا باختلاف المنزلة الاجتماعية ، ويلبسون رداء مصنوعاً من قطعة واحدة ، ولديهم حراب وقِسِىّ ورماح فى أطرافها حجر أو حديد ، وهم لا يلبسون أحذية ، ومن خصائصهم طاعة القانون وتعدد الزوجات ويدمنون الشراب وهم طوال الأعمار .

ونساءهم يطلين أجسامهن بالأحمر والقرمزى »[١١] . وتروى هذه المدونات عنهم « أن ليس يقع بينهم سرقة ، وقلما يشكو أحد منهم أحداً إلى القضاء »[١٢] ، ولم تكد المدنية تبدأ عندهم ، وقد صور « لافكاديوهيرن » — مدفوعاً بصدق نظره وبحبه لذلك العصر القديم — صوره فردوساً لا يشوبها استغلال أو فقر ؛ ووصف « فنلوزا » طبقة الفلاحين إذ ذاك بأنها مكونة من سادة عسكريين مستقل بعضهم عن البعض[١٣] ؛ وجاءت الصناعات اليدوية إلى اليابان من كوريا فى القرن الثالث الميلادى ، وسرعان ما انتظمتها نقابات[١٤] ، ودون هؤلاء الصناع اليدويين ، كانت تقع طبقة كبيرة من العبيد ، جُمع أفرادها من المسجونين وأسرى الحروب[١٥] ، وكان النظام الاجتماعى إقطاعياً إلى حد ما وقبلياً إلى حد ما ، فكان بعض الفلاحين يزرعون الأرض عبيداً للسادة أصحاب الأرض ، ولكل قبيلة رئيس يكاد يكون ملكاً عليها[١٦] ، وكانت الحكومة بدائية فى تفككها وضعفها .

كانت العاطفة الدينية عند اليابانيين الأولين تجد ما يشبعها فى العقيدة بأن لكل كائن روحاً ، وفى الطوطمية ، وفى عبادة الأسلاف وعبادة العلاقة الجنسية[١٧] ؛ فعندهم أن الأرواح سارية فى كل شىء — فى كواكب السماء ونجومها ، فى نباتات الحقل وحشراته ، والأشجار والحيوان والإنسان[١٨] ، ويعتقدون أن عدداً لا يحصى من الآلهة يحوم فوق الدار وساكنيها ويرقص مع ضوء المصباح ووهجه إذا رقص[١٩] ، والاتصال بالآلهة يكون عندهم بإحراق عظام غزال أو قوقعة سلحفاة ، وبفحص العلامات والخطوط التى تحدثها النار ، فحصاً تستمد فيه المعونة من الخبراء ؛ وتذكر لنا المدونات القديمة الصينية أنه بهذه الطريقة « كان اليابانيون يستوثقون من طيب الحظوظ وخبيثها ، ومن ملاءمة الظروف لقيامهم برحلات برية وبحرية أو عدم ملاءمتها »[٢٠] . كانوا يخافون الموتى ويعبدونهم ، لأن غضبهم قد ينزل بالعالم شراً مستطيراً ؛ فلكى يسترضوا هؤلاء الموتى ، كان لزاماً عليهم أن يضعوا لهم النفائس فى

قبورهم — كأن يضعوا سيفاً إذا كان الميت رجلا ، ومرآة إذا كانت امرأة ، وكانوا يؤدون الصلاة ويقدمون فاخر الطعام أمام صور أسلافهم فى كل يوم[٢١] وكانوا يلجأون إلى التضحية البشرية آناً بعد آن توسلا لإيقاف مطر غزير ، أو ضماناً لثبات بناء أو جدار ، وكان يحدث أحياناً أن يدفن الأتباع مع سيدهم الذى مات ليدافعوا عنه فى أولى مراحل حياته الآخرة[٢٢] .

ومن عبادة الأسلاف نشأت أقدم ديانة قائمة فى اليابان ، وهى « شنتو » أى « طريق الآلهة » ولها صور ثلاث : العقيدة المنزلية التى تتجه بالعبادة إلى أسلاف القبيلة ، وعقيدة الدولة التى تتجه بالعبادة إلى الحاكمين الأسلاف وهم الآلهة الذين أسسوا للدولة بناءها ؛ فكانوا يخاطبون السلف المقدس الأول الذى عنه جاءت سلسلة الأباطرة ، ضارعين سبع مرات كل عام ، فيتوجه إليه الإمبراطور نفسه بالدعاء ، أو من ينوب عن الإمبراطور ؛ ثم كانوا يؤدون له صلاة خاصة إذا ما همت الأمة بالاضطلاع بمشروع تراه استثنائياً فى قداسته ، مثل الاستيلاء على شانتونج (سنة ١٩١٤)[٢٣] ؛ ولم تكن ديانة « شنتو » بحاجة إلى تفصيل مذهبى أو طقوس معقدة أو تشريع خلقى ، ولم تكن لها طبقة من الكهنة خاصة بها ، كلا ولا تذهب إلى ما يبعث العزاء فى نفوس الناس من خلود الروح ونعيم الفردوس ؛ فكان كل ما تطالب به معتنقيها أن يحجوا آناً بعد آن لأسلافهم وأن يقدموا لهم ضراعة الخاشعين ، ويفعلوا كذلك لإمبراطورهم ولماضى أمتهم ؛ وقد حلت لهم عقيدة أخرى محل هذه العقيدة حيناً ، لأنها مسرفة التواضع فى جزائها التى تعد به ، وفى أوامرها التى تلزم بها الناس .

وفى سنة ٥٢٢ جاءت البوذية — وكانت قد دخلت الصين قبل ذلك بخمسمائة عام — إلى اليابان خلال القارة الآسيوية ، فأخذت تغزو أرجاءها غزواً

سريعاً ؛ وقد تآمر عاملان فكتبا له النصر ، وهما : الحاجات الدينية عند الشعب ، والحاجات السياسية عند الدولة ، لأنه لم تكن بوذية بوذا هى التى جاءت إلى اليابان ، بما عرفت به تلك البوذية من لا أدرية وتشاؤم وتزمت وشوق إلى النعيم الناشئ عن انمحاء الفرد فى الكل ، بل جاءتها بوذية « ماهايانا » بآلهتها الوديعة من أمثال « أميدا » « وكوانون » ، وباحتفالاتها الدينية البهيجة ، واعترافها ببوذيين منتظرين يخلصون البشر ، وبخلود الروح الإنسانية ، ثم ما هو خير من ذلك ، جاءت هذه البوذية تبث فى النفوس بأسلوب لا يقاوم لفرط رقته ، كل فضائل الورع والسلام والطاعة التى يمكن أن تصوغ الناس صياغة تجعلهم أكثر انصياعاً للحكومة ، وراحت تفسح للمظلومين من الأمل والعزاء ما يجعلهم راضين قانعين بشظف عيشهم ؛ وتخفف من وطأة الحياة الكادحة وما فيها من برود يشبه برود النثر وفتور العمل المكرور المعاد ، بما تبثه فى تلك الحياة من شعر متمثلة فى الأساطير والصلاة ، ومن مسرحية تتمثل فى الاحتفالات البهيجة ، وهيأت للناس سبيل الوحدة فى الشعور والعقيدة ، وهما شيئان طالما رحب بهما الساسة ، لأنهما أصل النظام الاجتماعى ، ودعامة القوة القومية .

ولسنا ندرى أكانت هى السياسة أم الورع ، هو الذى كتب النصر للبوذية فى اليابان ، فلما مات الإمبراطور « يومى » سنة ٥٨٦ ميلادية ، تنازعت وراثة العرش من بعده أسرتان متنافستان ، تنازعاً استخدمت فيه السلاح ، واعتنقت كلتاهما العقيدة الدينية الجديدة اعتناقاً سياسياً ، واستطاع الأمير « شوتوكوتايشى » — الذى يقال عنه إنه ولد وفى يده تميمة مقدسة — أن ينتهى بالحزب البوذى إلى النصر ، ثم أقام على العرش « الإمبراطورة سويكو » . ولبث تسعة وعشرين عاماً (٥٩٢ — ٦٢١) يحكم الجزر المقدسة أميراً امبراطورياً ووصياً على العرش وراح يغدق العطاء لمعابد البوذيين ، ويشجع رجال الدين البوذى ويعينهم ،

ويدخل الأخلاق البوذية فى صلب القوانين القومية ، حتى لقد أصبح بوجه عام للبوذية اليابانية ما كان « أشوكا » لها في الهند » وامتدت رعايته إلى الفنون والعلوم ، واستقدم الفنانين ومهرة الصناع من كوريا والصين ، وكتب التاريخ ، ورسم التصاوير . وأشرف على بناء معبد « هوريوجى » ، وهو أقدم آية بقيت لنا فى تاريخ الفن اليابانى .

لكن على الرغم مما تركه هذا الرجل الناشر لأسباب الحضارة من مختلف الآثار ، وعلى الرغم من كافة الفضائل التى راحت البوذية تبثها فى النفوس أو تبشر بها ، فقد طغت على اليابان أزمة أخرى عنيفة ، ولم يكن قد مضى على موت « شوتوكو » جيل واحد ؛ ذلك أن ارستقراطياً طموحاً ، هو « كاماتارى » قد دبر مع « الأمير تاكا » ثورة فى القصر ، كانت بداية واضحة لتغير مجرى التاريخ السياسى فى « نيپون » (اليابان) حتى ليشير إليها المؤرخون من أبناء البلاد فى حماسة وطنية فيصفونها بقولهم « الإصلاح العظيم » (سنة ٦٤٥) ؛ فقد قتل ولى العهد ، وأجلس على العرش ملك كهل لم يكن إلا صورة ، وكان الأمر فى يد « كاماتارى » باعتباره رئيساً للوزراء ، فطفق بمعونة « الأمير تاكا » — حين كان لم يزل ولياً للعهد ، ثم حين أصبح هو الإمبراطور تنشى » — يعيد بناء الحكومة اليابانية بحيث جعلها سلطة إمبراطورية أوتوقراطية ؛ وارتفع الحاكم من مجرد كونه زعيما لكبرى القبائل ، إلى سلطة شاملة تسيطر على كل موظف فى اليابان ، فهو الذى يعين كل الحكام ، وتدفع له الضرائب كلها مباشرة ، وأعلن أن البلاد كلها ملك يمينه ؛ وبهذا سارت اليابان بخطوات سريعة من ارتباط بين القبائل مخلخل العرى ورؤساء قبائل يشبهون أطراف الإقطاع ، إلى دولة ملكية وثيقة العرى فيما يربط بين أجزائها .

الفصل الثالث

العصر الإمبراطوري

الأباطرة – الأرستقراطية ، تأثير الصين . عصر كيوتو الذهبي – التدهور

منذ ذلك الوقت فصاعدا ، جعل الإمبراطور يتمتع بألقاب ضخمة ، فكان يسمى أحياناً « تنشي » أو « شمس السماء » على أن اسمه كان غالباً « تنو » أي « الملك السماوي » ونادراً ماكان يطلق عليه « ميكادو » أي « الباب المجيد » ؛ وكان من امتيازه أن يطلق عليه اسم جديد بعد موته ، يعرف فى التاريخ باسم خاص يختلف كل الاختلاف عن الاسم الذى أطلق إبان الحياة ؛ ولكى يضمن اتصال النسل الإمبراطورى ، كان للإمبراطور الحق فى أى عدد شاء من الزوجات أو الرفيقات ؛ ولم يكن حتما أن يهبط الملك إلى أكبر الأبناء ، بل تؤول ولاية العرش من بعده إلى من كان فى رأيه هو ، أو فى رأى أبطال العصر أقرب أبنائه إلى أن يكون أقواهم ، أو أضعفهم على العرش [فيختار أقواهم إن كان الذى يختار هو الملك ، ويختار أضعفهم إن كان الذى يختارهم أعلام العصر ذوو المصالح الشخصية] وكان الأباطرة فى بواكير العصر الكيوتى يميلون إلى الورع ، حتى لقد تنازل بعضهم عن العرش ليجعلوا من أنفسهم رهباناً بوذيين ، وحرَّم أحدهم السَّماكة على أنها إساءة إلى بوذا(٥) ؛ لكننك نجد بينهم « يوزى » يشذ عن هذا المجرى ، ويتعب الناس بنشاطه ، فجاء مثلا يوضح كيف تكون الأخطار التى يستهدف لها الملك إذا نشط ؛ فكان يأمر الناس أن يصعدوا الأشجار ثم يرميهم بقوسه ونشابه ، ويمسك بالعذارى فى الطرقات ، ويوثق قيدهن بأوتار قيثارة ويقذف بهن فى البرك ، وكان مما يمتع جلالته أن يركب جائساً خلال العاصمة فيلهب الناس بسوطه ليدفعهم إلى العمل ، لكن رعيته خلعته عن العرش آخر الأمر بثورة أعلنت فيها

العصيان السياسى الذى هو بمثابة الخروج على حدود التقوى وهو شيء نادر الوقوع فى تاريخ اليابان[٢٦] ؛ وحدث سنة ٧٩٤ أن انتقلت مراكز الحكومة من « نارا » إلى « ناجاوكا » ثم لم تلبث بعدئذأن انتقلت إلى كيوتو (أى عاصمة السلام) فظلت هى العاصمة خلال أربعة القرون (٧٩٤ – ١١٩٢) التى يجمع معظم المؤرخين على أنها كانت فى اليابان عصرها الذهبى ، فلما أن كانت سنة ١١٩٠ بلغ سكان كيوتو نصف المليون ، وهو ما لم تبلغه أية مدينة أوروبية فى العصر ما عدا القسطنطينية وقرطبة[٢٧] ، وقد خصص جزء من المدينة لأكواخ الناس وحظائر لماشيتهم ، والظاهر أن قد نعم هؤلاء الناس بعيشهم رغم فقرهم المدقـــع ؛ ثم خصص آخر – جعلوه معزولا بما تقتضيه الحكمة لحدائق العلية والأسرة الإمبراطورية وقصورهم ؛ وكان يطلق على حاشية الإمبراطور بحق « سكان ما فوق السحب »[٢٨] لأن تقدم الحضارة وارتفاع الأساليب الفنية كان من نتائجها فى اليابان – كما هى الحال فى غيرها – ازدياد الفوارق الاجتماعية ؛ وبهذا زالت المساواة التقريبية التى كانت تسود الناس فى باكورة الأيام ، وحل محلها تفاوت لا مندوحة عن وقوعه إذا ما قُسِّمت الثروة المتزايدة بين الناس على قدراتهم المختلفـــة وشخصياتهم وامتيازاتهم المتباينـــة ؛ ونشأت أسرات كبيرة ، مثل الـ « فوجيوا را » والـ « تايْرا » والـ « ميناموتو » والـ « سوجا وارا » ، وهى أسرات كانت تقيم الأباطرة وتخلعهم ، ويحارب بعضها بعضاً على النحو العنيف الذى شهدته أيام النهضة الإيطالية ؛ ولقد قرَّب « سوجاوارا متشيزانى » نفسه من قلوب اليابانيين لرعايته للأدب ، وهو الآن معبود لديهم بوصفه إلهاً للآداب ، وتعطل المدارس تكريماً له فى الخامس والعشرين من كل شهر ؛ وكذلك امتاز الشاب « ميناموتو سانيتومو » بإنشائه فى الصباح السابق لاغتياله هذه المقطوعة الشعرية الساذجة ، التى تمثل الأسلوب اليابانى فى أنصع صوره :

إذا لم أعد إليك ثانياً
يا شجرة البرقوق التى تجاور دارى
فلا تنسى أنت موعد الربيع
وازدهرى ما وسعك الازدهار

ولبثت اليابان فى عهد « دايجو » المتنوّر (٨٩٨ — ٩٣٠) وهو أعظم الأباطرة الذين أقامتهم على الحكم قبيلة فوجيوارا ، لبثت فى عهده تتشرب — بل بدأت تنافس — ثقافة الصين وأسباب ترفها ، التى كانت عندئذ فى أعلى ذرى ازدهارها فى عهد « تانج » ؛ ولما كانت اليابان قد استمدت عقيدتها الدينية من « المملكة الوسطى » فقد طفقت تستمد من المعين نفسه لباسها وألعابها وطهيها وكتابتها وشعرها وأساليب حكومتها وموسيقاها وفنونها وبساتينها وعمارتها ، بل خُطِّطت عاصمتاها الجميلتان « نارا » و « كيوتو » على غرار « شانجان » ؛ فقد استوردت اليابان ثقافة الصين منذ ألف عام ، كما تستورد ثقافة أوربا وأمريكا فى عصرنا هـذا ، وهى فى هذا تتعجل أولا ثم تتمهل لتنتقى وتختار ثانياً ؛ لكنها تحتفظ بروحها الخاصة وشخصيتها الخاصة غيرة عليهما ، ولا تدخر فى وسعها جهداً فى سبيل مداومة الأساليب الجديدة إلى الأغراض القومية القديمة .

ودخلت اليابان فى عهدها « الأنجى » (٩٠١ — ٩٢٢) الذى يعتبر ذروة العصر الذهبى(*) مدفوعة إلى ذلك الصعود بحافز من جارتها العظيمة ، وبوقاية

(*) يقول فنولوزا المتحمس : « هذا العهد الذى يسمى بالعهد « الأنجى » هو بغير شك أعلى ذروة بلغتها الحضارة اليابانية ، كما كان عهد « منج هوانج » ذروة الحضارة فى الصين ، فلن تبلغ الصين أو اليابان بعد الآن ما كانتا بالغتاه إذ ذاك ثراء وفخامة وخصوبة فى ذرى العبقرية الحرة ... فن حيث الثقافة العامة وترف الحياة الذى تناول العقل والروح معاً ، لم يشهد العالم مثيلا لتلك الفخامة ، لا نقول فى اليابان وحدها ، بل فى الدنيا بأسرها »(٣١)

حكومة منظمة مستتبة ؛ فتراكمت الثروة واتجه إنفاقها نحو أسباب حياة مترفة رقيقة تشيع فيها الثقافة بحيث لا يكاد يضارعها فى ذلك مثيل حتى جاءت عصور أسرة مديتشى و « صالونات » « التنوير الفرنسى (*) .

وأصبحت « كيوتو » هى بمثابة باريس وفرسارى فى فرنسا ، رقيقة فى شعرها وثيابها ، رشيقة فى أخلاقها وفنونها ، تضع للأمة كلها معايير المعرفة والذوق ، وانفتحت « الشهية » عند الناس على اختلاف صورها وإلى آخر حدودها وآمادها ، فابتكر الطهاة صنوفاً جديدة من شهىّ الطعام ، وكدسوا الآكال تكديساً ليشبعوا أصحاب النهم وأرباب الذوق فى الطعام على حد سواء ، وغُض الطرف عن جرائم الزنا على أساس أنها من أتفه خطايا الإنسان[٣٢] ، وتزمّل كل سيد أو سيدة بالحرير ونفيس الثياب ، وكنت ترى مختلف الألوان متناسقة على كل كمّ تلبسها ذراع ، وازدانت حياة المعابد والقصور بالموسيقى والرقص كما أشاع الرقص والموسيقى وروح الرشاقة فى بيوت العِلْية التى كانت تحاط بروائع المناظر الطبيعية من الخارج ، وتزدان صقلا من الداخل بما فيه من آيات البرونز واللؤلؤ والعاج والذهب والخشب الذى حفر حفراً بلغ الغاية القصوى من دقة الحفر[٣٣] ؛ لقد ازدهر الأدب إذ ذاك وانحلّت الأخلاق .

أمثال هذه العصور التى تتلألأ بجوانب الرقة ، يغلب ألا تدوم طويلا ، لأنها ترتكز ارتكازاً مقلقلا على ثروة متراكمة يمكن فى أية لحظة أن تذروها عوامل تذبذب التجارة ، وقلق الطبقات المستغَلّة وتقلبات الحروب ؛ وقد أدى إسراف القصر آخر الأمر إلى إفلاس الدولة وارتفعت الثقافة بحيث رجحت كفتها بالقياس إلى القدرة العلمية ، فانتهى ذلك إلى ملء المناصب الإدارية بمتشاعرين عاجزين ، وأخذ الفساد يتكاثر تحت أنوفهم المعطّرة دون أن يستوقف انتباههم ، ثم أصبحت المناصب آخر الأمر تباع لمن يدفع فى شرائها أغلى ثمن[٣٤] وازدادت الجرائم بين الفقراء بقدر ما ازدادت أسباب

(*) عهد التنوير فى فرنسا هو القرن الثامن عشر .   (المعرب)

الترف بين الأغنياء ، وانبث وباء اللصوص والقراصنة فى الطرقات والبحار ، فكانوا ينقضُّون على كل فريسة تقع فى أيديهم ، لا فرق عندهم بين الإمبراطور والشعب ، ويسطون على جباة الضرائب فيسلبونهم ما كانوا يحملونه إلى القصر من أموال ، ونظمت عصابات من اللصوص فى الأقاليم ، بل وفى العاصمة نفسها ، وكان يتاح لأخطر مجرم فى اليابان - كما هى الحال عندنا - أن يعيش فى رفاهية علنية ؛ لأنه كان من القوة بحيث يتعذر على أولى الأمر أن يقبضوا عليه أو يسيئوا إليه [٣٥] ، وأهمل الناس عاداتهم وفضائلهم الحربية ، وتراخوا فى نظامهم العسكرى والأهبة للدفاع ، بحيث باتت الحكومة مفتوحة الصدر لكل ضربة يسددها إليها من شاء من القراصنة القساة ؛ وراحت الأسر الكبيرة تجيِّش لنفسها جيوشها ، فبدأت بذلك عهداً من حروب أهلية ، ولبثت تناضل بعضها بعضاً نضالا تسوده الفوضى ، كل منها يحاول أن يظفر لنفسه بحق تعيين الإمبراطور ، وأما الإمبراطور نفسه فكان يزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، فى الوقت الذى كان رؤساء القبائل فيه يوشكون أن يعودوا إلى سابق عهدهم من حيث استقلال كل منهم بسلطته ؛ وهكذا أخذ التاريخ مرة أخرى يتذبذب على نحو ما كان يتذبذب قديماً ؛ بين حكومة قوية مركزية من ناحية ، ونظام إقطاعى لا مركزى من ناحية أخرى .

الفصل الرابع

الطغـــاة

« الشواجنة » – سلطان عسكرى فى كاماكورا – وصاية هوجو
على العرش – غزوة قبلاى خان – سيادة أشيكاجا – القراصنة الثلاثة

كان من شأن هذه الظروف القائمة أن سنحت الفرصة لظهور فئة من الطغاة العسكريين الذين قبضوا بأيديهم على زمام الأمور كلها ، فى كثير من أجزاء الجزر اليابانية ؛ ولم يعترفوا بالإمبراطور إلا على أنه ظاهرة مقدسة فى اليابان يحتفظ بها بأقل ما يمكن من النفقات ، وجعل الفلاحون الذين لم تعد تحميهم من عصابات اللصوص جيوش الإمبراطور ولا رجال شرطته ، يدفعون الضرائب لهؤلاء « الشواجنة » أى القادة بدل دفعها للإمبراطور ، لأن «الشواجنة» وحدهم هم الذين كانوا يستطيعون حمايتهم من اعتداء اللصوص[٣٦] . وهكذا ساد النظام الإقطاعى فى اليابان لنفس الأسباب التى كان قد ساد بسببها فى أوربا ، وأعنى أن مصادر السلطان فى الإقطاعات ازدادت نفوذاً بمقدار ما فشلت الحكومة المركزية النائبة فى حفظ الأمن والنظام .

وحدث فى سنة ١١٩٢ أن جمع « يوريتومو » – وهو أحد رجال قبيلة ميناموتو – حوله جيشاً من الجند والعبيد ، وأقام لنفسه سلطة مستقلة ، اتخذت لنفسها اسما هو اسم المكان الذى قامت فيه ، وهو «باكوفوكاماكورد» وكلمة « باكوفو » معناها منصب عسكرى ، وإذن فهى تدل صراحة على نوع الحكومة الجديدة ؛ ومات « يوريتومو » العظيم فجأة فى عام ١١٩٨[*]

(*) يروى أعداء « يوريتومو » قصة موته فيقولون إنه كان يركب جواداً إذ رأى شبح أخيه الذى كان قد قتله ، اضطرب الجواد وراكبه معاً لرؤية الشبح ، وتعثر الجواد وسقط راكبه ، ومات « يوريتومو » بعد ذلك ببضعة أشهر ، وسنه ثلاثة وخمسون عاماً[٣٧] .

وأعقبه فى الحكم أبناؤه الضعفاء ، وذلك — كما يقول المثل اليابانى — لأن « الرجل العظيم لا ذرية له »[٢٨] فأقامت أسرة منافسة وصاية لنفسها على العرش عام ١١٩٩ ويسمى العهد باسم « وصاية هوجو » ، ولبثت تلك الأسرة مدى مائة وأربعة وثلاثين عاماً تحكم « الشواجنة » الذين كانوا بدورهم يحكمون الأباطرة ؛ فكانت هذه الحكومة الثلاثية فرصة سانحة لقبلاى خان يحاول فيها غزو اليابان ؛ فقد وصفها له الكوريون الدُّهاة الذين كانوا يخشون بأسها ، فقالوا إنها من الثراء بحيث تستحق المجهود ؛ فأمر قبلاى بناة سفنه أن يشيدوا له أسطولا بلغ من الضخامة حداً جعل شعراء الصين يصورون التلال باكية ترثى ما سُلِبَ من غاباتها[٣٩] ؛ ويقول اليابانيون حين يروون حوداث الماضى رواية الفخور ببطولته — إن السفن بلغت سبعين ألفاً ، لكن المؤرخين الذين لا يتأجحون بمثل هذه الحماسة الوطنية يكفيهم من العدد ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة ومائة ألف محارب ؛ وتبدّى هذا الأسطول الجبار على مبعدة من شواطئ اليابان فى أواخر سنة ١٢٩١ فخرج سكان الجزر الأبطال ليلاقوه فى أسطول لهم بنوه على عجل ، وهو أسطول ضئيل بالقياس إلى الأسطول المهاجم ؛ لكن حدث لهذه الآرمادا ، ما حدث للأرمادا التى كانت أصغر منها ، وإن تكن أشهر(*) ، وهو أن هبت « ريح عظيمة » لا تزال مذكورة لما أسدته للناس من جميل ، هبت فحطمت سفائن « الخان » الجبار ، إذ رطمتها على جوانب الصخور ، وأغرقت من بحارته سبعين ألفاً ، وأبقت على بقيتهم ليعيشوا حياة الرقيق فى بلاد اليابان .

ودارت الدوائر على أسرة « هوجو » عام ١٣٣٣ ، إذا أصابتهم السيطرة هم أيضاً بسمومها ، وانتهى الأمر إلى انتقال الحكم الوراثى من أيدى الأبالسة والعباقرة إلى أيدى الجبناء والحمق ؛ وكان آخر هذه السلالة رجل يدعى « تاكا

(*) نقصد الأرماد الأسبانية سنة ١٥٨٨ التى كانت تتألف حين وصلت إلى بحر المانش ، من مائة وعشرين سفينه فيها أربعة وعشرون ألف محارب[٣٨] .

توكى » يحب الكلاب حباً شديداً ، فيقبلها بدل الضرائب ، حتى لقد جمع منها عدداً يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف ، وأعد لها حظائر زينها بالذهب والفضة وأطعمها بالسمك والطيور ، وهيأ لها العربات المزخرفة تحملها للتنزه ؛ فوجد الإمبراطور القائم على العرش إذ ذاك ، وهو « جو دايجو » أن انحلال حماته فرصة سانحة يستعيد فيها سلطانه الإمبراطورى ، وأيدته قبيلتا « ميناموتو » و « أشيكاجا » وقادتا له جيوشه حتى ظفرتا له بالنصر على « أسرة الوصاية » بعد سلسلة من هزائم ، ومن ثم أوى « تاكا توكى » ومعه ثمانمائة وسبعون من عبيده وقادته ، إلى معبد ، وجرع كأساً أخيرة من « الساقى » ثم أنزل بنفسه « الهاراكيرى » (أى أنه انتحر) ؛ ولقد أخرج أحد الحاضرين أمعاء المنتحر بيديه قائلا : « إن هذه لتضفى على الخمر طعماً لذيذاً »(٤٠) .

وانقلب « أشيكاجاتاكاوچى » على الإمبراطور بعد أن كان هو الذى أعانه على استعادة سلطته ؛ وقاتل الجيوش التى جاءت لإخضاعه قتالا موفقاً من حيث خطته العسكرية ومؤامرات الخيانة ؛ وأزال « جودايجو » عن العرش ليضع مكانه إمبراطوراً صورياً هو « كوجون » ، وأقام فى كيوتو تلك الحكومة لعسكرية المعروفة باسمه « أشيكاجا » والتى ظلت تحكم اليابان مدى مائتين وخمسين عاماً سادتها الفوضى والحرب الأهلية التى لم تنقطع ؛ ولا بد لنا أن نعترف هنا بأن جزءاً من تلك الفوضى كان يرجع إلى الجانب السامى من طغاة « أشيكاجا » — وهو حبهم للفن ورعايتهم له ؛ فهاهو ذا « يوشيمتسو » قد مل الكفاح فأدار يديه نحو التصوير ، حتى أصبح يعد من مصورى عصره الأفذاذ ، وارتبط « يوشيمازا » بصلات الود مع كثير من المصورين ، وأعان بالمال كثيراً من الفنون ، وأصبح فى عالم الفن ذواقة دقيقاً ، حتى ليعد هواة الآثار الفنية اليوم القطع التى كان قد اختارها هو وأتباعه خير ما يستحق الاقتناء(٤١) لكن مهام الحكم الإدارى قد أهملت إذ ذاك ، ولم يعد حفظ

الأمن والسلام فى مقدور القادة العسكريين (أى الشواجنة) الأغنياء ولا فى مقدور الأباطرة الذين حل بهم الإفلاس .

فكان من شأن هذه الفوضى نفسها وما أصاب الحياة من انحلال ، ومطالبة الأمة بقادة يهيئون لها النظام ، أن ظهر القراصنة الثلاثة المعروفون فى التاريخ اليابانى ؛ وتقول الرواية إن هؤلاء الثلاثة – وهم « نوبوناجا » و « هيديوشى » و « أيياسو » – اعتزموا أن يتعاونوا معاً فى شبابهم على إعادة الوحدة لوطنهم ، وحلف كل منهم يميناً على أن يطيع طاعة الأتباع مَن يفوز من زميليه الآخرين بموافقة الإمبراطور على توليه حكومة اليابان[٤٢] ؛ وحاول « نوبوناجا » بادئ ذى بدء ، لكنه مُنى بالفشل ، وحاول بعده « هيديوشى » لكنه مات حين أوشك على النجاح ؛ وكان « أيياسو » يراقب فرصته ، فجاءته آخر الأمر وحاول بعد زميليه ، وأسس الحكومة العسكرية المعروفة باسم « توكوجاوا » . وبهذا افتتح عهداً هو من أطول عهود السلام ، وعصراً هو من أخصب عصور الفن ، فى تاريخ الإنسانية كلها .

الفصل الخامس

« وجه القردة » العظيم

ظهور هيديوشى – الهجوم على كوريا – الاشتباك مع المسيحية

كانت الملكة اليصابات و « أكبر » (فى الهند) معاصرين لـ « هيديوشى » العظيم – هكذا قد يحلو لليابانيين أن يذكروا هذه الحقيقة على سبيل التنويه بفضل عظيمهم – كان « هيديوشى » ابن فلاح ، يعرفه أصدقاؤه ، وتعرفه رعيته حين أصبح فيما بعد حاكماً ، باسم « سارو من كانجا » – ومعناها « وجه القردة » لأنه لم يكن ينافسه فى دمامة الوجه أحد حتى ولا كونفوشيوس ؛ وكان والداه قد عجزا عن إخضاعه للنظام فبعثا به إلى مدرسة فى دير ؛ لكن « هيديوشى » سخر من كهنة البوذية سخرية شديدة ، وأثار فى الدير ضجة وثورة ؛ بحيث انتهى أمره إلى الطرد من مدرسته ، فألحق صبياً فى كثير من الحرف ، وطرد من عمله سبعاً وثلاثين مرة[٤٣] ؛ وجعل من نفسه قاطعاً للطريق ، لكنه عاد فرأى أنه يستطيع أن يسلب وهو مع القانون أكثر مما يسلبه وهو خارج على القانون ؛ ثم التحق بخدمة « الساموراى » (أى حملة السيف) وأنقذ حياة مولاه ، وسمح له بعدئذ أن يحمل سيفاً ؛ وانضم إلى أتباع « نوبوناجا » وعاونه بتفكيره وبسالته ، حتى إذا ما مات « نوبوناجا » تولى هو قيادة الثائرين الخوارج على القانون ، الذين شنوا حملتهم ليغزوا أرض وطنهم ، فما انقضت ثلاثة أعوام حتى كان « هيديوشى » قد أصبح حاكماً على نصف الإمبراطورية وظفر بإعجاب الإمبراطور العاجز ، وأحس فى نفسه من القوة ما يتيح له أن يهضم فى جوفه كوريا والصين ؛ وفى ذلك قال متواضعاً يخاطب

« ابن السماء » : « لقد اعتزمت أن أطوى الصين كلها تحت سلطانى ، بمعونة الجنود الكوريين وبتأييد من نفوذك الساطع ؛ فإذا ما تم لى ذلك ، ستصبح الأقطار الثلاثة (الصين وكوريا واليابان) قطراً واحداً ؛ وسيتم لى ذلك فى يسر كأنما أطوى حصيرة لأحملها تحت ذراعى »[44] لكنه حاول جهده بغير جدوى ، لأن رجلا شيطانياً من الكوريين اخترع قارباً حربياً من المعدن – ولولا سبقه فى الزمن لقلنا إنه سرق منا الـ « مونيتور » والـ « ميرماك » – وبهذا القارب راح يحطم سفن « هيديوشى » المثقلة بجنوده ؛ سفينة بعد سفينة ، وكان « هيديوشى » قد أنفذها بجنده إلى كوريا (١٥٩٢) ، لقد أغرقت فى يوم واحد اثنان وسبعون مركباً ، وانقلب البحر بحراً من دماء ، ورست أربع وثمانون سفينة أخرى على الشاطئ حيث فر منها اليابانيون وخلفوها وراءهم ، فأحرقها الظافرون حتى لم يذروا منها شيئاً ؛ وبعد أن تبادل الفريقان نصراً وهزيمة دون أن يكون فيها ما يفصل بالنصر ، أرجا الفاتحون فتح كوريا والصين حتى القرن العشرين ؛ وقال ملك كوريا عن « هيديوشى » إنه حاول « أن يعبر المحيط فى صدفة من أصداف المحار »[45] .

وإلى أن يحين ذلك الحين ، استقر « هيديوشى » ليستمتع بهذه « الوصاية التى أسسها لنفسه ، وليدير فيها عجلة الحكم ، وجمع لمتعته ثلاثمائة غانية، لكنه وهب مبلغاً كبيراً من المال لزوجته الريفية التى كان قد طلقها منذ زمن طويل وبحث عن أحد سادته القدماء ؛ وأعاد له المال الذى كان قد سرقه منه أيام أن كان يعمل معه صبياً ، وأضاف إلى المال قيمة الربح طوال هذه المدة ؛ ولم يجرؤ أن يطلب من الإمبراطور أن يوافق له على تلقيب نفسه بلقب « شوجن » (أى حاكم عسكرى) لكن معاصريه عوضوه عن ذلك بلقب آخر أطلقوه عليه ، وهو « تايكو » أى « الحاكم العظيم » ، وهى كلمة غامرت فى رحلة من تلك الرحلات « الأوذيسيّة » التى تتعقب آثارها فى علم اللغات ، حتى

دخلت فى ختام رحلتها إلى لغتنا نحن وأصبحت كلمة من كلماتنا ، وهى كلمة Tycoon : ووصف مبشر دينى « هيديوشى » ، فقال : « إنه ماكر ماهر إلى درجة تجاوز كل معقول ، فقد نزع عن الشعب سلاحه بحيلة لطيفة ، وهى أنه أمر الناس أن يجمعوا كل ما عندهم من أسلحة معدنية ليصنع من مادتها تمثالا ضخماً — وهو تمثال « دايبوتسو » أى « بوذا العظيم » الذى يقوم فى كيوتو — والظاهر أنه لم يكن يعتنق عقيدة دينية ، لكنه لم يكن أسمى من أن يستغل الدين من أجل غاياته فى طموحه أو سياسته » .

ودخلت المسيحية اليابان سنة ١٥٤٩ متمثلة فى شخص رجل هو فى طليعة طائفة الجزويت ومن خيرتهم ، وأعنى به « القديس فرانسس اكسافير » ولم يكد يكون جمعية صغيرة حتى أخذت تزداد ازدياداً سريعاً ، بحيث لم يمض جيل واحد بعد قدومه إلا وقد بلغ عدد أعضاء الجزويت سبعين ، وعدد من تحولوا إلى المسيحية فى الإمبراطورية اليابانية مائة وخمسين ألفاً[٤٧] ؛ وكانوا من الكثرة فى ناجازاكى بحيث جعلوا ذلك الميناء التجارى مدينة مسيحية ، وحملوا حاكمها المحلى « أومورا » على اتخاذ التدابير المباشرة فى نشر العقيدة الجديدة[٤٨] ؛ يقول « لافكاديوهيرن » : « إن البوذية فى إقليم ناجازاكى قد طمست طمساً تاماً فكهنتها أصابهم الاضطهاد والتشريد »[٤٩] ؛ ففزع « هيديوشى » لهذا الفتح الروحانى للبلاد ، وارتاب فى أن تكون وراءه أهداف سياسية ، فأرسل رسولا إلى نائب رئيس الجزويت فى اليابان ، مزوداً بخمسة أسئلة عاجلة :

١ — لماذا وبأى حق أرغم هو (نائب رئيس الجزويت) وأعضاء طائفته الدينية رعية « هيديوشى » على اعتناق المسيحية ؟

٢ — لماذا حرضوا أتباعهم وأشياعهم على هدم المعابد ؟

٣ — لماذا اضطهدوا كهنة البوذية ؟

٤ – لماذا أكلوا هم وبعض البرتقاليين حيوانات نافعة للإنسان مثل العجول والأبقار ؟

٥ – لماذا سمح لتجار من بني جلدته أن يشتروا أفراداً من اليابانيين يتخذونهم عبيداً فى جزر الهند الشرقية ؟ (٥٠)

ولما لم يقنع « هيديوشى » بالإجابات ، أصدر سنة ١٥٨٧ الأمر الآتى :

بما أننا قد علمنا من مستشارينا الأمناء أن طائفة دينية أجنبية قد جاءت إلى مملكتنا ، حيث جعلت تبشر بقانون يتنافى وقانون اليابان ، بل ذهبت بها الجرأة إلى تحطيم المعابد التى شيدت باسم (آلهتنا القومية) « كامى » و « هوتوكى » وعلى الرغم من أن هذه الفتنة تستحق أقسى ألوان العقاب ، فإننا مع ذلك راغبون فى مقابلة أعضائها بالرحمة ، لذلك نأمرهم بمغادرة اليابان خلال عشرين يوماً ، وعلى من يعصى تقع عقوبة الموت ؛ ولن يصيب أحداً منهم أثناء هذه المهلة ضرر أو أذى ، أما إذا بلغ ذلك الأمر ختامه فإننا نأمر بأن يقبض على من يوجد منهم فى بلادنا وأن يعاقب على أنه من أخطر المجرمين (٥١) .

وفى وسط هذه المفازع كلها وجد القرصان الأكبر من وقته فراغاً ينفقه فى تشجيع رجال الفن ، وأن يُسْهم فى مسرحيات « لا » وفى تأييد « ركيو » فى جعل الاحتفال بالشاى حافزاً على تشجيع صناعة الخزف اليابانى ، وحِلْية هامة تزدان بها الحياة فى اليابان ؛ ومات سنة ١٥٩٨ بعد أن استوغد « أيياسو » وعداً ببناء عاصمة جديدة فى « ييدو » ، (وهى الآن طوكيو) ، وفى الاعتراف بابن هيديوشى – وهو هيديورى – وارثاً له على وصاية العرش فى اليابان .

الفصل السادس

الشوجن (أى الحاكم العسكرى) العظيم

أيياسو فى منصب السلطان – فلسفته – أيياسو والمسيحية – موت أيياسو – طائفة الحكام العسكريين من توكوجاوا

مات « هيديوشى » فأعلن « أيياسو » أنه حين حلف اليمين له ، لم يشهد على يمينه قطرات من دمه يستقطرها من أصابعه أو من فمه ، كما يقضى بذلك تشريع « ساموراى » أى حملة السيف بل استقطر دمه ساعة حلف اليمين من خدش وراء أذنه ومن ثم كان يمينه غير ملزم بالوفاء[٥٢] ، والتقى بجماعة من قادته كانوا ينافسونه السلطان ، التقى بهم عند سكيجاهارا ، فعصف بهم عصفاً فى موقعة انتثر على أرضها أربعون ألفاً من القتلى ، وأبقى على «هيديورى» حتى بلغ سن الرشد فأصبح بذلك خطراً عليه ، وعندئذ أوحى له بالتسليم صيانة لحياته ؛ ولما قرَّعوه على موقفه ذاك ، حاصر قلعة أوساكا الجبارة حيث كان هيديورى محصناً ، واستولى عليها فى الوقت الذى كان الفتى فيه يزهق روح نفسه ، ومكّن لنفسه من السلطان كاملا بأن قتل أبناء «هيديورى» جميعاً الشرعيين منهم وغير الشرعيين ، وبعدئذ نظم « أيياسو » الأمن فى مهارة وقسوة كما نظم القتال ، وحكم اليابان حكماً بلغ من صلاحيته أن رضيت اليابان بأن تحكم بأبنائه وعلى مبادئه مدى ثمانية أجيال .

كان رجلا له أفكاره الخاصة ، وكان يتخذ لنفسه من قواعد الأخلاق ما تقتضيه ظروف الساعة ؛ فلما جاءته سيدة من أكرم السيدات تشكو إليه أن أحد رجاله قد قتل زوجها لكى يظفر بها ، أمر « أيياسو » ذلك الرجل أن يخرج أمعاء نفسه بيده ، وبعدئذ اتخذ من السيدة خليلة له[٥٣] وهو شبيه بسقراط

فى جعل الحكمة الفضيلة التى لا فضيلة سواها ، ورسم الطرق المؤدية إليها فى ذلك الكتاب العجيب الذى أسماه « التراث » أو العهد العقلى الذى خلّفه لأسرته عند موته :

« الحياة شبيهة برحلة طويلة يحمل فيها الراحل حملا ثقيلا ، فاجعل خطاك وئيدة ثابتة ، حتى لا تتعثر ، واقنع نفسك بأن النقص والتعب هما نسيج الحياة الطبيعى عند من تفنى حياته ، ولن يكون فى حياتك ما يمد لك فى سبيل السخط أو اليأس فإذا ما نَزَتْ فى قلبك نزوات الطموح ، فتذكر أيام الشقاء البالغ حده الأقصى ، التى اجتزتها فى ماضى حياتك ؛ فالصبر هو أس السكينة والطمأنينة إلى الأبد ؛ أنظر إلى السخط نظرتك إلى عدوك ؛ فإذا اقتصر علمك على كيف تَهزِم ، ولم تعلم كيف تنهزم ، فالويل لك ، ويا سوء سبيلك فى الحياة الدنيا ؛ فاكشف عن الخطأ فى نفسك قبل أن تكشف عنه فى سواك »[٥٤] .

أما وقد ظفر لنفسه بالسلطان بقوة السلاح ، فقد قرر أن اليابان لم تعد بها حاجة إلى مواصلة الحروب ، وكَرَّس نفسه للنهوض بما يقيم السلام من وسائل وفضائل ، ولكى يباعد بين « الساموراى » (أى حملة السيف) وبين عاداتهم العسكرية ، شجعهم على دراسة الأدب والفلسفة والخلق الفنى ، وهكذا ازدهرت الثقافة فى اليابان فى ظل حكمه الذى نشره فى ربوع البلاد ؛ وتدهورت الروح العسكرية ، وقد كتب يقول : « إن الشعب هو أساس الإمبراطورية »[٥٥]. واستثار فى قلوب خلفه الرحمة والرأفة « بالأرمل والأرملة واليتيم ومن لا أنيس له » لكنه لم يتصف بالميول الديموقراطية ، حتى لقد ذهب إلى أن أفدح الجرائم جميعاً هو العصيان ، « فالزميل » الذى يخرج على صفوف الزملاء من طبقته ، لا بد من الفتك به فور ساعته ، ولا مندوحة من قتل أسرة الثائر بأسرها[٥٦] ، ومن رأيه أن النظام الإقطاعى هو أفضل

نظام يمكن وضعه لبنى الإنسان كما هم فى حقيقة طبائعهم ، لأنه يهيئ اتزاناً معقولا بين السلطة المركزية والسلطة المحلية ، كما يقيم نظاماً طبيعياً وراثياً تتسق به الجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، وهو كذلك يضمن استمرار المجتمع دون أن يتعرض لسلطان الحاكم المستبد ، ولا بد لنا من الإعتراف هنا بأن « أيياسو » قد نظم فى بلاده أكمل صورة عرفها الإنسان لحكومة تقوم على نظام الإقطاع (٥٧) .

وهو – ككل سياسى آخر – قد فكر فى الدين على أنه أداة للنظام الاجتماعى قبل أن يكون أى شىء آخر ، وأحزنه أن يرى أن اختلاف الناس فى عقائدهم الدينية قد قضى على نصف هذا الخير الاجتماعى بما أحدثته العقائد المتعادية من فوضى ؛ وقد كانت العقيدة التقليدية للشعب اليابانى – وهى خليط مضطرب من الشنتوية والبوذية – كانت هذه العقيدة التقليدية من وجهة نظره السياسية الخالصة ، رباطاً بالغ القيمة يربط الجنس اليابانى فى وحدة زوحية ونظام خلقى وولاء وطنى ، وهو على الرغم من أنه نظر إلى المسيحية بادئ ذى بدء بعين التسامح وبأفق عقلى فسيح كاللذين عرفا عن « أكبر » فى (الهند) وأبى أن يفرض عليها ما كان يفرضه عليها « هيديوتشى » من أوامر يعلن بها غضبه منها ، إلا أنه عاد فضاق بها صدراً لتعصبها ، ولاتهامها القاسى للديانة القومية بأنها وثنية ، وما أحدثته بتعصبها الجامح من شحناء لم تقتصر على أن تكون بين المعتنقين المسيحية وبقية أفراد الأمة ، بل امتدت فدبت بين معتنقى الديانة الجديدة أنفسهم (*) ؛ ثم ثار فى صدره السخط آخر الأمر

(*) حدث سنة ١٥٩٦ أن أرغمت التوارب اليابانية سفينة أسبانية على الرسو فى ميناء يابانية ، وساقتها عمداً إلى موضع صخرى فانحطمت نصفين ، ثم استولى الحاكم المحلى على ما بها على أساس أن القانون اليابانى يبيح لأولى الأمر أن يضعوا أيديهم على كل السفن التى تلجأ مضطرة إلى شواطئ اليابان ، فثارت ثائرة الربان « لا نديكوا » واحتج عند وزير « هيديوشى » وهو « ماسودا » – وكان وزيراً للأشغال – فسأله « ماسودا » كيف أمكن للكنيسة المسيحية أن تظفر بكل ما ظفرت به من أقطار فتخضعها لرجل واحد ، ولما كان « لانديكو » بحاراً قبل أن يكون سياسياً ، أجاب : « إن ملوكنا إذا ما أرادوا فتح قطر من الأقطار بدأوا بإرسال المبشرين الدينيين يدعون الناس إلى الدخول فى ديانتنا ، حتى إذا ما وفقوا إلى شىء من النجاح ، أرسلت الجنود لتنضم إلى من اعتنقوا المسيحية من أهل البلاد ؛ وبعدئذ لا يجد ملوكنا كبير عناء فى إتمام ما بقى » (٥٩) .

لما عرف أن المبشرين بالمسيحية كانوا أحياناً يُستخدمون طلائع للفاتحين وأنهم كانوا فى أجزاء متناثرة من أرض الوطن يتآمرون على الدولة اليابانية[٥٨] ؛ فأمر سنة ١٦١٤ بتحريم العبادة المسيحية أو التبشير بتعاليمها فى اليابان ، وطالب المعتنقين لهذه الديانة من الأهالى إما أن يغادروا البلاد وإما أن يرتدوا عن عقيدتهم الجديدة ، واستطاع قساوسة كثيرون أن ينجوا بأنفسهم من طائلة هذا القانون ، وألقى القبض على طائفة منهم ، ولكن لم يُعدم أحد منهم فى حياة « أيياسو » ، فلما قضى نحبه ، صبَّ سادة الحكومة غضبهم على المسيحيين ، وأعقب ذلك بموجةٌ وحشية من الاضطهاد الدينى ، كان من أثرها أن امحت المسيحية من بلاد اليابان محواً تاماً تقريباً ، ولما كان عام ١٦٣٨ تجمعت البقية الباقية من المسيحيين ، وبلغ عددها سبعة وثلاثين ألفاً ، فى شبه جزيرة « شيمابارا » وحصنتها ووقفت وقفة أخيرة دفاعاً عن حرية العبادة ؛ فأرسل لها « أيمتسو » — حفيد أيياسو — قوة كبيرة مسلحة لإخضاعها ، وبعد حصار دام ثلاثة أشهر سقطت الحامية فى أيدى اليابانيين ، وذبح المعتصمون بها ذبحاً فى الشوارع ، لم يبق منهم على قيد الحياة إلا مائة وخمسة أشخاص .

مات « أيياسو » فى نفس العام الذى مات فيه شيكسپير ؛ وخلَّف هذا الحاكم العسكرى القوى سلطانه إلى ابنه « هيديناما » مصحوباً بنصح بسيط وهو : « ارْعَ أبناء الشعب ، وحاول أن تكون فاضلا ، ولا تهمل أبداً فى حماية البلاد » ؛ وكذلك قدم النصح إلى الأشراف الذين وقفوا إلى جانب سريره ساعة احتضاره ، فكان نصحاً على أحسن ما تجرى به التقاليد كما عُرفت عند « كونفوشيوس » و « منشيوس إذ قال قال لهم : « لقد بلغ ابنى الآن سن الرشد ، ولست أشعر بأى قلق على مستقبل الدولة ولكن إذا ما اقترف خلفى خطأ فادحاً فى إدارة حكومته ، فتولوا أنتم زمام الأمور بأيديكم ، فليست البلاد ملكاً

لرجل واحد ، لكنها وطن للأمة بأسرها ، وإذا ما أضاع حمدنى سلطانهم بسبب أخطائهم ، فلن آسف على ضياعه منهم »[٦٠] .

لكن حفدته ملكوا زمام أنفسهم على نحو أحسن جدا مما كان ينتظر أ عادة من ملوك عصرهم أن يفعلوا خلال أمد طويل من الزمن ؛ أما « هيديتادا » فقد كان رجلا متوسط القدرة لا يصدر عنه الأذى ؛ ثم جاء « أييمتسو » مثلا لصورة أقوى من صور أفراد هذه الأسرة ، فاستطاع بشدته أن يحبط حركة نهضت لإعادة النفوذ الحقيقي إلى الأباطرة الذين كانوا لم يزالوا يملكون ولكنهم لم يكونوا يحكمون ؛ وأغدق « تسونايوشي » إغداقاً فى رعايته لرجال الأدب ، ورعايته للمدرستين المتنافستين العظيمتين فى عالم التصوير . وهما « كانو » و « توسا » اللتان زَيَّنتا عصر « جنروكو » (١٦٨٨ — ١٧٠٣) ؛ وجاء « يوشيمونى » فجنّد نفسه للغاية التى ما انفكت الإنسانية تهدف لها حيناً بعد حين ، وهى محو الفقر ، وكان ذلك فى نفس الوقت الذى كانت ميزانية حكومته تعانى فيه عجزاً جاوز المألوف ؛ فاستقرض من طبقة التجار قرضاً طائلا ، وهاجم إسراف الأغنياء ، وخفض نفقات حكومته خفضاً نزع به نحو جانب الزهد الرواقى ، الذى ذهب به إلى حد إخراجه سيدات القصر الخمسين اللائى كن أجمل السيدات ، واكتفى فى ثيابه بلبس القطن ، وفى نومه بحصير مما يرقد عليه الفلاحون وفى طعامه بأبسط ألوان الطعام ؛ ووضع صندوقاً أمام قصر المحكمة العليا ليضع فيه الشاكون شكاواهم ، ودعا الناس إلى نقد السياسة الحكومية أو موظفى الحكومة على أى نحو شاءوا ؛ فلما قدم رجل يدعى « ياماشيتا » عريضة اتهام لاذع يهاجم بها الحكومة من أساسها ، أمر « يوشيمونى » بالاتهام فقرئ على مسمع من الملأ ، وكافأ كاتبها على صراحته بأجزل العطاء[٦١] .

ولقد قرظ « لافكاديوهيرن » حكمه فى ذلك العهد فقال : « إن عصر « تركوجاوا » كان أسعد العصور التى شهدتها الأمة فى حياتها الطويلة »[٦٢]

ويميل التاريخ إلى الأخذ بهذا الرأى نفسه ولو على سبيل الترجيح ، لأن التاريخ لن يبلغ فى علمه بالماضى مبلغ اليقين ؛ فكيف يستطيع الإنسان إذا نظر إلى اليابان اليوم ، أن يتصور أن هذه الجزر التى تضطرب أعصابها اليوم اضطراباً كانت منذ قرن واحد مضى يسكنها شعب فقير لكنه قانع ، ويتمتع بعصر طويل من السلام فى ظل حكومة تقوم عليها طبقة عسكرية ، ويتجه بمجهوده — فى عزلته الهادئة — نحو أسمى غايات الأدب والفن ؟!

الباب التاسع والعشرون

الأسس السياسية والخلقية

محاولات لدراسة الموضوع

إذا أقدمنا الآن على تصوير اليابان التى أسدل عليها الستار عام ١٨٥٣ ، فلنذكر أنه من العسير علينا أن نفهم – كما قد يكون كذلك من العسير أن نحارب – شعباً يبعد عنا خمسة آلاف ميل ، ويختلف عنا لوناً ولغة وحكومة وديانة وخلقاً وعادات وشخصية واهدافاً وأدباً وفناً ، ولقد كان « هيرن » أوثق صلة باليابان من أى كاتب غربى آخر فى عصره ، ومع ذلك فقد ذكر « الصعوبة الشديدة فى إدراك وفهم ما يكمن تحت السطح الظاهر من الحياة اليابانيـــة »[1] ، وكتب أديب يابانى بارع مقالة يذكر فيها الغرب بأن : « ما تعلمه عنا قائم على ما جاءك من ترجمة هزيلة لأدبنا ، إن لم يكن قائماً على الحكايات المشكوك فى صحتها مما يرويه لك عنا الرحالة العابرون ... فما أكثر ما يروعنا نحن الأسيويين هذا النسيج العجيب الذى يمزج الحقائق بالأوهام حين تتحدثون عنا أيها الغربيون ؟ فنراكم تصوروننا كأنما نعيش فى عالم كله عطر من زهرة اللوتس ، أو نعيش على طعام من الفئران والصراصير »[2] فلن تجد فيما يلى – إذن – أكثر من محاولات – قائمة على معرفة مباشرة موجزة أشد إيجاز – لدراسة الحضارة اليابانية ، والخلق اليابانى : وينبغى لكل باحث أن يصحح هذه المحاولات بما يقع له من خبرة شخصية طويلة ، فالدرس الأول الذى تلقيه علينا الفلسفة هو أننا قد نكون جميعاً مخطئين .

الفصل الأول

طبقة الساموراى (أى حمَلة السيف)

الإمبراطور الذى لا حول له – سلطة « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) – سيف « الساموراى » – قانون « الساموراى » « هاراكيرى » – « الرونانات » السبعة والأربعون – حكم قضى بتخفيفه

يقوم على رأس الأمة – من الوجهة النظرية – الإمبراطور المقدس ، وكان البيت الحاكم حقيقة – وأعنى به الحكم العسكرى الوراثى – يسمح للإمبراطور وحاشيته بمبلغ يعادل خمسة وعشرين ألف ريال كل عام ، مقابل الاحتفاظ بالأسطورة النافعة التى تؤثر فى النفوس أثراً عميقاً ، أسطورة اطراد الحكم فى بيت واحد(*) ؛ وكان كثيرون من رجال الحاشية يزاولون حرفاً يدوية منزلية ليكسبوا نفقات عيشهم : فبعضهم يصنع المظلات ، وبعضهم يصنع الملاعق الخشبية أو لاقطات الفضلات من بين الأسنان أو ورق اللعب ؛ وجعل الحكام العسكريون من أسرة « توجوواكا » من مبادئهم ألا يتركوا للإمبراطور ذرة من السلطان ، وأن يعزلوه عن الشعب ، وأن يحيطوه بالنساء ويفتُّوا من عضده بالتخنث والتعطل ، ونزلت الأسرة الإمبراطورية عن سلطاتها فى كفاح ، وقنعت بأن ترسم للعلية ألوان البدع فى الثياب [٣] .

أما « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) فقد كان حينئذ ينعم بثروة اليابان التى أخذت تتزايد ، واصطنع لنفسه امتيازات هى عادة من حق الإمبراطور فإذا سار فى الطريق محمولا فى عربته التى يجرها ثور ، ومحمولا فى محفته ، أمرت الشرطة كل المنازل على طول الطريق أن تقفل أبوابها والمصاريع الخشبية فى نوافذها العليا ، وأن تطفأ كل النيران وأن تحبس الكلاب

(*) ربما كان هذا المبلغ مساوياً لربع مليون ريال بقيمة العملة الامريكية الجارية .

والقطط كلها داخل الدور ، وأن يسجد الناس على جانبي الطريق ، رءوسهم على أيديهم وأيديهم على الأرض[٤] ؛ وكان « للشوجن » حاشية كبيرة ، منها أربعة مضحكين وثماني سيدات مثقفات واجبهن أن يسلينه في غير التزام لقواعد الاحتشام[٥]، وكان إلى جانبه مجلس وزراء استشاري قوامه اثنا عشر عضوا : كبير الوزراء ، وخمسة وزراء ، ثم ستة من الشيوخ يكونون مجلساً أصغر ؛ وكان هناك — كما كان في الصين — مجلس للرقابة مهمته أن يشرف على المناصب الإدارية كلها ، وأن يراقب أمراء الإقطاع ؛ مع أن هؤلاء الأمراء — (أو « الدايميو » كما يسمونهم ومعناها « أصحاب الأسماء العظمى ») لم يكونوا يعترفون من الوجهة الصورية إلا بالإمبراطور ، هو الذي يولونه ولاءهم ، بل استطاع بعضهم — مثل أسرة شيمادزو التي كانت تحكم إقليم ساتسوما — أن ينجحوا في الحد من سلطة الشوجن ، حتى انتهى بهم الأمر إلى طرده من الحكم

وكان يتلو أمراء الإقطاع طبقة السادة (بارونات) ثم يتلو هؤلاء طبقة المشرفين على الأراضي ؛ وكذلك كان يحيط بالأمراء ألوف من فئة « الساموراي» — والساموراي هم حراس يحملون السيف ؛ فالقاعدة الرئيسية في المجتمع الإقطاعي الياباني هي أن كل رجل من السادة هو جندي ، والعكس صحيح ، أي أن كل جندي هو كذلك من السادة[٦] فهاهنا يقع أكبر اختلاف بين اليابان وبين الصين المسالمة التي ظنت أن شرط الرجل من السادة هو أن يكون عالماً لا أن يكون محارباً ؛ وعلى الرغم من أن حملة السيف هؤلاء كانوا يحبون قراءة القصص التي تغذي فيهم انتفاخ الأوداج ، مثل القصة الصينية التي عنوانها « قصة المماليك الثلاثة » ، بل كانوا إلى حد ما يصوغون حياتهم على نموذج تلك القصص ، إلا أنهم كانوا يزدردون العلم للعلم ، وكانوا يسمون ، العالم الأديب بالسكران الذي يفوح برائحة الكتب[٧] ، وكان لهم امتيازات كثيرة ، فهم معفون من الضرائب ، ولهم الحق في مقدار من الأرز يعطيهم

إياه السيد الذى يخدمونه ، ولم يكن يطلب إليهم أن يعملوا شيئاً إلا أن يموتوا فى سبيل وطنهم إذا ما دعت إلى ذلك الظروف ؛ وكانوا يحتقرون الحب ويعدونه لعبة رشيقة ، ويؤثرون علاقة الصداقة على نمط إغريقى : والميسر والعربدة كانا جزءاً متمما لعيشهم ولكى يحافظوا على مران سيوفهم ، كانوا يدفعون المال للجلاد فى مقابل أن يسمح لهم بجز رقاب المحكوم عيهم بالإعدام[٨] فسيف رجل من فئة « الساموراى » هو بمثابة روحه - على حد تعبير « أيياسو » وكثيراً جداً ما كان يجد الفرصة التى تدعوه إلى استعمال سيفه ، على الرغم من المدة الطويلة التى نعمت فيها اليابان بالسلام ؛ فله الحق — إذا أخذنا بما يقوله « أيياسو »[٩] — أن يقضى فوراً على أى إنسان من الطبقات الدنيا إذا ما أساء إليه ؛ وإذا كان سيفه جديداً وأراد أن يجربه ، فيجوز أن يجربه فى سائل كما يجوز أن يجربه فى كلب[١٠] وفى ذلك يقول « لُنجفورد » : « إن سيافاً مشهوراً قد اقتنى سيفاً جديداً ، فوقف إلى جانب « ينهون باشى » (وهذا اسم جسر فى وسط مدينة ييدو) ينتظر فرصة لاختبار مضاء سيفه ، فجاء فلاح بدين ساعياً فى الطريق ، مرحاً بفعل الخمر ، فقابله السياف بضربة يسمونها « ناشى وارى » (ومعناها شق الكمثرى) وأصابت الضربة مرادها إذ شقت الرجل نصفين ، من قمة رأسه إلى مفرق فخذيه ، فمضى الفلاح فى طريقه غير عالم بما نزل به ، حتى اصطدم بحمال فسقط نصفين مشطورين على أدق صورة »[١١] فما أتفه الفرق بن « الواحد » و « الكثير » هذا الموضوع الذى دوخ الفلاسفة فى فهمه .

لكن هؤلاء السيافين كانت لهم لطائف أخرى غير هذه المهمة المرحة التى كانوا يحولون بها الفناء خلود ؛ فقد التزموا أوضاعاً صارمة اشترطوها للرجل الشريف — ويطلق على مجموعة هذه الأوضاع اسم « بوشيدو »(*) —

(*) صاغ هذه الكلمة إنازو نيتوبى

ومعناها « طرائق الفروسية » وجوهر فكرتها فيه تعريف لما ترمى إليه من فضيلة : « هى القدرة على اختيار سلوكك فى الحياة وفق ما يمليه العقل دون تردد ، وأن تموت حين يجب عليك أن تموت ، وأن تضرب حيث ينبغى لك أن تضرب »[١٢] وكانوا يحاكمون بمقتضى تشريعهم هذا ، وهو أقسى من القانون السائد بين عامة الناس[١٣] وكانوا يزدرون كل الأعمال والمكاسب المادية ، ويأبون أن يقرضوا المال أو يقترضوه أو يحسبوه ، وقلما أخلفوا وعودهم ، وكانوا لا يترددون فى المخاطرة بحياتهم عوناً لكل من استنجدهم المعونة ؛ وأخذوا على أنفسهم أن يحيوا حياة خشنة مقترة فلا يأكلون فى اليوم إلا وجبة واحدة ، وكانوا يروضون أنفسهم على أكل ما صادفهم من طعام كائناً ما كان ؛ وكانوا يحتملون الآلام على اختلافها صامتين ، ويكبحون فى أنفسهم كل ما قد يدل على انفعالاتهم الداخليه ، وعلموا نساءهم كيف يتهللن بشراً إذا ما نمى إليهن أن أزواجهن قد قضوا نحبهم فى ساحات القتال[١٤] ولم يكونوا يلتزمون طاعة إلا طاعة الولاء لرؤساهم ، فطاعة الرؤساء جزء من تشريعهم الذى وضع تلك الطاعة فوق حب الآباء لأبنائهم أو الأبناء لآبائهم ، ومن مألوف الأمور عند « الساموراى » (أى هؤلاء السيافين) أن يخرج الرجل منهم أمعاء نفسه إذا ما مات سيده لكى يخدمه ويحميه فى الحياة الآخرة ؛ فلما كان « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) الذى يدعى « أيمتسو » يحتضر سنة ١٦٥١ ، ذكر كبير وزرائه « هتو » بواجبه فى أداء الـ « چنْشى » (أى اللحاق بسيد بعد موته فقتل « هتو » نفسه دون أن ينبس ببنت شفة ، ونسج على منواله كثير من الأتباع[١٥] ولما صعد « الإمبراطور ميسو هيتو » إلى أسلافه سنة ١٩١٢ انتحر الجنرال « نوجى » وزوجته ولاء منهما للإمبراطور[١٦] فلست ترى من التقاليد عند سائر الشعوب بما فى ذلك تقاليد روما التى كانت تخرج جنوداً من الطراز الأول ، ما بث شجاعة آبسل ، أو زهداً أصرم ،

أو ضبطاً للنفس أقوى مما كانت تقتضيه تقاليد هؤلاء « السيافين » من أعضاء تلك الفئة التي تعرف عندهم باسم « ساموراى » ؟

وآخر القوانين فى تشريع « بوشيدو » (أى تشريع طائفة السيافين) هو قانون « هاراكيرى » — ومعناها الانتحار بإخراج الأمعاء ؛ ولا تكاد الظروف التي تقتضى من السياف أن ينتحر على هذا الوجه تقع تحت حصر فقد كان الأمر من كثرة الوقوع بحيث لا يكاد يستوقف النظر ؛ فإذا حكم بالموت على رجل من ذوى المكانة الاجتماعية ، سمح له — إذا أراد الإمبراطور أن يدل على تقديره له — بأن يبقر بطنه بنفسه من اليسار إلى اليمين ، ثم يشقها إلى أسفل ، مستخدماً فى ذلك سيفه الصغير الذى كان الواحد منهم لا ينفك مصطحباً له من أجل هذه الغاية ؛ وإذا هزم أحدهم فى القتال ، أو اضطر إلى الاستسلام لعدوه ، كان الاحتمال بأن يبقر بطنه بيده معادلا تماماً لاحتمال أن يأبى على نفسه ذلك (فكلمة « هاراكيرى » معناها شق البطن ، وهى كلمة سوقية قلما ينطق بها اليابانى ، إذ هم يفضلون كلمة « سپيوكو ») فقد حدث أن خضعت اليابان سنة ١٨٩٥ لضغط الدول الأروبية فى إخلاء «لياوتنج» فارتكب أربعون رجلا من العسكريين « هاراكيرى » احتجاجاً ؛ كذلك حدث فى حرب سنة ١٩٠٥ أن أزهق عدد كبير من الضباط والجنود اليابانيين نفوسهم على هذا النحو ، فذلك عندهم خير من الوقوع فى أسر الروس ، وإذا لقى الرجل من « الساموراى » (السيافين) إساءة من سيده ، فإنه — إن كان سيافاً أصيلا — يهلك حياة نفسه عند باب ذلك السيد ؛ وكان فن « السپيوكو » (أى بقر البطن انتحاراً) — وهو ذو أوضاع دقيقة بمثابة الطقوس الدينية . فى طليعة ما يلقن للشاب من فئة « الساموراى » ، وآخر علامات المودة التى يبديها الصديق لصديقه أن يقف إلى جانبه ليجز له رأسه فيفصلها عن جسده ، بعد أن يكون ذلك الصديق قد بقر بطن نفسه بيده[١٧] ؛ من هذا التدريب وما أحاط به من

تقاليد نشأ ما يتصف به الجندى اليابانى من عدم الخوف من الموت(*) .

كذلك كان يسمح بالاغتيال – كما كان يسمح بالانتحار – فى ظروف معينة أن يحل محل القانون ؛ فاليابان فى نظامها الإقطاعى كانت تقتّر فى الإنفاق على رجال الشرطة ، بوسائل كثيرة منها أن تجيز لابن القتيل أو أخيه أن يثأر لنفسه بدل الالتجاء إلى القانون ؛ ولقد أدى هذا الاعتراف بحق الثأر – إلى جانب إيحائه بنصف القصص والمسرحيات فى الأدب اليابانى – إلى الحيلولة دون كثير من الجرائم ؛ ومع ذلك فالرجل من فئة « الساموراى » (أى السيافين) كان يحس عادة أن واجبه يقتضيه ارتكاب (الهاراكيرى) بعد استخدامه لحقه فى الثأر بنفسه من عدوه ؛ مثال ذلك ما فعله « الرونانات » الأربعون المشهورون وهم فئة من السيافين لم يكونوا أعضاء رسميين فى تلك الطائفة (حين تأثروا من « كوتسوكى » لما ارتكبه من قتل اغتيالى ، فعلوا ذلك وهم يصطنعون له غاية الرقة ويقدمون له المعاذير ، ثم انسحبوا فى وقار إلى ضيعات عينها لهم « الحاكم العسكرى » وقتلوا أنفسهم قتلا التزموا فيه غاية الثبات (كان ذلك سنة ١٧٠٣) ، وأعاد الكهنة رأس « كوتسوكى » إلى رئيس حاشيته ، فأخذ منهم الرأس وأعطاهم هذا الإيصال البسيط :

مذكرة :

١ رأس واحد .

(*) كانت الـ « هاراكيرى » محرمة على النساء والسوقة ، لكن كان يسمح للنساء أن يرتكبن ما يسمى « جيجاكى » – ومعناها أن يؤذن لهن – احتجاجاً على ما يصيبهن من إساءة – أن يحتزمن من رقابهن بالخناجر ، وأن يقطعن الشرايين بضربة واحدة ؛ فكانت كل امرأة لها مكانة اجتماعية تلقى تدريباً فى عملية جز الرقبة ، ويعلمونها كيف تربط ساقيها قبل قتلها نفسها ، خشية أن تقع الأبصار على جثتها وهى فى وضع لا يتفق مع ما تقتضيه العفة(١٨) .

٢ — حزمة ورقية واحدة .
تسلمت الشيئين المذكورين أعلاه .

(توقيع) سايارا موجوباى
سايتو كوناى

ولعل هذه الحادثة أن تكون أشهر حادثة فى تاريخ اليابان كله وأصدقها تمثيلا لليابانيين ، وهى من أدل الحادثات تصويراً للخلق اليابانى إذا أردت أن تفهمه ؛ والذين اقترفوا ذلك الفعل ، ما يزالون — فى أعين الشعب — أبطالا وقديسين ؛ وإلى يومنا هذا ما يزال الأتقياء يزخرفون قبور أولئك النفر ، ولا ينقطع البخور عن مثواهم[١٩] .

ولما دنا عهد وصاية « أيياسو » على العرش من ختامه ، نهض شقيقان ، هما « ساكون » و « نايكى » ، وعمر الأول منهما إذ ذاك أربعة وعشرون ، وعمر الثانى سبعة عشر ، وحاولا أن يقتلاه لما أنزله بأبيهما من مظالم — فى رأيهما — فوقعا فى قبضة الحراس ساعة دخولهما فى المعسكر ، وحكم عليهما بالموت ؛ لكن « أيياسو » تأثر بما أبدياه من شجاعة ، وخفف عنهما حكم الإعدام بحيث أصبح أن يتركا ليقتلا نفسيهما على الطريقة المألوفة فى إخراج المرء لأمعاء نفسه ؛ ثم قضى كذلك — مراعاة لعادات عصره — أن يشمل هذا القرار الرحيم أخاهما الأصغر « هاشيمارو » وقد كان فى الثامنة من عمره ؛ وقد خلف الطبيب الذى كلف بملاحظة هؤلاء الصبية فى قتل أنفسهم ، وصفاً لما رأى ، فيما يلى :

لما أجلسوا جميعاً فى صف ليرحلوا عن هذا العالم رحلة لا أوبة بعدها ، التفت « ساكون » إلى الأخ الأصغر قائلا : « اذهب أنت أولا ، لأنى أود أن أستيقن من أنك تؤدى الأمر على وضعه الصحيح » فلما أجاب الصغير بأنه لم يشهد قط عملية الـ « سِپُولكو » من قبل فإنه يجب أن يرى أخويه وهما يؤديانها ، حتى يستطيع بعدئذ أن يحذو حذوهما ، فابتسم أخواه الأكبر ان

وعيناهما تدمعان ، وقالا : « لقد أصبت أيها الأخ الصغير ، ويحق لك الآن أن تفخر بأنك ابن أبيك » ؛ ولما وضعاه بينهما ، طعن « ساكون » خنجره فى الجانب الأيسر من بطنه وقال : « انظر ، أخى ، أتفهم الآن ؟ والذى ينبغى أن تراعيه هو ألا تضرب الخنجر عميقاً حتى لا يطرحاك على الأرض ، بل كن أميل بجسدك إلى الأمام ، واجعل ركبتيك فى وضع ثابت » . وفعل « نايكى » ما فعله « ساكون » وقال للصبى : « افتح عينيك خشية أن تبدو كالمرأة وهى تحتضر ، وإذا أحسست أن شيئاً فى جوفك يعوق إخراج خنجرك ، وأن قواك تخور ، فاجمع شجاعتك وضاعف جهدك فى شد خنجرك جانباً لتقطع به البطن قطعاً أفقياً » فنظر الصبى إلى أخيه عن يمينه وإلى أخيه عن يساره ، حتى إذا ما رآهما قد أسلما الروح ، خلع ثيابه هادئاً عن نصف جسده ، واحتذى حذو ما يراه عن يمينه وعن يساره »[٢٠] .

الفصل الثانى

القانون

التشريع الأول – المسئولية الجمعية – العقاب

كان التشريع القانونى فى اليابان مكملا عنيفاً لما كان يتم بالاغتيال وبالثأر وقد استمد ذلك التشريع بعض أصوله من تقاليد الشعب القديمة ، كما استمد بعضها الآخر من التشريعات الصينية فى القرن السابع ، ذلك أن القانون قد صحب الدين فى هجرة الثقافة من الصين إلى اليابان[٢١] ، وبدأ « تنشى تينو » صياغة مجموعة من القوانين ، كملت وأذيعت فى عهد الإمبراطور اليافع « مومو » عام ٧٠٢ ، لكن هذا التشريع وغيره من تشريعات العصر الإمبراطورى ، أهملت فى العصر الإقطاعى ، إذ جعل كل حاكم إقطاعى يسن لنفسه ما شاء من تشريع مستقلا عن سائر المقاطعات . ولم يعترف الرجل من طبقة « السيافين » بقانون إلا ما يريده وما يأمر به مولاه[٢٢] .

وكانت العادة فى اليابان حتى سنة ١٧٢١ أن تكون الأسرة كلها مسئولة عن كل فرد من أفرادها ، فتضمن حسن سلوكه ؛ وكذلك كانت الأسرة الواحدة — فى معظم الأقاليم — توضع فى مجموعة من خمس أسرات ، تكون كل منها مسئولة عن سائر أفراد المجموعة ، فالرجل إذا حكم عليه بالصلب أو بالحرق ، قضى كذلك بالموت على أبنائه الكبار ، وبالنفى على أبنائه الصغار عندما يبلغون الرشد[٢٣] ، وكان نظام المحنة متبعاً فى التحقيق على نحو ما كان متبعاً فى العصور الوسطى ، ولبث التعذيب شائعاً — فى صوره الخفيفة — حتى هذا العصر الحديث واصطنع اليابانيون من وسائل التعذيب إزاء المسيحيين ؛ ناسجين على منوال محاكم التفتيش نسجاً فيه انتقام لما أنزله المسيحيون أنفسهم

بأنفسهم فى تلك المحاكم ، لكنهم كثيراً ما كانوا أدق فى وسائلهم التعذيبية . فيربطون الرجل بحبال فى وضع وثيق . يزيد المربوط ألماً كلما مرت به لحظات الزمن لحظة بعد لحظة[٢٤] ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الضرب بالسياط لأتفه الأخطاء ، وكان الإعدام لديهم عقوبة على كثير جداً من أنواع الجرائم ، وجاء الإمبراطور شومو (٧٢٤ – ٥٦) فألغى عقوبة الإعدام وجعل الرحمة أساس حكمه ، لكن الإجرام زادت نسبته بعد موته ، حتى لم يقتصر الإمبراطور « كوشين » (٧٧٠ – ٨١) على إرجاع عقوبة الإعدام بل أضاف إلى ذلك أنه أمر بأن يضرب اللصوص بالسياط علناً حتى يلفظوا الروح[٢٥] ، وكانوا ينفذون الإعدام بالخنق وجز الرأس والصلب وقطع الجسد أربعة أرباع والحرق أو الغلى فى الزيت[٢٦] ، وكان « أيياسو » قد ألغى العادة التى تقضى بأن يمزق المتهم نصفين بشده بين ثورين ، كما ألغى العادة التى تقضى بأن يربط المتهم فى عمود وسط الملأ ، ثم يطلب من كل مار أن يأخذ نصيبه فى تقطيع جسده بمنشار ينشره من كتفه فأسفل[٢٧] ، وكان من رأى « أيياسو » أن كثرة الالتجاء إلى العقوبات الصارمة لا تدل على إجرام الشعب بمقدار ما تدل على فساد الموظفين وعجزهم[٢٨] ، وكم ساء « يوشيمونى » أن يجد سجون عصره بغير استعدادات صحية ، وأن بين المسجونين فئة بدأت محاكماتها منذ ست عشرة سنة ولم تنته بعد ، حتى لقد نسيت الاتهامات الموجهة إليهم ، ومات الشهود[٢٩] ، وأخذ هذا الحاكم العسكرى الذى كان أكثر هذه الطائفة استنارة فى إصلاح السجون ، وعمل على السرعة فى الإجراءات القضائية ، وألغى المسئولية الأسرية ، وواصل العمل المضنى بغية أن يصوغ أول تشريع موحد للقانون الإقطاعى فى اليابان (١٧٢٩) .

الفصل الثالث

العمـــال

نظام الطبقات – تجربة فى تأميم الأراضى – تحديد الدولة الأجور – مجاعة – الصناعات اليدوية – الصناع والنقابات

انقسمت الجماعة فى العصر الإمبراطورى ثمانى طبقات ، ثم زالت بعض الفوارق فى العهد الإقطاعى بحيث أصبحت تلك الطبقات أربعاً : الساموراى (أى السيافون) والصناع والفلاحون والتجار – والطبقة الأخيرة هى كذلك أخيرة فى الترتيب الاجتماعى ، ويأتى تحت هذه الطبقات جمع غفير من العبيد فتبلغ نسبتهم ما يقرب من خمسة فى كل مائة من السكان ، وقوامهم المجرمون وأسرى الحرب والأطفال المخطوفون الذين باعهم خاطفوهم ، وكذلك الأطفال الذين باعهم آباؤهم عبيداً فى الأسواق(*)[٣٠] ويأتى دون هؤلاء العبيد أنفسهم فى المنزلة الاجتماعية ، طبقة من المنبوذين يسمونهم « إيتا » ، يعدهم بوذيو اليابان منبوذين نجسين لأنهم يشتغلون بالجزارة أو بالدباغة أو بحمل القمامة[٣٢] .

والأكثرية العظمى من السكان (الذين بلغ عددهم فى أيام يوشيمونى عدداً يقرب من ثلاثين مليوناً) كانت تتألف من صغار ملاك الأراضى الذين يزرعون أرضهم زراعة مركزة ، وهى مساحة تبلغ ثمن التربة اليابانية الجبلية التى تسمح للمحراث أن يشق جوفها(**) ، وحدث فى عصر « نارا » أن أممت الدولة الأراضى الزراعية ، وأجرتها للفلاحين مدى ست سنوات ، أو مدى حياة الفلاح على أكثر تقدير ؛ لكن الحكومة سرعان ما تبينت أن الناس

(*) حرم هذا على الآباء سنة ١٦٩٩[٣١]

(**) الأجزاء القليلة الصالحة للزراعة كانت – ولا تزال – تسمد بالفضلات البشرية .

لم يعنهم أن يصلحوا الأرض أو أن يحرصوا عليها حرصاً حقيقياً ما دام من الحائز أن تؤول إلى سواهم بعد حين قصير ، وانتهت التجربة بالعودة إلى الملكية الخاصة ، مع مد الحكومة الفلاحين بالمال فى فصل الربيع ليتمكن الفلاحون من سد نفقات البذر والحصاد[٣٣]، ومع هذه المعونة المالية لم تكن حياة الفلاح على درجة من اليسر تحلل قواه ، فلا تزيد مزرعته على شريحة ضئيلة من الأرض ، لأن الميل المربع ــ حتى فى ذلك العهد الإقطاعى ــ كان مورد رزق لألفى رجل[٣٤] وكان على الفلاح أن يسخر فى عمل للدولة مدى ثلاثين يوماً كل عام ، كان من الجائز خلالها أن يلاقى حتفه بطعنة رمح عقاباً له على لحظة واحدة تراخى فيها عن العمل[*][٣٥] وكانت تقتضيه الحكومة ستة فى المائة من محصوله ضريبة وغيرها من القروض ، كان ذلك فى القرن السابع ، أما فى القرن الثانى عشر ، فكانت تقتضيه سبعة فى المائة ، وأربعين فى المائة فى القرن التاسع عشر[٣٧] ، وكانت آلاته الزراعية غاية فى بساطتها ، وثيابه هلاهيل خفيفة فى الشتاء ، وهو فى العادة لا يلبس شيئاً قط فى الصيف ، وكل أساسه فى المنزل قدر للأرز وقليل من الأقداح وبضعة ملاعق خشبية ، وداره من الضآلة بحيث يكفى نصف أسبوع لبنائها[٣٨] ذلك لأن الزلازل تحطم له كوخه حيناً بعد حين ، أو تقضى عليه المجاعة ، وإذا عمل أجيراً عند رجل آخر ، حددت له الحكومة ــ فى عهد توكوجاوا ــ ما يستحق من أجر[٣٩] لكن تحديد الحكومة للأجور لم يمنع هبوطها هبوطاً فظيعاً ؛ وتجد فى كتاب لـ « هوكوكى » وهو من أشهر كتب الأدب اليابانى ــ وصفاً لطائفة من الكوارث

(*) كان يسمح لهم خلال شهرى يوليو وأغسطس أن يقيلوا فى الظهيرة من منتصف النهار إلى الساعة الرابعة ؛ وكانت الدولة تقوم على إطعام العمال المرضى ، وعليها كذلك أن تعد الأكفان لمن يموت إبان السخر[٣٦] .

اجتمعت كلها فى الثمانية الأعوام — ما بين ١١٧٧ و ١١٨٥ — فزلزال ومجاعة وحريق كاد يأتى على كيوتو كلها(*) ووصفه لما شاهده بعينه من مجاعة سنة ١١٨١ يعد مثلا من أجمل ما فى النثر اليابانى :

« حدث فى أرجاء البلاد جميعاً أن غادر الناس آراضيهم بحثاً عن سواها ، أو نسوا ديارهم وذهبوا إلى التلال يتخذون فى شعابها مسكناً ؛ ولهجت الألسنة بكل ضروب الدعاء ، وأدى الناس كل ألوان الشعائر الدينية التى لم تكن مألوفة فى الأيام العادية ، إذ أعادوها من جديد ، كل ذلك فعلوه بغير ما جدوى ... وأبدى سكان العاصمة استعدادهم لتضحية كل ما يملكون من نفائس من شتى الضروب ، نفيساً فى إثر نفيس (من أجل القوت) لكن لم يأبه لتلك النفائس أحد عندئذ . . . واحتشد السائلون الإحسان جماعات على جوانب الطريق ، وامتلأت آذاننا بأصوات أنينهم الباكى . . . كان الناس جميعاً يموتون من جوع ، وكلما تقدمت بنا الأيام ازددنا يأساً حتى لقد أشبهنا ما تروى عنه القصة من سمك البركة ؛ وانتهى الأمر حتى بأولئك الذين توحى سيماهم بالاحترام ، والذين يرتدون القبعات ويغطون الأقدام ، انتهى الأمر حتى بأولئك الناس إلى الإلحاف فى سؤال الإحسان من باب إلى باب ، وكان يحدث أحياناً أن يأخذك العجب كيف يستطيع هؤلاء الذين بلغت بهم تعاسة الحال كل هذا الحد أن يمشوا على أقدامهم ، وإذ بك تراهم يسقطون أمام عينيك إعياء ، فمات عدد لا يحصى من المجاعة ، وكانوا يلفظون أرواحهم بجوار أسوار الحدائق أو إلى جوانب الطرقات ؛ ولما كانت أجسادهم لا تجد من يزيلها من أماكنها ، فقد امتلأ الهواء بالرائحة النتنة ؛ حتى إذا ما أخذ التغير يطرأ

(*) ابشع ما شهدته اليابان فى تاريخها من حرائق — وهى فى تاريخها كثيرة — هى تلك التى محت ييدو (طوكيو) محواً تاماً سنة ١٦٥٧ ، وقضت على مائة ألف نفس بشرية .

يطرأ على أجسادهم ، نشأت مشاهد لا تستطيع العين أن تراها ... ومن لم يكن له كسب يشترى به القوت ، هدم داره ليبيع أجزاءها فى السوق ، وقيل إن الحمل يحمله الرجل بكل طاقته ، لم يكن ثمنه ليكفى سد رمقه يوماً واحداً ، والعجب أنك كنت ترى فى هذا الحطام من أخشاب المنازل ، الذى كانوا يبيعونه وقوداً للنار ، قطعاً مزدانة فى بعض أجزائها بالألوان أو بالفضة أو بطلاء الذهب .. وشىء آخر يستثير فى النفس أشد أحزانها ، وهو أنه إذا كان ثمة رجل وامرأة يربط بينهما رباط الحب الشديد ، فالذى كان منهما أقوى حباً من الآخر ، وأعمق ولاء ، يموت قبل زميله ؛ وعلة ذلك أن الواحد منهما يؤثر غيره على نفسه ، فالذى يشتد حبه يقدم لمحبوبه — رجلا كان أو امرأة — أى شىء يطلبه منه ، فكان الوالدون بطبيعة الحال يموتون قبل أبنائهم ؛ كذلك كنت ترى الرضع أحياناً عالقين بأثداء أمهاتهم ، لا يعرفون أن هؤلاء الأمهات قد فاضت أرواحهن ... وبلغ عدد الموتى فى كيوتو الوسطى خلال الشهرين الرابع والخامس وحدهما ٤٢٫٣٠٠ من الأنفس البشرية »[٤٠] .

قارن هذه الفترة الفظيعة التى تخللت مجرى الزراعة ، بالصورة التى يقدمها لنا « كيمفر » ساطعة عن الصناعات اليدوية فى اليابان كما رآها فى كيوتو سنة ١٦٩١ .

« كيوتو هى المستودع العظيم الذى تخزن فيه كل المنسوجات والسلع اليابانية ، وهى المركز التجارى الرئيسى فى الإمبراطورية ؛ فتكاد لا تجد فى هذه العاصمة الكبرى منزلا واحداً لا يصنع فيه شىء أو يباع شىء ؛ فالناس هاهنا يصفّون النحاس ويسكون النقود ويطبعون الكتب ويطرزون افخر المنسوجات بزهور الذهب والفضة . وهاهنا كذلك تصنع أحسن صنوف الصبغة وأندرها ، وأروع النقوش فناً ، وكل ضروب الآلات الموسيقية والصور والخزانات اليابانية ، وشتى الأشياء التى تصاغ من الذهب وغيره من المعادن ، وخصوصاً

الصلب ؛ مثال ذلك السيوف ذوات النصل القوى وغيرها من الأسلحة ؛ كل ذلك يصنع هاهنا صناعة بلغت غاية الكمال ، كما تصنع أفخر الأردية على خير طراز ، وكل صنوف اللعب ونماذج الحيوان التى تحرك رؤوسها من تلقاء نفسها وأشياء أخرى أكثر عدداً من أن يحصرها العدد فى هذا المكان ؛ واختصاراً لست تستطيع أن تفكر فى شىء مما لا تراه يصنع فى كيوتو — وليس هنالك شىء مما يستورد من خارج البلاد — مهما بلغت دقة صناعته — مما لا تجد بين صناع العاصمة من يأخذ على نفسه أن يحاكيه ... إنه ليس فى المنازل التى تقع فى الشوارع الرئيسية إلا قلة لا تعرض شيئاً للبيع ؛ ولم يسعنى إلا العجب أنى لهؤلاء الناس الزبائن لشراء هذه المقادير الهائلة من البضائع؟ »[٤١] .

لقد استوردت اليابان قبل ذلك بزمن طويل كل فنون الصين وصناعاتها ؛ وكما ترى اليابان اليوم قد بدأت تفوق معلميها من أهل الغرب فى الاقتصاد والمقدرة على الإنتاج الآلى[٤٢] ، فكذلك حدث فى أثناء حكومة توكوجاوا العسكرية ، إذ أخذ صناعها ينافسون، بل وأحياناً يفوقون زملاءهم من أهل الصين وكورية الذين علموهم الصناعة ؛ وكانت معظم الصناعة تقوم بها الأسرة فى الدار — كما كانت الحال فى أوربا فى عصرها الوسيط — وكانت الأسرة تورث صناعتها ومهارتها من الوالد إلى ولده ، وكثيرا ما أطلق على الأسرة اسم الصناعة التى كانت تقوم بها ؛ وكذلك — كما كانت الحالة أيضاً فى أوربا فى عصرها الوسيط — تألفت نقابات كبرى، لم يكن قوامها الصفوف الدنيا من الصناع بقدر ما كان قوامها السادة الذين كانوا يستغلون الصناع استغلالا لا يعرف الرحمة ، وحددوا حق الالتحاق بهذه النقابات للأعضاء الجدد بقيود أسرفوا فى ضيقها[٤٣] ؛ وكانت نقابة الصيارفة من أقوى النقابات ، الصيارفة الذين كانوا يقبلون الودائع والتحويلات المالية « والكمبيالات » ويقرضون القائمين على التجارة والصناعة والحكومة ؛ وما جاءت سنة ١٦٣٦

حتى كانوا يؤدون كل العمليات المالية الكبرى (٤٤) وأصبح التجار الأغنياء والممولون من أعلام أهل المدن ، وأخذوا ينظرون بعين الحسد إلى السلطة السياسية التى كانت مقصورة على السادة الإقطاعيين الذين أثاروا فى صدورهم الشحناء باحتقارهم السعى وراء الذهب ؛ وأخذت الثروة التجارية تزداد شيئاً فشيئاً خلال عصر « توكوجاوا » حتى استطاعت آخر الأمر أن تتآزر مع المواهب الأمريكية والمدافع الأوروبية على تحطيم القشرة المتحجرة فوق اليابان القديمة .

الفصل الرابع

الشعب

قوام أجسادهم – عجائن الزينة – الثياب – الطعام – آداب المعاملة – « سيك » – احتفال الشاى – احتفال الزهور – حب الطبيعة – الحدائق – المنازل

إن الشعب الذى يحتل أعلى مكانة فى العالم السياسى المعاصر يتألف من أفراد قصار القامة ، إذ يبلغ متوسط قامة الرجل منهم خمسة أقدام وثلاث بوصات ونصف البوصة ، ويبلغ متوسط قامة المرأة أربعة أقدام وعشر بوصات ونصف البوصة ؛ وقد جاءنا وصف لرجل هو من أعظم جنودهم ، أعنى « تامورامارو » ، بأنه « رجل جميل القوام إلى حد بعيد ... طوله خمس أقدام وخمس بوصات »[٤٥] ويذهب بعض علماء التغذية إلى أن هذا القصر فى القامة يرجع إلى قلة الخير فى الغذاء اليابانى ، وهذه القلة بدورها راجعة إلى قلة اللبن؛ وقلة اللبن سببها ارتفاع أثمان أراضى الرعى فى مثل هذه البلاد الغاصة بأهليها[٤٦] ، لكننا لا ينبغى أن نعد هذه النظرية أكثر من فرض بعيد الاحتمال – شأنها فى ذلك شأن كل ما يقال فى العلم الذى يحلل غذاء الإنسان ؛ ويبدو على النساء هناك ضعف وهزال ، فالظاهر أن ما لهن من نشاط – وهن فى ذلك كالرجال فى نشاطهم هناك – يرجع إلى قوة الجهاز العصبى أكثر مما يرجع إلى القوة البدنية ؛ ولست ترى علائم النشاط بادية إلا إذا دعت إليه ضرورات الحياة؛ ولهن جمال هو جمال التعبير الذى تنطق به وجوههن ، وجمال المشية ، وجمال القسمات ؛ فهذه الرشاقة اللطيفة التى تراها فيهن مثل جميل لما قد أدى إليه الفن فى بلادهن .

ومعاجين الزينة شائعة فى اليابان وقديمة العهد فيها ؛ كما هى الحال فى

سائر الأقطار . فترى الرجل منهم – حتى فى العصر القديم الذى بسط فيه « كيوتو » زعامته على البلاد – ترى الرجل منهم إذا ما كان ذا منزلة اجتماعية ، يُحَمِّرُ وجنتيه ، ويضع المساحيق على وجهه ، ويعطر ثيابه ، ويحمل معه مرآة من ذهب(٤٧) ، وكذلك لبث نساؤهم قروناً طوالا لا ترى وجوههن إلا مغطاة بالمساحيق ، وفى ذلك تقول « السيدة سى شرناجون » فى كتابها : « صور على الوسادة » (حوالى ٩٩٤ ميلادية) مصطنعة الحشمة فى قولها : « حَنَيْتُ رأسى فأخفيت وجهى بكمى ، مخاطرة فى ذلك بما قد يحدثه الكم من إزالة المسحوق عن وجهى فيبدو مُبَقَّعاً » (٤٨) فقد كان سيدات البدْع يحَمِّرْن خدودهن ويطلين أظفارهن .ويُذَهِّبْنَ أحياناً سيقانهن السفلى ، فزينة المرأة فى القرن السابع عشر لم تكمل بأقل من ستة عشر صنفا ، وهى فى القرن الثامن عشر قد بلغت العشرين صنفاً ؛ وعرَف النساء خمسة عشر طرازاً لتصفيف الشعر الأمامى ، واثنى عشر طرازاً للشعر الخلفى ، وكن يحلقن حواجبهن ، ويرسمن مكانها أهلَّةً أو غيرها من الرسوم ؛ أوكن يضعن بدل الحواجب نقطتين سوداوين صغيرتين فى أعلى الجبهة ، لكى يحدثن بهما تناسقاً مع الأسنان التى كن يُسَوِّدْنها صناعة ، وكان تصفيف الشعر للمرأة عملا يستغرق ساعتين إلى ست ساعات إن كان القائم بالتصفيف خبيراً بفنه ؛ وكان معظم الرجال فى عصر « هايى » يحلقون مقدمات رءوسهم ، ويجمعون ما تبقى من الشعر ضفيرة يمدونها وسط ذلك الجزء الأمامى الحليق ، ليقسموه بها نصفين ، وكانت اللحى ضرورة للرجال ، رغم قلة شعراتها ؛ ومن لم يكن لهم لحى بطبيعتهم ، كانوا يضعون على وجوههم لحى صناعية ، وكان يقدم للضيف فى بيوت العلْية ملقط يسوّى به لحيته(٤٩)

كانت الثياب اليابانية فى عصر « نارا » تقتفى أثر الثياب الصينية فصدار وسراويل يغطيها ثوب محبوك على الجسم ، فلما جاء عصر « كيوتو » وسع اليابانيون من ذلك الثوب بعض الشىء وزادوا من أجزائه ، فالرجال والنساء

كانوا يلبسون أثواباً بعضها فوق بعض يتراوح عددها من ثوبين إلى عشرين . وتختلف ألوان تلك الثياب باختلاف مكانة اللابس ، وكانت تبدو أطرافها عند الكم متعددة الألوان كأنها الطيف فى تداخل ألوانه ؛ وجاء عهد كانت أكمام السيدة تتدلى إلى ما دون ركبتيها ، وفى طرفها جرس يُتَنْتِنُ وهى تسير ، وإذا كانت الطرقات مبتلة بالمطر أو بالثلج ، كن يمشين على قباقيب من الخشب محمولة على كعوب خشبية يرتفع حول بوصة عن الأرض ، وفى عصر « توكوجاورا » بلغ الإسراف فى الثياب حداً جعل « السيافين » لا يعبأون بتقاليد الناس ، ويحاولون الحد من هذا الإسراف بقوانين صارمة ، فحرقت السراويل المبطنة بالحرير والموشاة كما حرقت الجوارب التى كانت تزخرف على ذلك النحو ، وحرمت اللحى ، وصنوف معينة من تصفيف الشعر ، جاءت أيام كان رجال الشرطة فيها يؤمرون بالقبض على كل من يرونه فى الطريق مرتدياً ثوباً فاخراً ، وكان الناس يطيعون هذه القوانين أحياناً ، لكنهم فى معظم الأحيان كانوا يحتالون على التخلص منها بما عرف عن الإنسان من حماقة فطرية[٥٠] .

لكن هذا الشغف الشديد بتعدد الأردية قد خفت حدته على مر الزمن ، وأصبح اليابانيون من أكثر شعوب الأرض بساطة واحتشاماً وحسن ذوق .

ولم يكن اليابانيون ليأخذوا عن سواهم من الشعوب شيئاً فيما يخص عادات النظافة ، فالثياب تغير ثلاث مرات فى اليوم الواحد عند من يستطيع إلى ذلك سبيلا ، والناس جميعاً فقيرهم وغنيهم يستحمون كل يوم[٥١][*] .

وأما فى القرى ، فكان الناس يستحمون فى طسوت خارج منازلهم فى

(*) كان فى طوكيو سنة ١٩٠٥ ألف ومائة حمام شعبى ، يستحم فيها كل يوم نصف ليون رجل ، لقاء أجر قيمته سنت وربع سنت[٥٢] .

الصيف ، ويثرثر الجار مع جاره إذ هما يستحمان ثرثرة لا تنقطع[٥٢] ، وكانوا يستحمون فى الشتاء بماء ساخن مبلغ حرارته مائة وعشر درجات ، فيكون لهم ذلك وسيلة تدفئة من البرد ، وكان غذاؤهم بسيطاً وصحياً قبل أن تطغى عليهم موجة الترف ؛ ووصف الصينيون اليابانيين فى الزمن القديم فقالوا عنهم إنهم « شعب طويل العمر ، حتى ليكثر فيه الأفراد الذين يبلغون فى أعمارهم مائة عام » .

وكان الطعام الرئيسى عند الشعب هو الأرز ، يضيفون إليه السمك والخضر ونبات البحر والفاكهة واللحم ، كل بنسبة ثرائه ، وكان اللحم لونا من الطعام نادراً إلا بين الطبقة العالية وطبقة الجنود ، وكان العامل اليابانى يفضل هذا الطعام الذى يتألف من أرز وسمك ولا لحم ، يتمتع برئتين سليمتين وعضلات قوية ، فيستطيع الجرى من خمسين ميلا إلى ثمانين فى أربع وعشرين ساعة دون أن يشكو إعياء . فإذا ما أضاف اللحم إلى غذائه ، فقد قدرته هذه على الجرى السريع(*) وحاول الأباطرة فى عصر كيوتو محاولة دينية قصدوا بها أن يؤيدوا قوانين التغذية كما تأخذ بها البوذية ، فحرموا ذبح الحيوان وأكله ، ولكن لما رأى الناس أن الكهنة أنفسهم كانوا يخرجون على تلك القوانين خفية ، أخذوا يدخلون اللحم لوناً شهياً من الطعام ، ويسرفون فى أكله كلما مكنتهم من ذلك قدرتهم المالية[٥٧] .

فاليابانيون — كالصينيين والفرنسيين — يعدون إجادة الطهى علامة جوهرية للحضارة ، حتى لقد أخذ الطهاة — كأنهم فى ذلك فنانون أو فلاسفة — ينقسمون مدارس يناهض بعضها بعضاً بما تبدع كل منها من « وصفات » ؛

(*) لكنا نلاحظ من جهة أخرى أن اليابانيين الذين لم يكونوا يعملون بأجسادهم ، وكانوا يعيشون على كميات كبيرة من الأرز ، كانوا يتعرضون لاضطرابات فى الهضم[٥٦] .

وأصبحت آداب المائدة عندهم من الأهمية بحيث عادلت أهمية الدين على أقل تقدير ، إذ كان لهم قواعد دقيقة تنظم ترتيب القضمات ومقاديرها ، كما تنظم وضع الجسم فى كل مرحلة من مراحل الوجبة ، ولم يكن يجوز للسيدات أن تحدثن صوتاً فى الطعام أو الشراب ، أما الرجال فقد كانت تقتضيهم الأوضاع أن يدلوا على تقديرهم لكرم المضيف بجشئات عدة يظهرون بها عرفانهم بالجميل[٥٨] ، وكان الآكلون يجلسون على عقب واحد أو على العقبين فوق حصير ، إزاء مائدة لا تعلو عن الأرض أكثر من بضع بوصات ، أو قد يوضع الطعام على الحصير بغير حاجة إلى مائدة على الإطلاق ، والعادة أن تبدأ الوجبة بشراب ساخن من عصير الأرز ، ألم يعلن الشاعر « تاهيتو » فى زمن بالغ فى القدم مبلغ القرن السابع ، بأن شراب « الساكى » هو الحل الوحيد الذى تفض به مشكلات الحياة جميعاً ؟

إن ما كان ينشده السبعة الحكماء
أولئك الرجال الذين قدم بهم الزمان
هو — بغير شك — شراب « الساكى»
فبدل أن تجلس ساكتاً
مفكراً ، جاداً ، صمتاً
فخير ألف مرة أن تشرب « الساكى »
وأن تسكر به حتى تصيح صياحاً عالياً
فما دام الواقع الحق
هو أن الموت لاحق بنا جميعاً
فلنمرح
ما دمنا على قيد الحياة
إن اللؤلؤة التى تتألق ببريقها فى الليل

أقل قيمة للإنسان من نشوة قلبه

التى تأتيه إذا ما شرب « الساكى »(٥٩)

لكن الشاى كان أكثر قدسية عند العلْية من « الساكى » . فهذا النبات العجيب الذى نتغلب به على ما يفقده الماء من طعمه بعد الغلى ، جاء إلى اليابان قادماً من الصين سنة ٨٠٥ ، لكنه إذ ذاك لم يصب نجاحاً ، ثم جاءها مرة أخرى سنة ١١٩١ حيث استقر بها وأقام ، فقد اجتنبه الناس أول الأمر باعتباره سما لا ينبغى أن يقربوه ؛ ولكن لما تبين للرجل من طائفة « السيافين » أن قليلا من أقداح الشاى سرعان ما يرد إلى رأسه اتزانه بعد ما أصابه من دوار بسبب الإفراط فى شراب « الساكى » ليلة البارحة ، أخذ أهل اليابان يتبينون فائدة الشاى ، ولقد أضاف ارتفاع ثمنه إلى سحره سحراً جديداً ، فكان الناس يتهادون به ثمين الهدايا ، بأن يتبادلوا الآنية الخزفية المليئة به ، حتى لقد كان يُقَدَّمُ للمقاتلين جزاء ما أبلوا فى أفعالهم الحربية الباسلة ، فكان الذى يجود من هؤلاء بحيث يظفر بمنحة من الشاى ، يجمع حوله الأصدقاء ليشاركوه هذا الشراب الملكى ، ولقد جعل اليابانيون من شرب الشاى احتفالا رشيقاً معقد الأوضاع ، إذ وضع « ركيو » لذلك ست قواعد لا يجوز الخروج عليها ، فارتفع شرب الشاى بفضل هذه القواعد الست إلى منزلة الطقوس الدينية ، فمن قواعد « ركيو » هذا أن الدعوة التى توجه إلى الأضياف ليدخلوا قاعة الشاى ، يجب أن تكون بالتصفيق بخشبتين معينتين كما يجب أن يظل إناء الوضوء مليئاً بالماء الصافى ، وإذا ما أحس ضيف من الأضياف بخطأ أو بنقص فى أثاث المكان ، وجب عليه أن يغادر من فوره دون أن يحدث بذلك ضجة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولا يجوز أن يغوص الحاضرون فى حديث تافه ، بل يجب عليهم ألا يطرقوا بالحديث إلا أموراً عالية جادة ، ولا يجوز لأحد أن يفوه بكلمة واحدة مما يدل على غرور أو رياء ، ثم لا يصح أن يستغرق الأمر أكثر من أربع ساعات ،

ولم يكن يستعمل إبريق الشاى فى مثل هذه المحافل التى يطلق عليها « شا- نو- يو» (ومعناها ماء ساخن للشاى) ؛ بل كان يوضع مسحوق الشاى فى فنجان ممتاز فى نوعه ، ثم يصب فيه الماء الساخن ، ثم يدور الفنجان بين الأضياف واحداً بعد واحد ، كل منهم يمسح حافته مسحاً رقيقاً بمنشفة صغيرة ، حتى إذا ما شرب آخر الشاربين آخر جرعة من الفنجان ، أدير الفنجان بين الحاضرين من جديد ليفحصوه من الوجهة الفنية[٦٠] ، وعلى هذا النحو كان احتفال الشاى حافزاً للخزافين على إنتاج أقداح وآنية بالغة الجمال ، كما كان هذا الاحتفال عاملا على صياغة آداب اليابانيين فى صورتها الهادئة الفاتنة التى يراعى فيها تبادل الاحترام[*] .

كذلك أصبحت الزهور موضع قدسية فى اليابان ؛ فكانت موضع تقدير من « ركيو » هذا الذى صاغ طقوس محافل الشاى ، فكانت الزهور عنده تلقى من العناية ما تلقاه أقداح الشاى ، ولما سمع أن « هيديوشى » آت لزيارته ليرى مجموعته المشهورة من زهور الأقحوان ، أتى « ركيو » على كل الزهور فى بستانه إلا واحدة ، لعل هذه الواحدة تسطع فى عينى هذا « السياف » المخيف سطوعاً يدرك منه أنها فذة فى عالم الزهور[**][٦٢] ؛ وأخذ فن تنسيق الزهور يتقدم خطوة بعد خطوة مع « شرعة الشاى » فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حتى إذا ما جاء القرن السابع عشر ، أصبح موضعاً للاهتمام فى حد ذاته ، ونشأت طائفة « أساتذة الزهور » تعلم الرجال والنساء

(*) محصول الشاى هو الآن بالطبع أحد منتجات اليابان الهامة . ويظهر أن الشركة الهولندية الشرقية هى التى جاءت إلى أوربا بأول ما عرفته من الشاى سنة ١٦١٠ ، وقد باعته حينئذ بواقع أربعمائة ريال تقريباً للرطل الواحد ، وقد قال « جوناس هانواى » سنة ١٧٥٦ إن الرجال فى أوربا يفقدون من طول قامتهم والنساء فيما يفقدون من جمالهن ، بفعل شرب الشاى ، وكان دعاة الإصلاح يحاربون هذه العادة بوصفهم إياها بالهمجية القذرة[٦١] .

(**) هذا « الحاكم العظيم » وهذا « العلم فى عالم الشاى » قد تحابا كما يتحاب الرجلان العبقريان ، وقد اتهم أولهما الثانى بتهمة الخيانة ، لكنه بدوره اتهم بإفساد ابنة الثانى (ركيو) وأخيراً انتحر « ركيو » على طريقة هاراكيرى[٦٣] .

كيف ينبتون الزهور فى البستان وكيف ينسقونها فى دورهم ، فكان هؤلاء الأساتذة يقولون إنه لا يكفى أن تعجب بالزهور نفسها ، بل يجب أن تدرب نفسك على رؤية الجمال فى ورقة الزهور وفى غصنها وفى عودها كما ترى الجمال فى الزهرة نفسها ، وأن تدرب نفسك على رؤية الجمال فى زهرة واحدة كما تراه فى ألف زهرة ، وأن ترص الزهر رصاً لا يقوم على أساس اللون وحده ، بل كذلك مع أساس طريقة ضمها فى طاقات وصفها[٦٤] ؛ وهكذا أصبح الشاى والزهور والشعر والرقص من لوازم الأنوثة بين بنات العلية فى اليابان .

الزهور عند اليابانيين بمثابة الدين ، فهم يعبدونها عبادة تشيع فيها روح التضحية بالقرابين ، ويلتقى فيها أفراد الشعب جميعاً ؛ وهم يرقبون فى كل فصل من فصول العام ما يلائمه من زهور ؛ فإذا ما أزهرت شجرة الكريز مدى أسبوع أو أسبوعين فى أوائل شهر إبريل ، يخيل إليك أن أهل اليابان جميعاً قد تركوا أعمالهم ليحدجوا فيها بأبصارهم ؛ بل إنهم ليحجون إلى الأماكن التى تزخر بهذه المعجزة ويكمل فيها إزهار هذا الضرب من الشجر(*) ؛ فهم لا يزرعون شجرة الكريز لثمارها ، بل لأزهارها — وزهرتها رمز للمحارب المخلص الذى يستعد للموت فى سبيل وطنه فى اللحظة التى تصل فيها حياته أوج شبابها[٦٥] ؛ وقد يحدث أن يطلب المجرمون المساقون إلى الإعدام زهرة من زهرات الكريز وهم فى طريقهم إلى الموت[٦٦] ، وتروى لنا « السيدة تشيو » فى قصيدة لها مشهورة ، أن فتاة قصدت بئراً تستخرج منه الماء ، فلما وجدت الدلو والحبل ملتفاً عليهما أغصان النبات اللبلابى ، قصدت مكاناً آخر تحصل منه على الماء ، مؤثرة ذلك على قطع أسلاك النبات[٦٧] ، ويقول «تسورايوكى» « إنه ليستحيل عليك أن تفهم قلب الإنسان ، لكن الزهور فى قريتى ما تزال كسابق عهدها تنفث عبقها[٦٨] ، هذه العبارة الساذجة هى من أعظم الشعر

(*) هم كذلك يحجون إلى حيث يشاهدون أوراق الأسفندان تتحول إلى السقوط .

اليابانى ، لأنها تعبر عن خصيصة عميقة لجنس بشرى بأسره : تعبر عنها تعبيراً كاملا يتعذر أن تحذف منه شيئاً ، كما تعبر عن نتيجة صادقة من نتائج الفلسفة ، إنك لن تجد بين أمم العالم أمة أحبت الطبيعة بمثل ما أحبها اليابانيوز ولن تجد الناس فى أى جزء من أجزاء الأرض غير اليابان يتقبلون راضين تقلبات الطبيعة كما تتبدى فى الأرض والسماء والبحر ، ولن تجد بلداً آخر غير اليابان عنى فيه الناس بزراعة البساتين ، أو بتغذية النبات إبان نموه ، أو خصوه برعايتهم فى دورهم ، إن اليابان لم تنتظر حتى يجيئها « روسو » أو « وردزورث » لينبئها أن الجبال شوامخ أو أن البحيرات قد يكون لها روعة الجمال ، فتكاد لا تجد فى اليابان منزلا بغير أصيص لأزهور ، كما توشك ألا تجد قصيدة واحدة فى الأدب اليابانى تخلو من وصف مشاهد الطبيعة فى ثنايا سطورها ؛ فكما أن « أوسكار وايلد » كان من رأيه أن انجلترا لا ينبغى لها أن تحارب فرنسا لأن الفرنسيين يكتبون نثراً بلغ فى فنه حد الكمال ، فكذلك نقول أن أمريكا يجب أن تنشد السلام إلى آخر جهدها مع أمة تتعطش للجمال فى عاطفة جارفة تكاد تبلغ فى حدتها قوة نهمها إزاء السلطان .

إن فن غرس الحدائق قد جاءها من الصين جنباً إلى جنب مع البوذية والشاى ؛ لكن هاهنا ترى اليابانيين مرة أخرى يحولون بقوة إبداعهم ما قد تشربوه من غيرهم عن طريق المحاكاة ، فتراهم يستملحون جمال الشىء إذا خلا من الاتساق . ويستجملون الأشكال المبتكرة التى لم يقتلها التكرار ، فتجىء للرائى بمثابة المفاجأة ، وهم يقصرون الأشجار والشجيرات بأن يحصروا جذورها فى أُصُص ، وتدفعهم فى ذلك فكاهة شيطانية وصبٌّ عارم إلى أن يروضوا تلك الأشجار بحيث يصوغونها فى أشكال يجوز لنا ، إذا ما رأيناها تكوّن سور البستان — أن نقول عنها إنها تمثل أشجار اليابان التى عصفت بها عواصف تلك البلاد فلوت أفنانها ، وتراهم يبحثون فى فوهات براكينهم وفى أوعر شطئانهم لعلهم واجدون صخوراً امتزجت بالمعادن بفعل

النيران الداخلية ، أو صاغها حجّارون صابرون فى أشكال غريبة ملتوية الأجزاء ، وهم يحتفرون البحيرات الصغيرة ، ويشقون النهيرات الفوارة بمائها ، ويصلون ضفافها بجسور تبدو للرائى كأنما جاءت نمواً طبيعياً فى أشجار الغابات ، وهم يدقون خلال هـذه التكوينات المختلفة كلها مماش ينقشونها نقشاً دقيقاً ، فتؤدى بك تارة إلى جديد يفجؤك ، وطوراً إلى ركن هادئ بليل الهواء .

وحيث تسعفهم فسحة الأرض وكثرة المال تراهم أميل إلى أن يجعلوا بيوتهم جزءاً من حدائقهم ، منهم إلى أن يجعلوا حدائقهم جزءاً من بيوتهم ، ومنازلهم هزيلة البنيان لكنها جميلة ؛ فلئن جعلت الزلازل الأبنية العالية خطراً داهماً ، فقد عرف النجار وقاطع الخشب كيف يربط ألواح الخشب وشرائحه وعمده فيجعل منها مسكناً تبلغ ببساطته حد التقشف . لكن يبلغ جماله حد الكمال بحيث تراه فى فن عمارته نسيج وحده ، إنك لا ترى فى مثل هذا المسكن ستائر أو أرائك أو أسرة أو مناضد أو مقاعد ، ولا ترى دلائل بارزة تدل على ثروة الساكن ورفاهيته ، لا ترى متحفاً للصور ولا التماثيل ولا التحف ؛ لكنك ترى فى ركن من الحديقة غصناً مزهراً ، وعلى الحائط صورة من الحرير أو الورق ، أو ترى قطعة من الخط الزخرفى ، وتجد على الأرض المغطاة بالحصير وسادة وضع أمامها كرسى مما تسند عليه الكتب للقراءة ، وعلى أحد جانبيها خزانة كتب وعلى جانبها الآخر مسندة ، وهم يخفون الحشايا والأغطية فى خزانة خشبية ، ليخرجوها وينشروها على الأرض إذا حان وقت النوم ، فى مثل هذه الأحياء المتواضعة ، أو فى كوخ الفلاح الهزيل كانت تسكن الأسرة اليابانية ، وتبقى على الحياة وعلى المدنية فى « الجزر المقدسة » خلال ما تعاور البلاد من زعازع الحروب والثورات ومن فساد سياسى وكفاح فى سبيل الدين ؟

الفصل الخامس

الأسرة

الأب المستبد – منزلة المرأة – الأبناء –
الأخلاق الجنسية – الـ « جيشا » – الحب

الأسرة هى المصدر الحقيقى للنظام الاجتماعى ، ولئن كان هذا صحيحاً بالنسبة للغرب ، فهو أصح بالنسبة للشرق ، وجمع السلطة كلها فى يد الأب فى اليابان – كما هى الحال فى سائر أنحاء الشرق – لا يدل على انحطاط فى درجة الرقى الاجتماعى ، بل يدل على إيثارهم للحكومة الأسرية على الحكومة السياسة ، فليس للفرد من الأهمية فى الشرق بمقدار ما له من الأهمية فى الغرب ، وذلك لأن الدولة فى الشرق كانت أضعف منها فى الغرب ؛ ولذا تطلبت الدولة أن يكون إلى جانبها أسرة قوية النظام شديدة الطاعة لتقوم مقام السلطة المركزية التى تشمل بسلطاتها شتى نواحى الحياة كبيرها وصغيرها على السواء ؛ وقد فهمت الحرية فى الشرق بالنسبة للأسرة لا بالنسبة للفرد ، ذلك لأنه لما كانت الأسرة هى وحدة الإنتاج فى عالم الاقتصاد كما كانت وحدة النظام الاجتماعى ، كان النجاح أو الفشل ، بل الحياة أو الموت ، لا يخص الفرد الواحد بل يصيب الأسرة كلها ؛ فكانت سلطة الوالد استبدادية ، لكنها رغم استبدادها كانت تشوبها الرأفة التى لا يعقبها شىء من الضرر ؛ وذلك بكونها تبدت للناس أمراً طبيعياً وضرورياً وإنسانياً ؛ فقد كان من حقه أن يطرد من الأسرة زوج ابنته أو زوجة ابنه بينما يحتفظ بحفدته فى صحبته ؛ بل كان من حقه أن يقتل ابنه أو ابنته إذا اتهم أحدهما بالدعارة أو غيرها من الجرائم الخطيرة ، وأن يبيع أبناءه أو بناته فى سوق النخاسة

أو سوق الدعارة(*) وفى مستطاعه أن يطلق زوجته بكلمة واحدة[٧٠] فإذا ماكان الرجل من عامة الشعب ، كان الأغاب أن يقتصر على زوجة واحدة ، أما إذا كان من أبناء الطبقة العليا فقد كان من حقه أن يحيط نفسه بالخليلات ؛ ولم يكن أحد ليهتم بما يقترفه من خيانة زوجية آناً بعد آن[٧١] ؛ ولما دخلت المسيحية بلاد اليابان ، شكا الكتاب من أهل البلاد مما أحدثته من اضطراب فى هدوء الحياة العائلية ، بتعاليمها التى تجعل اتخاذ الخليلات واقتراف الزنا من الخطايا[٧٢] .

وكانت منزلة المرأة فى اليابان ــ كما هى الحال فى الصين ــ أعلى فى مراحل المدنية الأولى منها فى المراحل المتأخرة ، ، فترى ست نساء بين حكام البلاد إبان العهد الإمبراطورى ، ولعبت المرأة فى كيوتو دوراً هاماً ، بل لعبت الدور الأول فى حياة الأمة الاجتماعية والأدبية ؛ وفى ذلك العهد الذهبى للثقافة اليابانية ــ لو جاز لنا أن نجازف بالرأى فى مثل هذه النواحى الغامضة ــ سبق الزوجات أزواجهن فى عالم الزنا ، بحيث كن يبعن العفة بقول جميل يقال[٧٣] وتصف لنا « السيدة سى شوناجون » شاباً على وشك أن يرسل رسالة غرامية لخليلته ، فقطعها ليغازل فتاة عابرة ؛ ثم تضيف تلك الكاتبة المحبوبة البارعة فى أدب المقالة ، قولها : « ولست أدرى إن كان الرسول الذى حمل رسالة هذا المحب معطرة بقطرات الندى انتثرت من الزهور العبقة ، قد تردد فى تقديمها إلى الحبيبة ، إذ وجدها هى بدورها تستضيف عشيقاً »[٧٤] ؛ ثم انتشرت نظرية أهل الصين فى إخضاع المرأة للرجل ، حين انتشر النظام الإقطاعى الحربى ، وحين تناوب البلاد تهاون وشدة جعلا يتعاقبان على نحو طبيعى يسجله التاريخ ؛ فأصبح المجتمع يسوده الذكور ، وأذعن النساء « للطاعات الثلاث » ــ الولد والزوج والابن ؛ ــ وأوشك الناس ألا يضيعوا جهدهم فى تعليم النساء ، اللهم إلا تعليمهن آداب الأوضاع الاجتماعية ؛ وطولب النساء بالأمانة الزوجية يتهددهن فى ذلك عقاب الإعدام ؛ فإذا وجد

(*) لم يكن يقع هذا إلا فى أحط الطبقات وعند الضرورة القصوى (٦٩)

الزوج زوجته متلبسة بجريمة الزنا ، كان من حقه ان يقتلها مع عشيقها نوراً ؛ وقد أضاف « ايياسو » بدقته إلى هذا الحق شرطاً ، فقال إن الزوج إذا قتل المرأة فى مثل هذه الحال وأخلى سبيل الرجل ، حق عليه هو نفسه عقاب الموت[٧٦] ؛ وقد نصح الفيلسوف « إكن » للزوج أن يطلق زوجته إذا ما أسرفت فى حديثها من حيث ارتفاع الصوت ، أو طول الكلام ؛ أما إذا حدث أن كان الزوج منحل الخلق وحشى الطبع ، فينبغى للزوجة — فى رأى « إكن » — أن تضاعف له الرحمة والدعة ؛ وفى ظل هذا التدريب الشديد المتصل ، أصبحت المرأة اليابانية أنشط الزوجات وأخلصهن وأكثرهن طاعة ؛ وإن الرحالة الذين أخذهم العجب لهذا النظام الذى أنتج مثل هذه النتائج الحميدة ، ليتساءلون إن كان من الحكمة أن ندخله فى بلاد الغرب[٧٧] .

ولم تكن كثرة النسل تجد تشجيعاً فى اليابان « السامورية »[*] على خلاف ما نراه فى أقدم عادات المجتمع الشرقى وأكثرها قدسية ؛ وذلك لأنه لما تكاثر السكان أحست الجزر الصغيرة أنها قد ازدحمت بأهليها ، وأصبح من عوامل السمعة الحسنة للرجل من طائفة « السيافين » ألا يتزوج قبل سن الثلاثين ، وألا ينجب من الأطفال أكثر من اثنين[٧٨] ؛ ومع ذلك فقد كان ينتظر من كل رجل أن يتزوج وأن ينسل الأبناء ، فإذا تبين العقم فى زوجته ، كان من حقه طلاقها ؛ وإن نسلت له بنات ولا أبناء ، نصحوه بأن يتبنى ولداً حتى لا يضيع اسمه وتتبدد أملاكه ، لأن البنات ليس من حقهن أن يرثن شيئاً[٧٩] وكان الأطفال يربون على أساس الفضائل الصينية ، وفى جو من الأدب الذى يبث إخلاص البنوة ، لأن انتظام الدولة وأمنها كانا يعتمدان على هذه الطاعة التى تبعث فى الأبناء والتى تكون معيناً للنظام فى الأسرة ، وقد أمرت

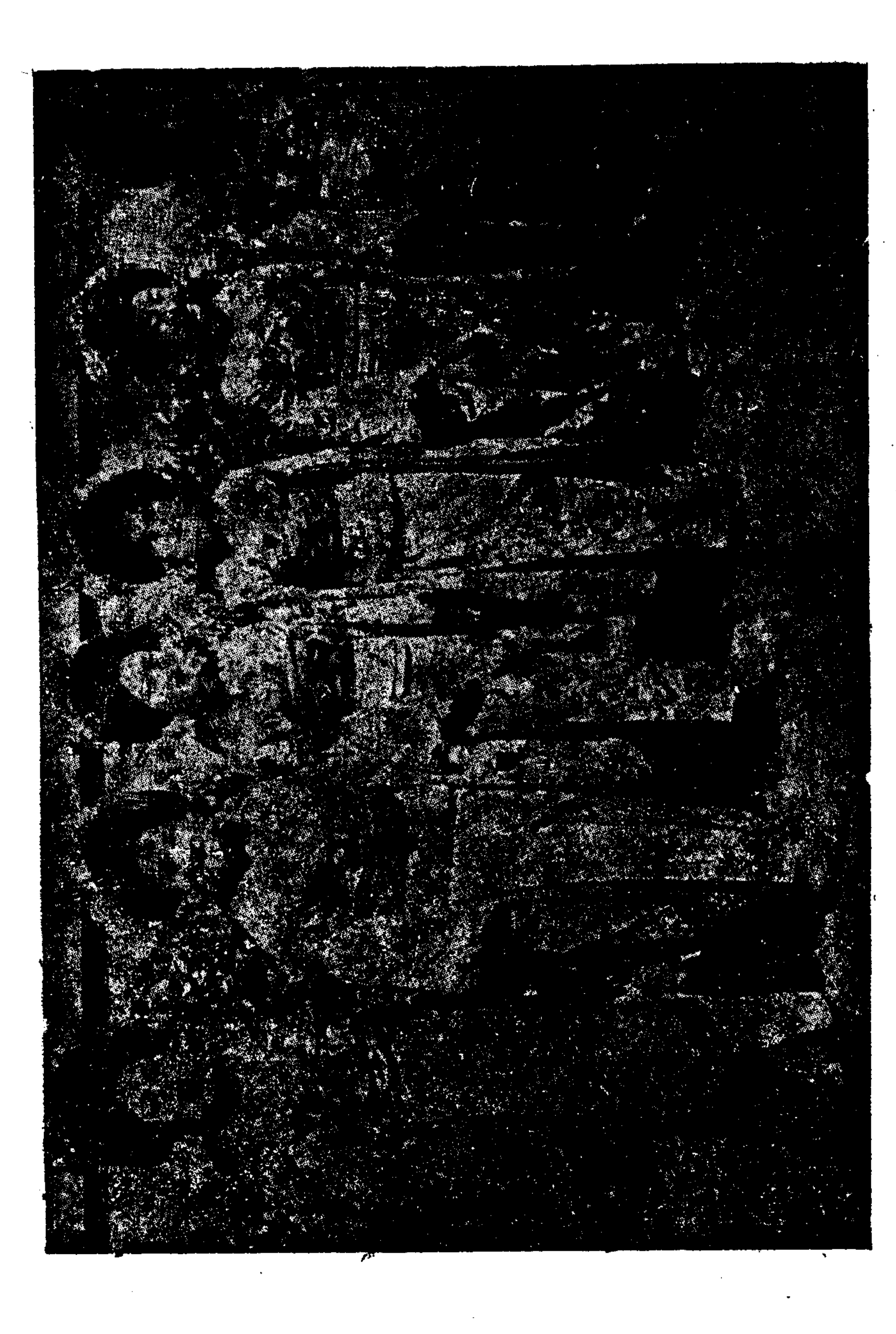
(*) الساموراى « السياف » ، واليابان الساموريه ، هى اليابان فى العهد الذى ساد فيه السيافون . (المعرب)

الإمبراطورة « كوكن » – فى القرن الثامن – كل أسرة يابانية أن تحصل لنفسها على نسخة من متن الطاعة المفروضة على الأبناء للآباء » ؛ وكان يطلب إلى كل تلميذ فى مدارس الأقاليم أو فى الجامعات أن يتقن دراسة هذا الكتاب إتقانا تاماً ؛ ولو استثنيت طائفة السيافين الذين كانت واجبات الطاعة عندهم مفروضة أولا لسادتهم ؛ إذا استثنيت هؤلاء ، وجدت طاعة الأبناء لآبائهم هى الفضيلة الأساسية العليا عند اليابانيين ؛ بل إن علاقة اليابانى بالإمبراطور ، كانت علاقة الحب والطاعة من ولد إلى والده ؛ ولبثت هذه هى الفضيلة الرئيسية فى التشريع الخلقى كله تقريباً عند عامة الناس فى اليابان ، حتى جاءهم الغرب بأفكاره الثورية التى تنادى بحرية الأفراد ؛ وكان يستحيل على الجزر اليابانية أن تتحول إلى المسيحية ، بسبب ما ورد فى الإنجيل من أمر للرجل بأن يترك أباه وأمه ليلصق بزوجته[٨٠].

لم تكن الفضائل الأخرى – فيما عدا الطاعة والولاء – لتحتل بينهم مثل المكانة التى تحتلها فى أوربا المعاصرة ؛ فالعفة كانت فضيلة مرغوباً فيها، حتى لقد قتل بعض نساء الطبقة العليا أنفسهن حين تعرضت بكارتهن للخطر[٨١]، لكن كبوة واحدة لم يكن معناها عندهم القضاء على المرأة قضاء كاملا ؛ وأشهر القصص اليابانية ، وهى قصة « جنجى مونوجانارى » هى عبارة عن ملحمة تروى قصة غواية فى الطبقة العليا ؛ وأشهر مقالات فى الأدب اليابانى وهى المجموعة فى كتاب « صور على الوسادة » لكاتبته « السيدة سى شوناجون » تراها فى بعض المواضع كأنما أريد بها أن تكون رسالة فى الأوضاع الصحيحة التى ينبغى مراعاتها عند اقتراف الخطيئة[٨٢] ، فقد نظر القوم إلى شهوات الجسد نظرتهم إلى أمر طبيعى كما ينظرون إلى الجوع والظمأ ؛ فترى آلاف الرجال – وكثير منهم أزواج محترمون – يحتشدون ليلا فى « يوشى وارا » ، (أى حى الزهر) فى طوكيو ؛ ففى ذلك الحى منازل خرجت على النظام ، يسكنها خمسة عشر ألف امرأة زانية رخص لهن بالزنا ومهرن فيه ، تراهن فى الليل

جالسات وراء « شيش » نوافذهن ، فاخرات الثياب بيضاوات بما وضعنه على أجسادهن من مساحيق ، مستعدات للغناء والرقص والدعارة لمن ليس له امرأة عشيرة من الرجال ، أو لمن ساءت عشيرته منهم [٨٣] .

وأعلى هؤلاء الزانيات ثقافة هن فتيات « الجيشا » الذى يدل اسمهن هذا على أنهن بارعات فى فنهن (فكلمة جيشا مكونة من مقطعين : « جى » ومعناها بارع فى الأداء الفنى ، و « شا » ومعناها شخص) وهن شبيهات بطائفة « الغوانى » فى اليونان ، فى أنهن قد أثرن فى الأدب كما أثرن فى عالم الحب ، ومزجن فوضاهن الخلقية بالشعر ، لكن حدث أن أمر الحاكم العسكرى « أينارى » (١٧٨٧ — ١٨٣٦) عام ١٧٩١ بتحريم الاستحمام الذى يخلط الجنسين معاً ، لأنه أحياناً يؤدى إلى الخروج على قواعد الأخلاق[٨٤] ، ثم أصدر أمراً شديداً سنة ١٨٢٢ يقاوم به فتيات « الجيشا » وقد وصف الواحدة منهن بأنها « مغنية تلبس فاخر الثياب ، وتعرض نفسها مأجورة لتسلية رواد المطاعم ، بالرقص والغناء فى ظاهر الأمر ، لكنها فى الحقيقة تمارس شيئاً يختلف عن هذين كل الاختلاف »[٨٥] ؛ ومنذ ذلك التاريخ عُدّ هؤلاء النساء بين « الزانيات اللاتى لا يقعن تحت الحصر » بحيث كن فى عهد « كيمفر » يملأن حوانيت الشاى فى القرى ، كما يملأن الفنادق أينما وجدتها على طول الطريق[٨٦] ومع ذلك فقد لبثت الحفلات والعائلات تدعو فتيات « الجيشا » ليقمن بالتسلية فى الاجتماعات ؛ وفتحت مدارس تتلقى فيها فتيات « الجيشا » الناشئات على أيدى « الجيشا » القديمات مختلف أوضاع الفن ؛ وكان يحدث أحياناً أن يجتمع المعلمات والمتعلمات معاً فى حفلات الشاى ، ليقمن بعرض الجانب المحتشم من ألوان ما يعرفنه من فنون ؛ والآباء الذين يتعذر عليهم أحياناً أن يعولوا بناتهم ، كانوا يوافقون بمحض اختيارهم على تدريب بناتهم فى فنون « الجيشا » لعل ذلك يكون مورد كسب لهن ؛ وما أكثر القصص اليابانية التى تروى عن بنات أسلمن أنفسهن لهذه الحرفة إنقاذاً لأسراتهن من أنياب الجوع[٨٧] .



إن هذه العادات — مهما بلغت من غرابة تفزع لها فزعاً — لا تختلف فى جوهرها عن عادات الغرب ونظمه الاجتماعية ، اللهم إلا فى الصراحة والتهذيب ولطف الأداء ؛ وإنه ليقال لنا على سبيل التأكيد أن الأغلبية الكبرى من فتيان اليابان ، لم تزل عفيفة كعذراوات الغرب سواء بسواء[٨٨] ؛ فعلى الرغم من هذه النظم الصريحة ، ترى اليابانيين يحيون حياة لا بأس بها من حيث النظام والاحتشام ؛ وعلى الرغم من أنهم كثيراً ما كانوا يأبون الجرى مع دوافع الحب فى عقد الزواج الدائم مدى الحياة ، فقد كان فى وسعهم أن يظهروا أرق العواطف إلى نحو ما يميلون إليه من أشياء ، فما أكثر الأمثلة التى نصادفها فى حوادث التاريخ ، وفى الوقائع الخيالية التى وردت فى الأدب اليابانى ، التى تدل على أن الشبان والشابات قد قتلوا أنفسهم آملين أن يتمتعوا فى الآخرة الأبدية بالاتصال الذى حرمه عليهم آباؤهم على هذه الأرض[٨٩] ؛ وليس الحب هو الموضوع الرئيسى فى الشعر اليابانى ؛ لكنك مع ذلك تسمع نغماته هنا وهناك بسيطة مخلصة عميقة على نحو لا يضارعها فيه أدب آخر :

آه ، تحولت الأمواج البيض على مدى البصر ،
مما أراه طافياً على بحر « أيسى »
زهراتٍ
أجمعها طاقةً
أقدمها هدية لحبيبتى[٩٠]

ثم اسمع « تسورايوكى » العظيم يحكى قصة حبه المرفوض فى أربعة أسطر ، مزج فيها الطبيعة بشعوره مزجاً يميز الأدب اليابانى :

أتقول ألا شىء وشيك الزوال
مثلَ زهرة الكريز ؟ ... لكنى أذكر لحظة
ذبلت فيها زهرة الحياة بكلمة واحدة
ولم تعد تتحرك من الريح هبّةٌ[٩١]

الفصل السادس

القديسون

الدين فى اليابان – تحول البوذية – الكهنة – الشذاك

إن شعور الولاء الذى يعلن عن نفسه فى الوطنية وفى الحب وفى حب الوالدين وحب الأبناء وحب الخليل وحب الوطن ، هو نفسه الشعور الذى لا بد أن يلتمس فى الكون باعتباره كلا واحداً ، قوة رئيسية يتوجه إليها بالولاء ، ويستمد منها شيئاً من القيمة والمعنى اللذين يكونان أوسع نطاقاً من حدود الشخص الواحد ، وأدوم بقاء من حدود عمر واحد ؛ ولئن كان اليابانيون على درجة من الاعتدال فى تدينهم – فهم ليسوا كالهندوس فى عمق إيمانهم الدينى وشدة انغماسهم فى ذلك الدين ، كلا ولا هم يشبهون قديسى الكاثوليكية فى العصور الوسطى فى حدة عاطفتهم الدينية وتهوسهم فى عقيدتهم حتى بلغوا فى ذلك حد تعذيب أنفسهم ، وقل ذلك عن رجال الإصلاح الدينى المتنازعين ، لم يكن اليابانيون مثل هؤلاء ولا هؤلاء ، ومع ذلك فقد أخلصوا إخلاصاً ظاهراً للتقوى وللصلاة وللفلسفة التى تنتهى بهم إلى التفاؤل ، حتى لقد تميزوا بذلك من بنى عمومتهم المتشككين الذين كان يفصلهم عنهم البحر الأصفر .

لقد جاءت البوذية من لدن مؤسسها سحابة قائمة من التشاؤم ، تدعو الناس إلى الموت ، لكنها لم تلبث تحت سماء اليابان أن تحولت إلى عقيدة قوامها آلهة وافية ، وإلى محافل دينيّة تبعث الغبطة فى النفوس ، وأعياد مرحة وحجيج إلى روائع الطبيعة على غرار ما كان يتمناه روسو ، وجنة موعودة تسرى عن الصدور كروبها ؛ نعم إن البوذية آمنت بالجحيم كما آمنت بالجنة – بل آمنت

بوجود عدد من الجحيمات يبلغ مائة وثمانية وعشرين ، أعدت لشتى الغابات ومختلف الأعداء وآمنت بعالم للشياطين ، كما آمنت بعالم للقديسين ، كذلك آمنت بوجود شيطان مشخص (يسمونه أونى) له قرون وأنف أنطس ومخالب وأنياب ، ويسكن فى مكان مظلم يقع فى الشمال الشرقى ، وأنه آناً بعد آن يغرى النساء بالذهاب إليه هناك ليمتعنه ، كما يغرى الرجال ليستمد منهم فى غذائه مادة البروتين[٩٢] ؛ ولكن إلى جانب هذا كله كانت عقيدة البوذية اليابانية أن هناك « بوذين » كثيرين على استعداد أن يخلعوا على بنى الإنسان جزءاً من الرحمة التى جمعوها مقداراً على مقدار بسبب عودتهم إلى الحياة مرة بعد مرة ، وفى كل مرة يقضون حياتهم فى فضيلة ، وكانت هنالك كذلك عقيدة فى آلهة رحيمة ؛ مثل « مولاتنا كوانون » ومثل « جيزو » الذى يشبه المسيح ؛ وفى أمثال هؤلاء تجد الرحمة الإلهية بأدق معانيها ؛ وكانت العبادة يؤدّى بعضها صلاةً عند مذابح المنازل أو عند أضرحة المعابد ، على أن معظم عبادتهم كان يتخذ صورة المواكب المرحة ؛ كانت الديانة فيها تخلى المكان الأول لمظاهر الغبطة والفرح ، وكانت التقوى تتبدى علائمها فى لبس النساء للأثواب الجميلة ، وفى انغماس الرجال فى ألوان المتع ؛ ويستطيع العابد الجادّ فى عبادته أن يطهر روحه بالصلاة مدى ربع ساعة تحت شلال دافق فى قلب الشتاء ؛ أو بالأخذ فى رحلات ينتقل فيها من ضريح إلى ضريح من أضرحة مذهبية ليشبع روحه أثناء هذه الرحلات بجمال أرض الوطن ؛ ذلك لأن اليابانى يستطيع أن يختار لنفسه مذهباً من عدة مذاهب فى البوذية : فله أن يحقق وجود نفسه وأن يلتمس سعادة نفسه عن طريق شعائر « زِنْ » (أى التأمل) الهادئة ؛ وله أن يتبع « نيشيرين » المتأجج فيأخذ عنه مذهب اللوتس ويظل فى صيام وصلاة حتى يظهر له بوذا بشخصه ؛ وله أن يختار لطمأنينة نفسه مذهب الأرض الطاهرة ؛ بحيث لا يجد الخلاص إلا فى الإيمان ؛ وله أن يختار لنفسه سبيلها فى حج صبور إلى حيث دير « كوياسان » وهناك يبلغ الجنة بأن

يدفن فى أرض تقدست بفضل ما فيها من عظام « كوبودايشى » — ذلك العظيم فى علمه وفى تدينه وفى فنه، وهو الذى أسس فى القرن التاسع مذهب « شنجون » أى مذهب « الكلمة الصادقة » .

وعلى وجه الجملة فالبوذية اليابانية هى من أمتع ما اعتقدت فيه الإنسانية من أساطير ، ولقد غزت اليابان مُسالمةً ، ولم يتعذر عليها وأن تخلى من نفسها مكاناً فى لاهوتها وفى عداد آلهتها، لمذاهب « شنتو » وآلهتها فاندمج بوذا عندهم بـ « أماتيراسو » وخصص مكان متواضع فى المعابد البوذية لضريح « شنتو » وكان الكهنة البوذية الذين ظهروا فى القرون الأولى رجالا فيهم الولاء وفيهم العلم وفيهم الرحمة ، وكان لهم أثر عميق فى تقدم الآداب والفنون فى اليابان ، حتى لقد كان منهم رسامين أو نحاتين من الطراز الأول ، كما كان بعضهم علماء ، أخذوا على أنفسهم ترجمة الأدب البوذى والصينى ، فكانت ترجماتهم تلك حافزاً قوياً على التقدم الثقافى فى اليابان على أن هذا النجاح كان سبباً فى إفساد الكهنة فى العصور المتأخرة ، إذ أصبح منهم كثيرون آميل إلى الكسل والجشع (لاحظ فى هذا الصدد الصور الرمزية التى كثيراً ما يصورهم بها اليابانيون الذين يحترفون مهنة النقش عل العاج أو الخشب) ، و بعُدَ بعض أولئك الكهنة عن بوذا بعداً فسيحاً بحيث راحوا ينظمون لأنفسهم جيوشاً ينشئون بها سلطة سياسية أو يحافظون بها على مثل هذه السلطة السياسية إن كانت قائمة[٩٣] ؛ ولما كان الكهنة يهيئون للناس ضرورة هى أولى ضرورات الحياة — وأعنى بها تهيئة الأمل الذى يسرّى عن النفوس . فقد ازدهرت صناعتهم حتى فى الوقت الذى تدهورت فيه صناعات الآخرين ؛ وأخذت ثروتهم تزداد قرناً بعد قرن ، بينما لبث الشعب فقيراً على حاله[٩٤] ؛ وقد أكد الكهنة للعباد المؤمنين بأن الرجل فى سن الأربعين يمكنه أن يشترى عقداً آخر من السنين يضيفه إلى حياته إذا هو دفع رسوماً لأربعين معبداً تدعو له بذلك ، ويمكن للرجل فى سن الخمسين أن يشترى عشر سنين أخرى إذا دفع الرسوم لخمسين

معبداً تدعو له ، وفى سن الستين يستأجر ستين معبداً — وهكذا حتى يموت بسبب ما قد يكون فى تقواه من نقص[٩٥](*) ، وكان الرهبان فى عهد « توكوجاوا » يشربون الخمر إلى درجة الإسراف ويحيطون أنفسهم بالغانيات صراحة ، ويمارسون اللواط(**) ، ويبيعون أحسن مناصب الدين إلى من يدفع فيها أغلى الأثمان[٩٦] .

ويظهر أن البوذية قد فقدت سلطانها على الأمة خلال القرن الثامن عشر ؛ واتجه الحكام العسكريون نحو الكونفوشية ، ونهض «مايوشى» و « موتوأورى » فتزعما حركة تدعو إلى إحياء عقيدة « شنتو » ؛ وحاول علماء من أمثال « إشيكاوا » و « أراى هاكوسيكى » أن ينقدوا الدين نقداً عقلياً ؛ فقال « إشيكاوا » فى جرأة بأن الأصول الدينية التى تتناقلها الأجيال عن طريق الرواية الشفوية يستحيل أن تبلغ من اليقين مبلغ المدوّنات المكتوبة ؛ وأن الكتابة لم تدخل اليابان إلا بعد ألف عام تقريباً من الأصل المزعوم للجزر اليابانية وأهليها من أن هذه الجزر وهؤلاء الأهلين قد نشأوا من قطرات الرمح التى أمسك بها الآلهة ، أو من أصلاب هؤلاء الآلهة ؛ وأن ادعاء الأسرة الإمبراطورية بأنها من أصل إلهى ، إن هو إلا حيلة سياسية ، وأنه إذا لم يكن أسلاف البشر بشراً مثلهم فالأرجح أن يكونوا حيواناً ، فذلك أقرب إلى التصديق من أن يكونوا آلهة[٩٩] ؛ وهكذا بدأت المدنية فى اليابان القديمة — كما بدأت فى بلاد كثيرة غيرها — بالدين ، وها هى ذى تدنو من ختامها بالفلسفة .

(*) يقول مردوخ : « كان الرهبان فى دير كيوتو » و « فارا » العظيمين يبلغون ذروة مجدهم المادى فى الأوقات التى كان يتضور الشعب فيها جوعاً ، أو يموت بعشرات الآلاف من الوباء ، لأن المؤمنين بالدين يسخون فى هداياهم وعطاياهم أعظم سخاء فى أمثال هذه الأوقات »[٩٦] .

(**) فى سنة ١٤٥٤ ... كان الصبية يباعون غالباً للكهنة ، فكان هؤلاء الكهنة يحلقون لهم حواجبهم ويزينون وجوههم بالمساحيق ويلبسونهم أردية النساء ، ويستعملونهم أسفل ضروب الاستعمال ، لأنه منذ عهد « يوشيمتسو » الذى ضرب مثلا سيئاً فى هذا الصدد وفى كثير غيره من الأمور ، واللواط يزداد شيوعاً ، خصوصاً فى الأديرة ، ولو أنه لم يكن قاصراً على الأديرة وحدها »[٩٧] .

الفصل السابع

المفكرون

كونفوشيوس يصل اليابان – ناقد للدين – ديانة العلماء – كايبارا إكن – فى التربية – فى ألوان المتعة – المدارس المتنافسة – سبينوزا يابانى – إيتوجنساى – إيتوتوجاى – أوجيو سوارى – حرب العلماء – مايوشى – موتو أورى

جاءت الفلسفة ــ كما جاء الدين ــ إلى اليابان قادمة من الصين ؛ وكما أن البوذية قد انتهت إلى « نيبون » بعد دخولها فى « مملكة الشعب الوسطى الزاهرة » بستمائة عام ؛ فكذلك بلغت الفلسفة مرحلتها الواعية فى اليابان ــ متخذة صورة المذهب الكنفوشيوسى ــ بما يقرب من أربعمائة عام بعد أن أفاضت الصين على الكونفوشيوسية حياة جديدة ؛ ففى نحو منتصف القرن السادس عشر ، ظهر رجل من سلالة الأسرة اليابانية المشهورة ، وهو : « فيوچيوار اسيجوا » ولم يُرْضه العلم الذى حصله باعتباره راهباً ؛ وكان قد سمع بحكماء عظماء فى الصين ، فقرر أن يرتحل إلى هناك طالباً للعلم ؛ ولما كان الاتصال بالصين محرماً فى سنة ١٥٥٢ ، فقد دبر الكاهن الشاب خطة يعبر بها مياه البحر فى سفينة كانت تشتغل بالتهريب ؛ وحدث أن كان يرقب هذه السفينة فى نُزُل فى الميناء ، فسمع إذذاك طالباً يقرأ بصوت عال باللغة اليابانية كتاباً صينياً عن كونفوشيوس ، فكم كانت غبطة « سِجوا » حين علم أن الكتاب من تأليف « شوهسى » تعليقاً على « العلم الواسع » ؛ فهمس لنفسه قائلا : « هذا هو ما كنت أسعى إليه منذ طويل » ؛ ولبث يبحث بحثاً لا يفتر حتى حصل على نسخة من هذا الكتاب كما حصل على نسخ من سائر ما أنتجته الفلسفة الكونفوشيوسية ، وانغمس فى تتبع ما فى هذه الكتب من مجادلات ،

حتى نسى رحلته إلى الصين ؛ ولم تمض بضعة أعوام حتى جمع حوله طائفة من طلبة العلم الناشئين ، الذين نظروا إلى فلاسفة الصين نظرتهم إلى وحى أوحى به إليهم عن عالم جديد طريف يسوده الفكر الدنيوى ؛ وسمع « أيياسو » بما قد انتهت إليه تلك الدراسات ، فطلب من « سِجوا » أن يأتيه ليعرض عليه مضمون هذه المؤلفات الخالدة التى تنسب إلى كونفوشيوس ؛ لكن الكاهن المعتد بنفسه آثر البقاء فى مكانه الهادئ الذى يدرس فيه ، وأرسل بدلا عنه أحد تلاميذه النابهين ؛ ورغم عكوفه هذا ، أخذ الشباب المُمتاز فى عصره بفاعلية العقل ، يحج إليه ويطرق بابه ، واستوقفت محاضراته الأسماع إلى حد جعل الرهبان البوذيين فى كيوتو يرفعون عقائرهم بالشكوى ، قائلين إنها لثورة أن يقوم كاهن أصيل لم يزل فى سلك الكهنوت ، فيلقى محاضرات عامة أو يعلم الشعب[١٠٠] ، غير أن الأمر حُلّتْ عقدته بموت « سجوا » موتاً مفاجئاً (سنة ١٦١٩) .

وسرعان ما كسب تلميذه الذى أرسله إلى « أيياسو » شهرة فاقت شهرته ، وأصبح له من التأثير ما بزّ به تأثير أستاذه ؛ وكان تلميذه هذا هو « هاياشى رازان » الذى مال إليه الحكام العسكريون الأولون من أسرة « توكوجاوا » ، فجعلوه مستشارهم وطلبوا إليه أن يصوغ لهم الكلمات التى يتوجهون بها إلى الشعب ؛ وضرب « أيمتسو » مثلا لطائفة النبلاء ، إذ جعل يختلف إلى محاضرات « هاياشى » فى سنة ١٦٣٠ ؛ وسرعان ما ملأ هذا الشاب الكونفوشيوسى صدور سامعيه حماسة للفلسفة الصينية ، حتى لم يعد عسيراً عليه أن يجتذبهم من البوذية والمسيحية على السواء ، ويضمهم إلى العقيدة الخلقية البسيطة التى أشاعها حكيم « شانتونج » فى أرجاء الشرق الأقصى ؛ فقد أنبأهم أن اللاهوت المسيحى خليط من أوهام خلقها الخيال ولا تعقلها العقول ، كما أنبأهم أن البوذية مذهب يفت فى عضد الأمة اليابانية ويتهدد نسيجها بالوهن وروحها المعنوية بالضعف ؛ يقول لهم « رازان » . « إن كهنتكم يذهبون إلى أن

هذه الحياة الدنيا فانية زائلة ؛ ثم تعملون أنتم على أن ينسى الناس علاقاتهم الاجتماعية ، وبهذا تقتلون فى الناس روح الواجب والفعل الصواب ؛ ثم تقولون إن طريق الإنسان محفوف بالخطايا ؛ فاهجر أباك وأمك وأبناءك ومولاك ، وابحث عن الخلاص ، وهأنذا أقول لكم إنى قد تعمقت الدراسة ، فلم أجد قط للإنسان طريقاً سوى ولائه لمولاه وطاعة الإبن لآبائه »[١٠١] ؛ وكان « هاياشى » ينعم فى شيخوخته بشهرة هادئة ، حين شبت النار الكبرى فى طوكيو سنة ١٦٥٧ ، فشملته بين من قضت عليهم من أنفس بلغت مائة ألف ؛ وكان تلاميذه قد أسرعوا إليه ينذرونه بالخطر الداهم ، لكنه لم يفعل سوى أن هز رأسه وعاد بنظره إلى الكتاب ؛ فلما دنت منه ألسنة اللهب ، أمر بمحفة يحمل فيها ، وحملوه وهو لم يزل يقرأ فى كتابه ؛ وقضى ليلته تلك — كما قضاها غيره ممن لا يحصيهم العدد — قضاها فى العراء تحت نجوم السماء ؛ ومات بعد ذلك بثلاثة أيام متأثراً بالبرد الذى أصابه أثناء الحريق .

وعوضت الطبيعة اليابان عن موته ، بأن هيأت لها فى العام الثانى لموته رجلا من أشد أنصار الكونفوشيوسية حماسة ؛ وذلك هو « موروكيوسو » الذى اختار لنفسه « إله العلم » إلهاً يرعاه ؛ ففى صدر شبابه قضى ليلة بأسرها أمام ضريح « متشيزان » يؤدى الصلاة ؛ ثم وهب نفسه للعلم بعزم الشباب ، وكانت عزيمته شديدة الشبه بعزيمة معاصره سبينوزا(*) .

سأنهض من نومى كل صباح فى الساعة السادسة ، وآوى إلى مخدعى كل مساء فى الساعة الثانية عشرة

ولن أجلس بغير عمل إلا إذا حال دون ذلك أضياف أو مرض أو غير ذلك من ظروف قاهرة ...

لن أنطق بباطل

(*) راجع فاتحة كتاب سبينوزا « فى الإصلاح العقلى » .

سأجتنب الألفاظ التى لا تغنى شيئاً ، حتى إن كنت أوجه الحديث
إلى من هم دونى
سأكون معتدلا فى طعامى وشرابى
وإذا اشتعلتْ فىَّ الشهوات ، سأقضى عليها فوراً ، دون أن أعينها قط
على التزايد
ن تشتت الفكر يفسد قيمة القراءة ، فسأقاوم جهدى كل ما يصرفنى
عن حصر انتباهى ، وسأقاوم فى نفسى العجلة الزائدة .
سأسعى إلى تثقيف نفسى بنفسى ، ولن أسمح للرغبة فى الشهرة أو فى
الكسب أن تحدث فى عقلى اضطراباً .
إنى سأنقش هذه القواعد فى صفحة قلبى ، وسأحاول أن أتبعها .
وإنى لأشهد الآلهة على ما أقول[١٠٢]

ومع ذلك فلم يكن « كيوسو » ليدعو الناس إلى عزلة العلماء التى نعهدها فى رجال العصور الوسطى ، بل كان له من رحابة الأفق ما كان « لجيته » ؛ فوجَّه نفسه وجهة تساير العالم فى مجراه :

إن اعتزال الناس أحد الطرق ، وإنه لطريقة جميلة ، لكن الرجل الأعلى يسره أن يزور الأصدقاء ؛ إن الرجل ليصقل نفسه صقلا باتصاله بالناس ؛ وإن من أراد تحصيل العلم ، لا مندوحة له عن الصقل عن هذا الطريق ؛ أما إن اعتزل كل شىء وكل إنسان ، فإنما هو بذلك يجاوز جادة الصواب ... إن طريق الحكماء ليس منفصلا عن طريق الحياة اليومية . فعلى الرغم من أن البوذيين يسحبون أنفسهم من العلاقات الإنسانية ، فيبترون الرابطة بين المتبوع وتابعه ، وبين الوالد وولده ، فهم عاجزون عن بتر علاقة الحب من أنفسهم . . . إنها أنانية أن تسعى وراء السعادة فى العالم الآخر . لا تظنوا أن الله بعيد عنكم ، بل ابحثوا عنه فى قلوبكم ، لأن القلب هو مقر الإله[١٠٣].

وأروع من يستوقف النظر من هؤلاء الكونفوشيوسين اليابانيين القدامى رجل لا يسلكونه عادة فى عداد الفلاسفة ، لأن مثل « جيته » ومثل « إمرسن » كانت له القدرة على صياغة حكمته فى عبارة رشيقة ، فأحس الأدب غيرة عليه ، وطالب به عضواً فى جماعة الأدباء ، وذلك هو « كايبارا إكِنْ » الذى كان ابن طبيب مثل أرسطو ، ثم خرج عن دائرة الطب إلى فلسفة تجريبية تتصف بالدقة والحذر ، فعلى الرغم من مشاركته فى الحياة العامة بسيرة مليئة بالعمل ، بما فى ذلك كثير من المناصب شغلها ، فقد وجد من وقته فراغاً يستعين به على أن يكون أعظم علماء عصره ؛ وبلغت كتبه عدداً يربى على المائة ، فكتبت له الشهرة فى أرجاء اليابان جميعاً ؛ وذلك لأنه لم يكتب كتبه تلك باللغة الصينية (كما كانت عادة زملائه الفلاسفة) بل كتبها باليابانية السهلة التى يستطيع كل من عرف القراءة أن يفهمها ؛ وعلى الرغم من علمه وشهرته ، فقد كان له — إلى جانب الغرور الذى تراه عند كل كاتب — تواضعٌ كالذى تراه عند كل حكيم ، ويروى الرواة أن مسافراً على سفينة كانت تشق طريقها بحذاء الساحل اليابانى ، تعهد لزملائه فى السفر أن يحاضرهم فى الأخلاق الكونفوشيوسية ؛ فأنصت له الجميع بادئ ذى بدء بما عرف عن اليابانين من حب استطلاع وشغف بالزيادة من العلم ؛ ولكن ماكاد يمضى المتكلم فى حديثه قليلا ، حتى وجد السامعون أن كلامه يبعث الملل إذ لم يكن للرجل أنف حساسٌ يهديه إلى التميز بين الحقيقة الحية والحقيقة الميتة ، فانصرفوا عنه بعد وقت وجيز ، ولم يبق منهم إلا سامع واحد ، راح هذا السامع الواحد يتتبع البحث بتركيز عجيب فى انتباهه ، حتى سأله المحاضر حين فرغ من محاضرته ، ما اسمه ، فأجابه بصوت هادئ إن اسمه « كايبارا إكن » ؛ فخجل الخطيب إذ علم أنه لبث ساعة أو يزيد ، يحاول أن يلقن الكونفوشيوسية لرجل هو ألمع أعلام المذهب الكونفوشيوسى فى عصره (١٠٤) .

كانت فلسفة « إكن » خالية من اللاهوت خلو فلسفة « لك أونج » منه إذ

حصر نفسه فى حدود هذه الدنيا ما دام لا سبيل إلى معرفة سواها ؛ « إن حقى الناس يؤدون صلواتهم لآلهة مشكوك فى وجودها ، طلباً لسعادة أنفسهم فى الوقت الذى تراهم فيه يقترفون الموبقات[١٠٥] » ؛ وحاول أن تكون فلسفته عاملا على توحيد خبرة الحياة وحكمة العقل ، وتوحيد الشهوات والخلق المستقيم ، فقد كان من رأيه أن الأمر الأهم الذى يدعو قبل غيره إلى التفكير ؛ هو كيف نجعل من الشخصية الإنسانية وحدة متكاملة ، فذلك أجدى علينا من التفكير فى كيفية توحيد المعرفة ، وتراه يتحدث بلسان يدهشك أن تلمح فيه نغمة الزمن الذى نعيش فيه الآن .

« ليس الغرض من التعلم هو مجرد التوسع فى المعرفة ، بل الغرض هو تكوين الشخصية ؛ غاية التعلم أن نخلق من أنفسنا رجالا صادقين قبل أن نكون رجالا عالمين ... إن دراسة الأخلاق التى كانت تُعَدُّ عماد التعليم فى مدارس العهد القديم تكاد لا تجد مكاناً فى مدارسنا اليوم ، لكثرة ما يطلب إلى التلاميذ دراسته من مواد ؛ لم يعد الناس يرون فى صالحهم أن ينفقوا مجهودهم فى الإصغاء إلى تعاليم الأعلين من رجال الحكمة القدماء ونتج عن ذلك أن ضحينا على المذبح الذى يسمونه « حق الفرد » بعلاقات الود بين السيد وخادمه ، والرئيس ومرءوسيه ، والكبير والصغير . السبب الحقيقى الذى حدا بالناس ألا يقدروا تعاليم الحكماء هو أن العلماء يحاولون أن يتظاهروا بعلمهم فذلك عندهم أولى من أن يعيشوا على غرار ما جاء فى تعاليم الحكماء »[١٠٦] .

ويظهر أن شباب عصره قد توجه إليه باللوم على جموده ، لأننا نراه يلقى فى وجوههم درساً لا بد لكل جيل قوى من الناس أن يعود إلى دراسته :

« قد تظنون يا أبنائى أن كلمات رجل كهل تدعو إلى السأم ومع ذلك فإذا ما لقنكم أبوكم درساً ، فلا تزوروا عنه ، بل اصــغوا إلى ما يقول ؛ قد

تظنون أن تقاليد أسرتكم أمر سخيف ، ومع ذلك فلا تحطموها ، لأنها تجسيد لحكمة آبائكم »[٧٠١] .

ولعله كان يستحق اللوم على أهم كتبه وعنوانه « أونا ديكاكو » ومعناه « الحكمة العظمى للنساء » لأن هذا الكتاب كان له تأثير رجعي قوى على مركز المرأة فى اليابان ، لكنه لم يكن واعظاً متجهماً يحاول أن يتلمس الخطيئة فى كل ما يجلب المتعة ، فقد أدرك أن من مهام المربى أن يعلمنا كيف نستمتع بالبيئة التى نعيش فيها ، كما يعلمنا أن نفهم تلك البيئة وأن نتحكم فيها (إذا استطعنا) :

« لا تدعوا يوماً واحداً يفر من أيديكم بغير متعة . . . لا تسمحوا لحماقة الآخرين أن تنال من أنفسكم تعذيباً . . تذكروا أن الدنيا لم تخل من الحمق منذ أول خلقها . . . فلا ينبغى إذن أن نغم أنفسنا ، أو أن نضيع أسباب متعتنا ، حتى إن حدث لأبنائنا وأشقائنا وأقربائنا أن يكونوا أثرين فيتجاهلوا خير مجهوداتنا فى سبيل إسعادهم . . . إن « ساكى » (نوع من الخمر) هو هبة السماء الرائعة ، فهى توسع القلب إذا ما شربناها بمقادير قليلة ، وهى كذلك تنعش الروح إذا ما ناله الهم ، وتفرق اهموم وتصلح الصحة ، وبذلك تعين الإنسان وأصدقاءه أيضاً على التمتع بأسباب اللذة ، غير أن من يسرف فى شرابها يفقد احترامه ، وينزلق لسانه بالثرثرة ، وينطق بكلمات مسيئة كأنه مجنون . . . اشربوا « الساكى » بالمقدار الكافى لإنعاش نفوسكم ثم لا زيادة ، وبذلك يمكنكم أن تتمتعوا برؤية الزهر وهو يتفتح من أكمامه ، إن من الحمق أن تسرف فى الشراب فتفسد على نفسك هذه الهبة العظيمة التى وهبتها لك السماء »[١٠٨] .

ولقد وجد — كما وجد غيره من سائر الفلاسفة — أن الطبيعة هى آخر موئل يلوذ به ليلتمس سعادته :

« لو أننا جعلنا قلوبنا معين النعيم ، وأعيننا وآذاننا أبوابه ، ثم اجتنبنا سافل الشهوات إذن لتكاثر نعيمنا ، لأننا عندئذ نصبح سادة الجبال والماء والقمر

والزهور ؛ ولا يكون بنا حاجة إلى سؤال أحد يهبنا هذه الأشياء ؛ كلا ولا بنا أن ندفع سناً (مليما) واحداً لنظفر بها ، لأن هذه الأشياء لا يملكها إنسان بعينه إن أولئك الذين يستطيعون أن يستمتعوا بجمال السماء من فوقهم ، وجمال الأرض من تحتهم ، ليس بهم حاجة إلى أن يغبطوا الأغنياء على رفاهية عيشهم ، لأنهم عندئذ يكونون أغنى من أغنى الناس ؛ إن مشاهد الطبيعة فى تغير دائم ، فلست تجد صباحين أو مساءين على أتم تشابه ... فى لحظة ما قد يحس الإنسان كأن جمال الدنيا بأسره قد انمحى ؛ لكن ما هو إلا أن يأخذ الثلج فى السقوط ، وينهض الإنسان من نومه فى الصباح التالى ، ليجد القرية والجبال قد تحولت إلى فضة ، وتدب الحياة فى الأشجار التى كانت عارية ، إذ يعود إليها بأزهارها ... إن الشتاء يشبه نعاس الليل ، الذى يجدد لنا القوة والنشاط .

إنى أحب الزهر ، فأنهض من نومى مبكراً
وأحب القمر ، فآوى إلى مخدعى متأخراً ...
إن الناس يجيئون ويروحون كأنهم مجارى الماء العابرة
أما القمر فباق على طول العصرر(١٠٩)

لقد كان تأثير الكونفوشيوسية على التفكير الفلسفى فى اليابان أشد منه فى الصين نفسها ، لأنه قضى هناك على كل مقاومة من فريق الثائرين من جهة ، كما قضى على المثاليين المتصوفين من جهة أخرى ؛ إن مدرسة « شوشى » التى كان من رجالها « سيجوا » و « رازان » و « إكن » ، التى سميت بهذا الاسم نسبة إلى « شوهسى » لأنها اتبعت طريقته فى تفسير الكتب الصينية التى تحتوى على المتون ، تفسيراً توخى فيه التزام الأصل وعدم الحرية فى التصرف ، ولقد نهضت مدرسة أخرى ظلت تقاومها حيناً ، هى مدرسة « أويومى » التى كان على رأسها « وانج يانج منج »(*) الذى عرفه « نيبون » باسم « أويومى »

(*) راجع ما جاء عنه فى هذا الجزء الخاص بالمدينة فى الصين من هذه السلسلة .

ففلاسفة اليابان الذين كانوا ينتمون إلى مدرسة « أويومى » اقتفوا أثر « وانج » فى استدلال الصواب والخطأ الأخلاقيين من ضمير الفرد ، أكثر مما عمدوا فى ذلك إلى تقاليد المجتمع وتعاليم الحكماء الأقدمين ، يقول « ناكاىى توچو » (١٦٠٨ — ٤٨) : « لقد لبثت أعواماً طوالا أومن إيماناً قوياً فى « شوشى » حتى شاءت رحمة الله أن ترد إلى اليابان لأول مرة مؤلفات « أيومى » ، ولولا ما استقيته من تعاليمها ، لظلت حياتى فارغة جدباء »[١١٠] ، وعلى ذلك أخذ « ناكاىى » على نفسه أن يبشر بوحدانية مثالية ، تذهب إلى أن العالم وحدة من « كى » و « رى » — أى وحدة من الأشياء الجزئية (أو الأعراض) والعقل أو القانون ؛ والله ، وهذه الوحدة شىء واحد ؛ فعالم الأشياء جسده والقانون الكونى روحه[١١١] ، فقد جرى « ناكاىى » مجرى « سبينوزا » و « وانج يانج منج » والفلاسفة المدرسين فى أوربا » فى قبوله لهذا القانون الكونى بشىء من الحب العقلى ، واعتبر الخير والشر لفظتين بشريتين ، ووجهة نظر ذاتية لا تعبر عن حقائق موضوعية ، وهو كذلك يشبه « سبينوزا » شبهاً عجيباً فى أنه رأى معنى من معانى الخلود فى الوحدة التأملية التى تدمج روح الفرد فى قانون العالم أى عقل العالم الذى لا يخضع لقيود الزمان :

« إن عقل الإنسان هو عقل العالم الذى يخضع فى سيره لمنطق العقل ، لكن هناك عقلا آخر يسمى بالضمير ، وهذا هو الجانب الذى لا ينتمى إلى عالم الأشياء بل هو لا نهائى وأبدى ، لأنه لما كان الضمير فينا هو نفسه العقل الإلهى أو الكونى ، كان بغير بداية أو نهاية ، فإذا ما سلكنا فى أفعالنا مهتدين بهذا الجانب من العقل ، أى بالضمير كنا بمثابة التجسيد اللانهائى والأبدى ، وكانت لنا حياة خالدة إلى الأبد »[١١٢] .

كان « ناكاىى » رجلا له إخلاص القديسين ، لكن فلسفته لم تصادف هوى لا عند الشعب ولا عند الحكومة ، فقد ارتعدت حكومة الحكام

العسكريين للفكرة القائلة بأن كل إنسان له حق الحكم بنفسه فيما يعتبر صواباً وما يعتبر خطأ ، فلما نهض رجل آخر ، هو « كومازاوا بانزان » يبشر بمذهب « أويومى » ثم تجاوز حدود الميتافيزيقا وأوغل فى السياسة ، بحيث انتقد جهل « السيافين » وخواء حياتهم ، صدر أمر بالقبض عليه ، وكان « كومازاوا » يدرك أهمية العقبين فى الإنسان ، باعتبارهما عضوين ينفعان الفلاسفة بصفة خاصة فى الفرار ، فهرب إلى الجبال ، حيث قضى معظم ما بقى له من سنين فى غمرة الغابات[١١٣] ، وفى سنة ١٧٩٥ صدر مرسوم يحرم المضى فى تعليم فلسفة « أويومى » ، وكان العقل اليابانى من الاستسلام بحيث توارت تعاليم « أويومى » منذ ذلك الحين ، فاندست فى عبارات كونفوشيوسية ، أو دخلت عنصراً متواضعاً فى القانون العسكرى ، مما يدل على ما قد يبديه مجرى التاريخ من متناقضات ، إذا حولت العقيدة البوذية المسالمة إلى تعاليم توحى للمقاتلين المتحمسين للوطن بالقتال .

ولما تقدم البحث العلمى فى اليابان ، بحيث صار فى مقدور العلماء أن يتصلوا بكونفوشيوس فى أصوله إلا فى شروح الشارحين استطاع رجال من أمثال « إيتوچنسى » و « أوجيوسوراى » أن يؤسسوا المدرسة الكلاسيكية للفكر اليابانى ، التى أصرت على أن تتخطى الشارحين جميعاً ، فتصل بـ « لك أونج » العظيم اتصالا مباشراً ، ولم تكن أسرة « إيتوچنسى » لتتفق معه فى تقديره لكونفوشيوس ووصمته بأنه يسبح من دراساته فى عالم نظرى مجرد ، وتنبأت له بأنه سيموت فقيراً وأنبأته : « بأن البحث العلمى من خصائص أهل الصين ، أما فى اليابان فليس البحث العلمى بذى غناء ، لأنك حتى إن برعت فيه ، فلن تجد من تبيع له بضاعتك ، وخير لك ألف مرة أن تكون طبيباً وتكسب المال » لكن الطالب الناشئ أصغى إلى قول أسرته دون أن يستمع له ، ونسى منزلة أسرته وثراءها ، واطرح كل طموح مادى جانباً ، وتنازل عن بيته وأملاكه إلى أخيه الأصغر ، والتمس مكاناً معزولا يعيش فيه ليتابع

دراساته بغير اضطراب وكان ولاسيا حتى لقد ظنه الناس أحياناً أميراً ، لكنه ارتدى ثوب فلاح وتوارى عن أعين الناس ، يقول مؤرخ يابانى :

إن « چنسى » كان فقيراً معدماً ، بلغ من الفقر حداً أعجزه فى نهاية العام أن يصنع كعك الأرز الذى يصنعه الناس فى بداية العام الجديد ؛ لكنه كان ثابت الجنان إزاء فقره هذا ؛ ولقد جاءته زوجته وجثت على ركبتيها أمامه وقالت : « سأؤدى واجبات الدار مهما تكن الظروف لكن ثمت شيئاً لا يحتمل ، ذلك أن ولدنا » چنسو » لايفهم معنى ما نحن فيه من فقر ، وهو يغبط أبناء الجار على ما يأكلونه من كعك الأرز ، وإننى أؤنبه على ذلك ، لكن قلبى ينفطر له حتى ليكاد ينشق نصفين « لكن چنسى مضى منكباً على كتبه دون أن يجيبها بكلمة ، ثم خلع خاتمه العقيق وناولها إياه ، كأنما يقول لها : بيعى هذا واشترى بضعة كعكات من الأرز »[١٠٤] .

أنشأ « چنسى » فى كيوتو مدرسة خاصة ، وأخذ يحاضر هناك مدى أربعين عاماً ، وأهم ما قام به أنه درب عدداً يقرب من ثلاثة آلاف طالب فى الفاسفة وكان يتحدث آناً بعد آن فى الميتافيزيقا ، ويصف الكون بأنه كائن عضوى حى ، تتغلب فيه الحياة على الموت دائماً ، لكنه كان مثل كونفوشيوس يتحيز تحيزاً شديداً لما هو نافع على هذه الأرض .

« إن ما لاينفع فى حكم الدولة ، أو فى تيسير العلاقات بين أفراد الإنسان ، لاغناء فيه ... لا بد للتعلم أن يكون مصحوباً بالفاعلية والحياة ؛ ولا ينبغى أن يقتصر على مجرد النظريات الميتة أو التأمل ... إن من يعرف الطريق يلتمسها فى حياته اليومية ... إنك إذا حاولت أن تلتمس الطريق بعيداً عن العلاقات الإنسانية ، فأنت بمثابة من يحاول أن يمسك الريح ... إن الطريق المألوفة ممتازة بحسنها ، ولن نجد فى العالم ما يفوقها حسناً »[١١٥] .

وبعد موت « چنسي » مضى ولده « إيتو توجاى » فى واصلة مدرسته وعمله ؛ وكان « توجاى » يهزأ بالشهرة ويقول « هل يسعك أن تسمى من ينسى اسمه بمجرد موته إلا بأحد اسمين ، فإما حيوان وإما رماد ؟ ولكن ألا يخطئ الإنسان إذا ما اشتدت رغبته فى تأليف الكتب وإنشاء العبارات لكى يلقى اسمه إعجاباً ولا ينساه الناس ؟ »(١١٦) وهو نفسه كتب مائتين واثنين وأربعين كتاباً ، ومع ذلك عاش حياة متواضعة تملؤها الحكمة ؛ ويشكو النقاد من أن هذه الكتب كانت كلها قوية فيما أسماه « موليير » بالفضائل التى تجلب النعاس ولكن تلاميذ « توجاى » يقولون إنه كتب مائتين واثنين وأربعين كتاباً دون أن يقول كلمة واحدة عن أى فلسوف آخر ، ولما مات وضعوا على قبره هذا « الشاهد» الذى نغطبه عليه :

إنه لم يتحدث فى أخطاء الآخرين ...
ولم يهتم بشىء إلا بالكتب
وكانت حياته خلواً من الحوادث(١١٧)

على أن أعظم رجل من أتباع كونفوشيوس المتأخرين، هو« أوجيوسوراى » فعلى حد قوله هو « منذ عهد جمو – أول أباطرة اليابان – لم يظهر من يوازينى إلا نفر قليل » وهو على نقيض « توجاى » فى أنه كان يحب النقاش ، وكان يعبر عن رأيه بقوة عن الفلاسفة الأحياء منهم والأموات ؛ فلما سأله سائل شاب : « ماذا تحب غير القراءة ؟ » أجاب « ليس أحبَّ إلىَّ من أكل الفول المحروق ونقد عظماء اليابان » ويقول « ناميكاوا تنچين » : « إن سوراى رجل جد عظيم، لكنه يظن أنه يعلم كل مايمكن علمه. وهذه عادة سيئة »(١١٨)، وكان فى مستطاع « أوجيو » أن يكون متواضعاً إذا ما أراد ذلك ، ومن رأيه أن اليابانيين جميعاً – ويذكر نفسه بينهم صراحة – قوم همج ، وليس يعرف المدنية غير أهل الصين ، وأنه « إذا كان هناك شىء لا بد من قوله ، فقد قاله

بالفعل الملوك القدامى أو كونفوشيوس»[١١٩]، وثارت فى وجهه فئة « السيافين » وفئة العلماء ، لكن الحاكم العسكرى المصلح « يوشيمونى » أعجبته فيه شجاعته ودافع عنه ضد السوقة العقلية ، وقد أقام « سوراى » منبره فى «يدو» وراح يضحك ويسخر من « چنسى » الذى كان قد أعلن أن الإنسان خير بطبعه ، فما أشبهه فى ذلك بـ « هسون تسى » حين عارض النزعة العاطفية فى « موتى » أو بـ « هُبز » حين فند « روسو » قبل أن يأتى « روسو » إلى عالم الوجود ، وقال : « سوراى » إن الإنسان ــ على نقيض ما ظنه « چنسى » ــ شرير بطبعه ، يختطف كل ما تقع عليه يداه ، ولا يجعل منه مواطناً مقبولا إلا الأخلاق والقوانين الموضوعتين ، والتربية التى لا تلين فى معاملته :

« تثور فى الإنسان شهواته بمجرد ولادته ، فإذا عجزنا عن تحقيق تلك الشهوات فى أنفسنا ــ وهى شهوات لا حد لها ــ ينشأ النزاع ، فإذا ما نشأ نزاع أعقبته الفوضى ، ولما كان الملوك القدامى يكرهون الفوضى ، فقد وضعوا أسس اللياقة والاستقامة فى السلوك ، واستطاعوا بهما أن يلجموا شهوات الناس ... فليست الأخلاق سوى الوسائل الضرورية لضبط رعايا الإمبراطورية فهى لم تنشأ مع الفطرة ولا مع نزوات القلب الإنسانى لكنها من تدبير طائفة معينة من الحكماء امتازت بذكائها ، ثم خلعت عليها الدولة مسحة السلطان[١٢٠] .

وكأنما أرادت الأيام أن تثبت تشاؤم « سوراى » ، فهبط الفكر اليابانى فى القرن الذى تلاه ، هبط حتى عن الحد المتواضع الذى كان قد ارتفع إليه بفضل محاكاته لكونفوشيوس ، وضاع أباديد فى حرب أراقت المداد بين وثنيي الصين ومؤمنى اليابان ، وفى هذه الحرب التى شنها الأقدمون على المحدثين ، كتب النصر للمحدثين ، لأنهم جعلوا الأسلاف موضع إعجابهم ، فتفوقوا فى ذلك على أعدائهم وكانت الطائفة التى تناصر الصين من العلماء « واسمها كانجا كوشا » تسمى بلادهم اليابان ــ وهى وطنها ــ قطراً همجياً ،

واحتجت بأن الحكمة كل الحكمة مقرها فى الصين ، وقنعت بترجمة الأدب والفلسفة الصينيين والتعليق عليهما ، أما العلماء الذين يناصرون اليابان (واسم جماعتهم واجا كوشا) فقد هاجموا هذا الموقف من معارضيهم لأنه موقف يؤدى إلى إشاعة الجهل ونبذ الروح الوطنية ، ودعوا أمتهم أن تستدبر الصين ، وأن تجدد قواها بالأخذ عن تراثها هى من شعر وتاريخ ، وهاجم «مايوشى» أهل الصين قائلا إنهم قوم أشرار بفطرتهم ، ومجد اليابانيين لأنهم خيرون بطبعهم ، وعزا فقر اليابان القديمة فى الأدب والفلسفة إلى أن اليابانيين لم يكونوا بحاجة إلى إرشاد فى الفضيلة ولا فى العقل(*) .

وحدث لطبيب شاب اسمه « موتو أورى نوريناجا » أن زار « مايوشى » فتأثر به إلى حد جعله ينفق أربعة وثلاثين عاماً فى كتابة أربعة وأربعين مجلداً ، يشرح فيها الـ « جوجيكى » ومعناها « مدونات الحوادث القديمة » — وهى المستودع الأصيل لأساطير اليابان ، وخصوصاً أساطير « شنتو » ، فجاء هذا الشرح وعنوانه « كوجيكى دن » ، هجمة عنيفة على كل ما هو صينى فى اليابان أو خارج اليابان، واستمسك استمساكاً شديداً بالصحة الحرفية لما ترويه القصص البدائية عن الأصل الإلهى الذى نشأت عنه الجزر اليابانية ، والأباطرة والشعب ، وشجع هذا الكتاب طبقة المثقفين فى اليابان — رغم أنف الأوصياء على العرش عندئذ من أفراد أسرة توكوجاوا — شجعهم على الرجوع إلى لغة بلادهم وطرائق العيش فيها وتقاليدها ، ومعنى ذلك كله أن يعيدوا عقيدة « شنتو » بدلا من البوذية ، وأن يردوا للأباطرة سيادتهم على طبقة

(*) العبارة الآتية مقتبسة من تعاليم « مايوشى » كما بسطها « سير أ . ساتو » : « لما كانت ميول الناس فى العصور الخالية مستقيمة . لم يكن من الضرورى أن يتخذوا تشريعاً خلقياً معقداً ... لم يكن من الضرورى فى تلك الأيام أن يكون للناس مذهب فى الصواب والخطأ ، أما أهل الصين ، فلأنهم أشرار بفطرتهم ... كانوا خيرين فى الظاهر وحده وكانت أفعالهم الشريرة من الفداحة بحيث وقعت الجماعة فى حالة من الفوضى ؛ ولأن اليابانيين كانوا على استقامة فى الخلق ، فقد استغنوا عن التعلم(١٢١) .

الحكام العسكريين ، فقد كتب « موتو أورى » يقول : « كانت اليابان هى التى ولدت إلهة الشمس « آماتيراسو » ، وتدل هذه الحقيقة على سيادتها على سائر الأقطار جميعاً »[١٢٢] ، واستأنف تلميذه « هيراتا » — بعد موت موتو أورى — سبيل المحاجة فى الموضوع فقال :

« إنه لمما يدعو إلى الأسف الشديد ، أن يسود كل هذا الجهل بالشواهد التى تدل على المذهبين الأساسيين ، وهما أن اليابان بلد الآلهة ، وأهلها سلالة الآلهة فبين الشعب اليابانى وبين الصينيين والهنود والروس والهولنديين والساميين والكمبوديين وسائر أمم العالم ، خلاف فى النوع ، ولا يقتصر الأمر على اختلاف فى الدرجة ، فلم يكن مجرد الغرور بالنفس هو الذى جعل أهل هذه البلاد يسمونها أرض الآلهة ؛ فالآلهة الذين خلقوا كل بلاد الدنيا ينتمون جميعاً بغير استثناء إلى العصر الإلهى ، وجميعهم ولدوا فى اليابان ، فاليابان هى موطنهم الأول ، والعالم كله يعترف بصدق هـــذا النبأ ، فالكوريون هم أول من أتيح له أن يعرف هذه الحقيقة ثم انتشرت منهم تدريجاً حتى عمّت المعمورة بأسرها ، وآمن بها الناس أجمعون ... فلئن كانت البلاد الأخرى قد نشأت طبعاً بفعل قوة الآلهة الخالقة ، إلا أنها لم تكن وليدة « إيزاناجى » و « إيزانامى » ، ولا كانت المنشأ الذى ولدت فيه إلهة الشمس ، وهذا هو علة انحطاطهم عنا »[١٢٣] .

هؤلاء هم الناس ، وتلك هى الآراء ، التى كونت حركة « سونوجواى » ومرماها أن « تسمو بالإمبراطور ، وأن تطرد الأجانب الهمج » ؛ فمكنت هذه الحركة إبان القرن التاسع عشر للشعر اليابانى أن يطيح بسلطة الحكام العسكريين ؛ وأن يعيد السلطان والسيادة « للبيت الإلهى » ، ثم أخذت هذه الحركة تلعب دوراً نشيطاً فى القرن العشرين ، إذ أخذت تغذى تلك الوطنية المستقلة التى لن تطمئن وترضى إلا إذا بسط « ابن السماء » سلطانه على ملايين الناس فى بلاد الشرق التى تعود ، إلى بعثها ، متكاثرة بخصوبة نسلها .

الباب الثلاثون

الفكر والفن فى اليابان القديمة

الفصل الأول

اللغة والتعليم

اللغة – الكتابة – التعليم

كان اليابانيون قد استعاروا طرائق الكتابة وأساليب التعليم من أولئك الصينيين الذين جعلوا يتهمونهم بالهمجية كما رأيت ؛ لكن اللغة كانت يابانية خالصة ، وأرجح الظن أنها كانت لغة منغولية قريبة الشبه باللغة الكورية ، لكنها لم تكن مشتقة من اللغة الكورية أو غيرها مما نعرف من لغات ، اشتقاقاً يقوم على صحته البرهان القاطع واللغة اليابانية تختلف عن اللغة الصينية بنوع خاص فى كثرة مقاطعها واتصال أجزائها رغم بساطتها ؛ فليس فيها أحرف حلقية ولا أحرف تخرج مع هواء التنفس ولا سواكن فى أواخر الكلمات (ما عدا حرف ن) وتكاد كل حروف المد فيها أن تكون منغّمة طويلة ، ونحوها كذلك طبيعى وسهل ، فقد استغنت فى الأسماء عن التمييز العددى بين المفرد والجمع ، كما استغنت عن التمييز الجنسى بين المذكر والمؤنث ؛ كذلك استغنت فى الصفات عن درجات التفضيل ، وفى الأمثال استغنت عن التصاريف التى تدل على ضمير من قام بالفعل ؛ وضمائر المتكلم والمخاطب والغائب فيها قليلة العدد ، وليس فيها أسماء للوصل على الإطلاق ؛ لكنها من جهة أخرى تحتوى على تصاريف تتغير بها الصفات والأفعال تبعاً للنفى والصيغة

الفعل فى حالة الأمر مثلا أو غيره ، وهم يستعملون بدل أحرف الجر التى تسبق الكلمات المجرورة ، أحرفاً تأتى بعد الكلمات لتحدد المقطع الأخير من الكلمة ، وفى ذلك ما فيه من مشقة وعناء ، وحلت عندهم عبارات تكريمية معقدة ، مثل « خادمك المطيع » و « سعادتكم » محل ضمائر المتكلم والمخاطب.

وقد استغنت اللغة – فيما يظهر – حتى عن الكتابة ، إلى أن جاءها الكوريون والصينيون بهذا الفن فى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح ، ومنذ ذلك الحين ، اكتفى اليابانيون مدى مئات من السنين بطريقة الكتابة التى شاعت فى « المملكة الوسطى » ليبعدوا بها عن كلامهم الذى يشبه فى جماله لغة الإيطاليين ؛ ولما كان حتما عليهم أن يستخدموا حرفاً كاملا من حروف الخط الصينى ليدل على كل مقطع من كل كلمة يابانية ، فقد أصبحت الكتابة اليابانية فى عصر « نارا » أعسر ضروب الكتابة التى عرفها الإنسان تقريباً ؛ ثم حدث فى القرن التاسع أن سن قانون يعمل على الاقتصاد فى هذا الاتجاه ، بأن يحدد كثيراً من الإشكالات اللغوية ، فأراح هذا القانون أهل اليابان بما قدمه إليهم من صور الكتابة المبسطة ، إذ قدم إليهم صورتين كل منهما يستعمل حرفاً صينياً – بعد اختصاره فى صورة خطية منحنية – ليمثل مقطعاً من المقاطع السبعة والأربعين التى منها يتألف الكلام المنطوق عند اليابانيين ؛ وهذه الأشكال التى تمثل السبعة والأربعين مقطعاً ، حلت عندهم محل أحرف الهجاء(*) ولما كان شطر كبير من الأدب اليابانى مكتوباً بالصينية ، ومعظم بقيته ليس مكتوباً بالكتابة المقطعية الشائعة ، بل هو مزيج من الأحرف الصينية وأحرف الهجاء اليابانية ، كان من المتعذر إلا على القليلين من العلماء الغربيين أن يتمكنوا من الأدب اليابانى فى أصوله ؛ فنتج عن ذلك أن أصبح علمنا بالأدب اليابانى

(*) بسط الخط الكاتاكانى هذه الرموز المقطعية فجعلها خطوطاً مستقيمة كالتى تراها فى بعض حروف الطباعة وفى كتابة الإعلانات ، وفى اللافتات المضاءة فى اليابان الحديثة(٢) .

لا يتجاوز قطعاً متناثرة من هنا وهناك ، ولذا فهو علم يخدعنا عن الأصل ، ويستحيل أن يكون حكمنا على ذلك الأدب ذا قيمة كبيرة ، ولما وجد اليسوعيون أن حوائل اللغة تقف فى وجوههم سدوداً منيعة ، قرروا أن لغة تلك الجزر قد صاغها الشيطان ليمنع نشر تعاليم الكتاب المقدس (الإنجيل) فى بلاد اليابان(*) [2] .

لبثت الكتابة أمداً طويلا بمثابة الترف يستمتع به أبناء الطبقات الرفيعة ، ولم يبذل أى مجهود إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى سبيل نشرها بين طبقات الشعب ؛ فى عصر « كيوتو » أقام الأغنياء مدارس لأبنائهم ، كما أنشأ الإمبراطوران « تنشى » و « مومو » فى بداية القرن الثامن فى كيوتو ، أول جامعة يابانية ؛ ثم نشأت مجموعة من المدارس الإقليمية شيئاً فشيئاً ، تحت رقابة الحكومة ، كان من حق متخرجيها أن يلتحقوا بالجامعة ، ثم كان من حق من يخرج فى الجامعة بعد اجتياز الامتحان المطلوب ، أن يشغل مناصب الدولة ؛ لكن جاءت الحرب الأهلية فى الشطر الأول من العهد الإقطاعى ، فأوقفت هذا التقدم فى ميدان التعلم ؛ وأهملت اليابان فنون العقل حتى أسعفتها الحكومة العسكرية التى قامت عليها أسرة « توكوجاوا » بأن أعادت السلام وشجعت العلم والأدب ، وقد عدها « أيياسو » سبة فظيعة أن يجد تسعين فى كل مائة من طائفة « السيافين » لا يعرفون القراءة أو الكتابة[5] وفى سنة ١٦٣٠ ، أنشأ

(*) جاءت الطباعة — كما جاءت الكتابة — من الصين ، باعتبارها جزءاً من التراث البوذى ؛ وأقدم ما بقى لنا من أمثلة الطباعة فى العالم ، طلاسم بوذية طبعت بأحرف ثابتة بأمر الإمبراطورة « شوتوكوا » فى سنة ٧٧ ميلادية[3] ثم جاءت الأحرف الممكن تحريكها من كوريا حول عام ١٥٩٦ ، لكن كثرة النفقات التى يقتضيها طبع لغة لم تزل مؤلفة من آلاف الأحرف ، حال دون انتشار استعمال تلك الأحرف المتحركة ، حتى كانت النهضة (سنة ١٨٥٨) التى فتحت الأبواب للنفوذ الأوروبى وإلى يومنا هذا ، ترى الجريدة اليابانية تتطلب مجموعة من بضعة آلاف من الأحرف[4] ورغم هذه الصعاب ، فإن الطباعة اليابانية من أجمل ضروب الطباعة فى عصرنا هذا .

هياشى رازان » فى « ييدو » مدرسة تخرج المعلمين فى إداردة البلاد وفى
فلسفة الكونفوشيوسية ، ولقد تطورت هذه المدرسة فيما بعد. وأصبحت هى
جامعة طوكيو ؛ وكذلك أسس « كومازاوا » سنة ١٦٦٦ فى « شيزوتانى » أول
كلية فى الأقاليم ، وأجازت الحكومة للمعلمين أن يلبسوا السيوف ، فينافسوا
طائفة « السيافين » فى منزلتهم الاجتماعية ، وبهذا شجعت طلاب العلم والباحثين
الكهنة أن يقيموا مدارس خاصة فى المنازل والمعابد لتعلم الناس تعليما أولياً ؛
بلغ هذا الضرب من المدارس ثمانمائة سنة ١٧٥٠ ، يتعلم فيها ما يقرب من
أربعين ألفاً من الطلاب ، وكانت كل هذه المعاهد من أجل أبناء « السيافين »
ما التجار والفلاحون ، فكان لا بد لهم أن يقنعوا بمحاضرات عامة ، ولم يكن
تعلم عن النساء على نحو منظم إلا الفتيات ؛ ولم يتسع التعليم بحيث يشمل الجميع
لا حين مست الضرورة ودعت الحاجة بتأثير الحياة الصناعية (٦) وهى فى
ذلك شبيهة بأوربا .

الفصل الثانى

الشـــعر

الـ « مانيوشو » – الـ « كوكنشو » – مميزات الشعر اليابانى –
أمثلة – لعبة الشعر – مقامرو الـ « هوكا »

أقدم ما وصل إلينا من الأدب اليابانى هو الشعر ، وأقدم الشعر اليابانى هو خير شعر اليابان إطلاقاً فى رأى أصحاب العلم من أهل اليابان أنفسهم ؛ ومن أقدم وأشهر الكتب اليابانية ، كتاب الـ « مانيوشيو » ومعناها « كتاب العشرة الآلاف ورقة » وهو عشرون مجلداً ، جمع فيها ناشران الكتاب أربعة آلاف وخمسمائة قصيدة ، نظمها الشعراء خلال الأربعة القرون السالفة ، وفيها تجد على الأخص شعر « هيتومارو » وشعر « أكاهيتو » وهما الشاعران الرئيسيان اللذان ازدهر فيها الشعر فى عصر « نارا » ومن شعر « هيتومارو » هذه الأسطر الموجزة التالية التى كتبها يرثى بها حبيبته حين ماتت وتصاعد الدخان من جثمانها المحترق إلى شعاب التلال :

أواه ؟ أهذه السحابة هى حبيبتى ؟
هذه السحابة التى تجوب فى الوهد العميق
الذى يتخلل جبل هاتسوزو المنعزل ؟

ولقد حاول الإمبراطور « دايجو » محاولة أخرى ليحفظ الشعر اليابانى ن أيدى الفناء ، فجمع ألفاً ومائة قصيدة نُظمت خلال القرن والنصف قرن الماضيين ؛ فجمعها فى ديوان مشترك أطلق عليه اسم « كوكنشو » ومعناها « قصائد قديمة وحديثة وكان مساعده الأيمن فى هذا العمل « تسورايوكى » الشاعر الظالم الذى كتب مقدمة للديوان ، هى لنا أمتع من المقطوعات التى جاء

لنا بها من ربة الشعر عندهم ، التى توجز القول إيجازاً – قال فى تلك المقدمة :

« الشعر فى اليابان كالبذرة ، تنبت من قلب الإنسان فتورق من اللغة أوراقاً لا حصر لعددها . . . ففى هذا العالم الملىء بالأشياء ، ترى الإنسان مجاهداً فى سبيل ألفاظ يعبر بها عن الانطباع الذى تركته المرئيات والمسموعات فى قلبه ... وهكذا حدث لقلب الإنسان أن يجد التعبير المنشود فى ألفاظ تمتعه وجدها فى جمال الزهر ، وفى إعجابه بتغريد الطير ، وفى حسن استقباله للضباب الذى يغسل بنداه سهول الأرض ، كما وجدها فى حزنه الذى شاطر به العطف على ندى الصباح السريع الزوال ... لقد اهتز الشعراء إلى قرض الشعر كلما رأوا البطاح بيضاء برذاذ الثلج الذى يتناثر من زهرات الكريز الساقطة فى أصباح الربيع ، أو سمعوا فى أمسيات الخريف حفيف الأوراق وهى تتساقط أو كلما رأوا مشاهد الأيام المؤلمة البشعة تنعكس أمام أعينهم على مرآة الحوادث عاماً بعد عام ... أو كلما أخذتهم الرعدة حينما رأوا قطرة الندى الزائلة ترتعش على الكلأ المزدان بلآلئه »[٨] .

لقد أجاد « تسورايوكى » التعبير عن الموضوع الذى لم يفتأ الشعر اليابانى يتناوله – وهو ما تبديه الطبيعة من أوجه وحالات ، ومن ازدهار وذبول ، الطبيعةُ فى تلك الجزر التى جعلتها البراكين مشهداً للروائع ، وجعلها المطر الغزير دائمة الإيناع ، وإن الشعراء فى اليابان ليمرحون فيما لم تلكه الألسن من جوانب الحقول والغابات والبحر – فصغار السمك تنثر الرذاذ وهى تتقلب فى مجارى الجبال ، والضفادع تقفز فجأة من البرك الساكنة ، الشطئان تخلو من المد والجزر والتلال تقطعها كِسَف الضباب الذى سكن بلا حراك ، وقطرة المطر تأوى كأنها الجواهر المكنونة فى ثنية نجم من أنجم الكلأ ، وكثيراً ما يمزج شعراء اليابان فى شعرهم بين أغانى الحب وأشعار عبادتهم للطبيعة النامية ، أو تراهم يرثون رثاء مراً لما يرونه فى الازدهار والحب والحياة من قصر الأمد ، والعجيب أن هذه الأمة التى تموج بالمقاتلين ، قلما تتغنى فى شعرها بالقتال ، بل تراهم لا يبثون الحماسة فى القلوب إلا بترانيم يترنمون بها

فيا بعد قليل ، وكانت الكثرة الغالبة من القصائد قصيرة بعد عهد « نارا » فهذه مجموعة « كوكنشو » التي تحتوى ألفاً ومائة قصيدة ، لا تجد لا خمساً منها فقط صيغت فى صورة الـ « تانكا » — وهى صورة تكون فيها القصيدة مؤلفة من خمسة أبيات ، أولها من خمسة مقاطع وثانيها من سبع ، ثالثها من خمس ، ورابعها من سبع ، وخامسها من سبع كذلك وليس فى هذه القصائد قافية ، ذلك لأن ألفاظ اللغة اليابانية كلها تقريباً تنتهى بحرف مد ، فلا تترك مجال الاختيار أمام الشاعر من الاتساع بحيث ينتقى مختلف القوافى ، وكذلك ليس فى شعرهم تفعيلات ولا نغم ولا مقدار معين من الكلمات فى البيت الواحد ، لكنك تجد فيه كثيراً من ألاعيب اللغة ، فتراهم مثلا يضيفون مقاطع فى أوائل الكلمات لا يكون لها معنى سوى ما تضيفه إلى الكلام من تنغيم ، ويستهلون قصائدهم بأبيات تعمل على تكملة الصورة أكثر مما تؤدى إلى تمام الفكرة ، ويربطون العبارات بألفاظ تحمل معنيين على نحو يثير فى القارئ الدهشة والانتباه ، ولقد خلع الزمن ثوباً من الجلال على أمثال هذه الألاعيب اللفظية عند اليابانيين ، كما هى الحال فى توافق اللفظ والمعنى وفى القافية عند الإنجليز ، وأشعارهم محببة لدى طبقات الشعب ، ومع ذلك فلا يؤدى ذلك بالشاعر إلى السوقية فى شعره ، بل الأمر على نقيض ذلك ، إذ تميل هذه القصائد الكلاسيكية إلى الارستقراطية فى فكرها ولفظها ، فلأنها ولدت فى جو تشيع فيه أبهة القصور ، تراها مصوغة صياغة روعى فيها الإحكام على نحو يكاد يجعل منها تعبيراً عن الأنفة والكبرياء ، وهذه القصائد تنشد كمال اللفظ والصياغة أكثر مما تبحث عن جدة المعنى ، وهى تكسب العاطفة أكثر مما تعبر عنها ، وهى فى كبريائها أرفع من أن تطنب القول وتطيل ، فلن تجد أرباب القلم فى أى بلد من بلاد الأرض سوى اليابان ، لهم ما لأدباء اليابان من تحفظ فى القول يعترفون به اعترافاً صريحاً ، فكأنما أراد شعراء اليابان أن يكفروا بتواضعهم فى القول عما زل فيه مؤرخوها من تهويل فى الفخر بأنفسهم ،

فيقول اليابانيون إنك إذا كتبت ثلاث صفحات عن الرياح الغربية ، زللت فى ثرثرة السوقة ، فالفنان الأصيل لا ينبغى له أن يفكر القارئ ، بل واجبه أن يغريه حتى يستثير فيه نشاط التفكير لنفسه ، فلابد للفنان أن يبحث وأن يجد صورة حسية جديدة تثير فى القارئ كل الأفكار وكل المشاعر التى يصر الشعر الغربى على بسطها فى تفصيلاتها ، فكل قصيدة عند اليابانى لا بد أن تكون سجلا هادئاً لوحى اللحظة التى كتبت فيها .

وعلى ذلك فإننا نضل سواء السبيل لو أننا بحثنا فى هذه الدواوين أو فى مجموعة المختارات التى تسمى « هيا كونن إشو » ومعناها « أشعار متفرقة لمائة شاعر » والتى هى شبيهة بالديوان الذى يجمع مختارات من الشعر الإنجليزى ويطلق عليه « الكنز الذهبي » — أقول إننا نضل سواء السبيل لو أننا بحثنا فى هذه المجموعات عن قصيدة فيها حماسة أو عن ملحمة فيها حروب ، أو عن مطولات غنائية ، فهؤلاء الشعراء إنما أرادوا أن يخلدوا أنفسهم بسطر واحد يقول الواحد منهم ، فهاهو ذا « سايجيوهوشى » قد فقد أعز أصدقائه ، وانقلب راهباً ووجد فى أضرحة « إيسى » ما كانت تنشده نفسه المتصوفة من عزاء ، فراح يقرض الشعر فى عزيزه الفقيد ، لكنه لم يكتب قصيدة مثل « أدونيس » أو حتى « ليسيداس » (وهما قصيدتان من الشعر الإنجليزى) بل اكتفى بهذه الأسطر البسيطة :

ما هذا الذى
يسكن هاهنا
لست أدرى
لكن قلبى ملىء بنشوة الرضى
والدموع تنهمر من عينى[9]

ولما فقدت « السيدة كاجا نوشيو » زوجها لم تكتب فيه سوى هذه السطور :

إن كل ما يبدو من أشياء
ليست سوى
حلم يطوف بحالم
إنى لأنام ... وإنى لأستيقظ ...
فما أفسح السرير بغير زوج فى جوارى[10]

وبعدئذ فقدت ابنها ، فأضافت إلى القصيدة بيتين آخرين :

كم طاف اليوم
هذا الباسل الذى يقتنص اليعاسيب[11]

وبات نظم المقطوعات الشعرية (ويسمونها تانكات) لعبة أرستقراطية شاعت فى الدوائر الإمبراطورية فى « نارا » و « كيوتو » حتى ليستطيع الناظم أن يشترى عفة المرأة بواحد وثلاثين مقطعاً من الشعر يجيد صياغتها ، كما كانت عفة المرأة تباع فى الهند القديمة بفيل[12] ، وكان من المألوف أن يحيى الإمبراطور ضيوفه بكلمات يعطيها لهم مما يصلح لصياغة الشعر[13] ، ونرى فى أدب ذلك العصر إشارات ترد هنا وهناك ، تدل على أن جماعة من الناس يتطارحون الشعر أو ينشدونه وهم سائرون فى الطريق[14] وكان الإمبراطور — فى أوج العصر الهيوى — ينظم مباريات فى الشعر يشترك فيها ما يقرب من ألف وخمسمائة شاعر يتنافسون أمام محكمين من العلماء ، ليحكموا أيهم أفحل فى صياغة الموجزات الشعرية ، بل أنشئ فى سنة ٩٥١ مكتب خاص للشعر ، يشرف على تنظيم هذه المباريات ، والقصائد الرابحة فى كل مباراة تحفظ فى دار المحفوظات .

وجاء القرن السادس عشر ، فأحس الشعر اليابانى عندئذ أنه يسرف فى طول القصائد ، وصمم على تقصير « التانكات » — وكانت « التانكا »

فى الأصل تكملة يضيفها شخص إلى قصيدة بدأها شخص آخر - فأصبحت بعد التقصير ما يسمونه « هوكو » أى « العبارة الواحدة » تتألف من ثلاثة أسطر تتكون أولها من خمسة مقاطع ، وثانيها من سبعة ، وثالثها من خمسة ، أى أن مجموعة المقاطع تكون سبعة عشر مقطعاً ، وكان نظم القصائد من نوع « الهوكو » هو البدْع الشائع فى عصر « جنروكو » (١٦٨٨ - ١٧٠٤) ، ثم بات البدع عندهم شغفاً بلغ حد الهوس ، ذلك لأن الشعب اليابانى شبيه بالشعب الأمريكى فى شدة حساسيته العاطفية العقلية التى تسبب سرعة التقلب فى الأنماط الفكرية ، وكنت ترى الرجال والنساء ، والتجار والجند ، والصناع والفلاحين ، يهملون شئون الحياة اليومية ليشتغلوا بصياغة شعرية موجزة من نوع « الهوكو » يصوغونها فى لحظة حين يُطلب إليهم ذلك ، ولما كان اليابانيون مولعين بالمقامرة فقد راحوا يراهنون بمبالغ جسيمة من المال فى مباريات تقام لنظم قصائد « الهوكو » حتى لقد خَصَّصَ بعض المغامرين فى ميدان الأعمال أنفسهم لإقامة أمثال هذه المباريات يجعلونها مرتزقاً لهم ، فكانوا يحشدون كل يوم آلاف الناس المعجبين بهذا الضرب من التنافس ، ولذلك اضطرت الحكومة آخر الأمر أن تقاوم هذه الحلبات الشعرية ، وأن تمنع هذا الفن المأجور الجديد[١٥] ، وأنبغُ من أجاد الشعر من نوع الهوكو هو « ماتسوراباشو » (١٦٤٣ - ٩٤) الذى كان مولده - فى رأى يونى نوجشى - « أعظم حادثة فى تاريخ اليابان »[١٦] ، وكان « باشو » هـذا سيافاً ناشئاً ، مات مولاه وأستاذه ، فكان لموته أعمق الأثر فى نفسه بحيث اعتزل حياة القصر ، وزهد فى لذائذ الجسد جميعاً ، وراح يضرب فى فجاج الأرض على غير هدى ، متفكراً ، معلماً ، وعبر عن فلسفته الهادئة فى نتف من شعر الطبيعة الذى ينزل من ذوّاقة الأدب فى اليابان منزلة رفيعة لأنه يضرب أروع الأمثلة للكلام كيف يوحى بالمعانى رغم إيجازه الشديد ، ومن قوله :

البركة القديمة
وصوت الضفدعة وهى تثب فى الماء

ومن قوله أيضاً :

ساق من حشيش حطّ عليه
اليعسوب محاولا أن يضيئه[١٧] ؟

الفصل الثالث

النـــثر

(١) القصص

السيدة موراساكى – قصة جنچى – امتيازها – القصص اليابانى فى العصر المتأخر – كاتب فكه

لقد كانت القصائد اليابانية أشد إيجازاً من أن تصادف إعجاباً عند العقل الغربى ، فلنا أن نعزى أنفسنا بالقصة اليابانية ، إذ قد تبلغ روائع القصص عندهم عشرين جزءاً ، بل قد تبلغ أحياناً ثلاثين[١٨] ، وأرفع هذه القصص مكانة هى قصة « جنچى مونوجاتارى » (ومعناها الحرفى والصحيح هو ثرثرة تدور حول جنچى ») فهذه القصة فى إحدى طبعاتها تملأ أربعة آلاف ومائتين وأربعاً وثلاثين صفحة[١٩] ، وألفت هذه القصة الممتعة حوالى سنة ١٠٠١ ميلادية ، ألفتها « السيدة موراساكى نوشيكيبو » وهى من قبيلة فوچيوارا العريقة ، وقد تزوجت من رجل من هذه القبيلة عينها ، لكنه مات عنها فخلفها أرملة بعد الزواج بأربعة أعوام ، فجعلت تُسَرِّى عن نفسها بتأليف قصة تاريخية فى أربعة وخمسين جزءاً ، وبعد أن استنفدت كل ما كان لديها من ورق ، سرقت أوراق « السُّتْرات » البوذية المقدسة من معابدها ، واستخدمتها ورقاً لمخطوط قصتها[٢٠] ، فحتى الورق كان يوماً ضرباً من الترف .

وبطل القصة ابن لإمبراطور أنجبه من أقرب محظياته إلى نفسه ، وهى « اكيريتسوبو » ، وهى من روعة الجمال بحيث أثارت الغيرة فى صدور سائر المحظيات جميعاً ، وجعل هؤلاء يغظنها حتى قضين على حياتها غيظاً ، فاقرأ كيف تصف الكاتبة « موراساكى » الإمبراطور بأنه لا يجد فى موتها ما يعزيه ،

ولعل الكاتبة فى هذا قد أسرفت فى تقديرها لمدى استطاعة الرجل أن يخلص فى حبه ، قالت :

« وكرت الأعوام ، لكن الإمبراطور لم ينس فقيدته ، وعلى الرغم مَن كثرة النساء اللائى جئ بهن له فى القصر لعلهن يثرن اهتمامه ، فقد أغضى عنهن جميعاً ، مؤمناً بأن العالم كله ليس فيه امرأة واحدة تشبه فقيدته ... ولم ينفك يشكو من القدر الذى لم يسمح لهما معاً بأن يفيا بالعهد الذى كانا يكررانه كلما أصبح صباح أو أمسى مساء ، وهو أن تكون حياتهما كحياة الطائرين التوأمين اللذين يشتركان فى جناح واحد ، أو كحياة الشجرتين التوأمتين اللتين تشتركان فى غصن واحد »[٢١] .

وكبر « جنجى » وأصبح أميراً فاتناً ، له من وسامة الشكل أكثر مما له من استقامة الأخلاق ، فجعل يتنقل من غانية إلى غانية تنقل « توم چونز » إلا أنه قد بذ فى تنقله ذلك البطل المعروف فى أنه لم يفرق بين ذكر وأنثى ، فهو يمثل فكرة المرأة عن الرجل — كله عاطفة وكله إغراء ، دائم التفكير ودائم الحب لهذه المرأة أو لتلك ؛ وكان « جنجى » أحياناً « إذا ما ألمت به الملمات ، يعود إلى بيت زوجته »[٢٢] ؛

وترى الكاتبة « السيدة موراساكى » تقص لنا مغامرته بالتفصيل على نحو تحس فيه بفرحها برواية قصته ، ملتمسة له ولنفسها العذر التماساً رقيقاً :

« إن الأمير الشاب كان يعدُّ مهملا لواجبه إهمالا لا شك فيه، إذا لم يكن قد أسرف فى « فلتاته » الكثيرة ، وإن كل إنسان لا يسعه إلا أن يعد سلوكه هذا طبيعياً لا غبار عليه ، حتى لو كان سلوكاً يعاب على عامة الناس ... إننى فى الحقيقة لأكره أن أقص بالتفصيل أموراً قد تحوط هو نفسه كل الاحتياط فى إخفائها ، لكنى سأقص هذه التفصيلات ، لأننى أعلم أنك لو وجدتنى قد حذفت شيئاً ، فستقول : لماذا ؟ ألأن المفروض فيه أنه ابن إمبراطور ،

اضطرت إلى ستر سلوكه بستار جميل ، وذلك بحذف كل نقائصه ، وستقول إن ما أكتبه ليس تاريخاً ، والقصة ملفقة أريد بها التأثير على الأجيال التالية تأثيراً يخدعهم عن الحقيقة ، والقصة كما هى ستجعلنى فى أعين الناس ناقلة لأنباء الدعارة ، لكنى لا حيلة فى ذلك » [٢٣] .

ويمرض « جنچى » خلال مغامراته الغرامية ، فيندم على مغامراته تلك ، ويزور ديراً ليرتد إلى حظيرة التقوى على يدى كاهن ، لكنه فى الدير يلتقى بأميرة جميلة (يأبى تواضع الكاتبة إلا أن تسميها باسمها هى ، موراساكى) فتشغله تلك الأميرة حتى ليتعذر عليه أن يتابع الكاهن وهو ينحو إليه باللوم على خطاياه :

« بدأ الكاهن يقص القصص عن زوال هذه الحياة الدنيا وعن الجزاء فى الحياة الآخرة ، ولقد ارتاع جنچى حين تمثل له فداحة خطاياه التى اقترفها ، إنه لعذاب أليم أن يعلم أن هذه الخطايا ستظل واخزة لضميره ما بقى حيا فى هذه الدنيا ، فما بالك بحياة أخرى ستتلو هذه ، فياله من عقاب شديد ذلك الذى ينتظره فى مستقبله ! وكلما قال الكاهن شيئاً من هذا ، أخذ جنچى يفكر فى تعاسته ، ألا ما أجملها فكرة أن يرتد راهباً وأن يقيم فى مكان كهذا ! ... لكن سرعان ما استدارت أفكاره ناحية الوجه الجميل الذى كان قد رآه ذلك الأصيل واشتاق أن يعرف عن تلك المرأة شيئاً فسأل الكاهن : من ذا يسكن معك ها هنا [٢٤] ؟ » .

وتعاون الكاتبة المؤلفة بطلها جنچى على موت زوجته فى الولادة ، بحيث أتيح له أن يخلى مكان الصدارة فى بيته لأميرته الجديدة « موراساكى » (*) .

(*) إن كانت هذه السطور ليأسف أن يحول قصر الحياة بينه وبين المضى فى قراءة هذه القصة لكنه اضطر أن يكتفى بالجزء الأول من الأجزاء الأربعة التى نقل فيها « أرثر ويلى » قصة موراساكى نقلا دقيقاً .

وربما كان جمال الترجمة لهذا الكتاب هو الذى أضفى عليه هذه الروعة التى يمتاز بها من سائر الآيات الأدبية اليابانية التى ترجمت إلى الإنجليزية ، ويجوز أن يكون مترجمه – وهو مستر ويلى – قد فاق الأصلَ بترجمته كما هى الحال مع فتزوجرولد (فى ترجمته لرباعيات الخيام) ، فإذا ما تناسينا تشريعنا الخلقى برهة – أثناء قراءة هذا الكتاب – وسايرنا حوادث هذه القصة التى تجعل الرجال والنساء « يتلاقحون كما يتلاقح الذباب فى الهواء » – على حد تعبير وردزورث فى ولهلم مايستر – لوجدنا فى « قصة جنچى » أروع لمحة فى مستطاعنا اليوم ، مما يتيح لنا رؤية ألوان الجمال المخبوء فى الأدب اليابانى ، فإن كاتبته « موراساكى قد كتبته بأسلوب طبيعى سلس ، سرعان ما يجعل موضوعها مادة حديثه مع أصدقائه ، فالرجال والنساء والأطفال بصفة خاصة ، الذين يحيون على صفحات قصتها الطويلة ينبضون جميعاً بالحياة الصحيحة ، والعالم الذى تصفه مصطبغ بصبغة الحياة الحقيقية التى نعيشها ونراها(*) ، على الرغم من أنها كادت تحصر نفسها فى القصور الإمبراطورية والدور الفخمة ، إن الحياة التى تصفها هى حياة العلية التى لا تهتم كثيراً بما تتكلفه الحياة وما يتكلفه الحب من نفقات ، لكنها فى حدود تلك الحياة ، تراها تؤدى الوصف أداء طبيعياً دون أن تضطر

(*) إن السيدة الكاتبة لتدخل بقصتها حتى فى البيوت العادية دخول الفاهمة لدقائقها ، وهى تجعل « أوكانو كامى » – وذلك حوالى سنة ١٠٠٠ – تعبر عن الرأى الحديث الذى يطالب للمرأة بحق التعليم : « وهناك كذلك الزوجة النشيطة التى – على الرغم من مظهرها – تلف شعرها وراء أذنها ، وتكرس نفسها تكريساً تاما لدقائق حياتنا المنزلية ، والزوج فى غدواته وروحاته حول العالم ، لا بد أن يرى وأن يسمع أشياء كثيرة لا يستطيع أن يتحدث فيها لمن لا يعرفهم ، لكنه يغتبط إذ يتحدث فيها إلى زوجته الحبيبة التى يمكنها أن تصغى إلى ما يقوله لها إصغاء المشاطرة لشعوره الفاهمة لعقله ، والتى يمكنها أن تضحك معه إذا ضحك ، وتبكى إذا بكى ، وكذلك كثيراً ما يحدث من أحداث السياسة ما يغمه غماً أو يمتعه متعة كبرى وعندئذ تراه ينفرد فى جلسته مشتاقاً أن يتحدث فى الأمر إلى صديق ، فلا تزيد زوجته على قولها له : « ماذا بك » ثم لا تأبه له ، فيكون انصرافها هذا عنه أكبر ما يجىء إليه »(٢٥) .

إلى الاستعانة فى قصتها بشواذ الشخصيات والحوادث لتثير بها اهتمام القارئ؛ فالأمر هو كما جاء فى العبارة التالية على لسان «أومانو كامى» عن بعض الرسامين الواقعيين ، معبرة عن رأى الكاتبة «السيدة موراساكى» :

«إن التلال والأنهار كما هى فى صورها المألوفة التى تراها الأعين ، والمنازل كما تقع عليها أينما سرت ، بكل ما لهذه وتلك من جمال حقيقى فى التناسق والشكل – لو أنك رسمت مناظر كهذه رسما هادئاً ، أو بينت ما يكمن وراء حاجز حبيب إلى قلبك ، معزول عن العالم مستتر عن الأبصار ، أو رسمت أشجاراً كثيفة على تل وطىء لا يشمخ بأنفه ، أقول لو رسمت هذا كله بالعناية اللازمة من حيث سلامة التكوين والتناسب والحياة – لكانت أمثال هذه الرسوم مما يتطلب أدق الحذق من أنبغ الأعلام ، وهى هى التى توقع الفنان العادى فى ألوف الأخطاء »[٢٦] .

ولا أحسب الأدب اليابانى بعدئذ قد أنتج فى القصة ما يوازى فى روعته قصة «جنجى» أو ما يساوى هذه القصة فى مبلغ تأثيرها على تطور اللغة تطوراً أدبياً[٢٧] ؛ نعم إن القرن الثامن عشر قد بلغ فى أدب القصة أوجاً ثانياً ، ووفق كثيرون من أدباء القصة فى التفوق على «السيدة موراساكى» لكنهم تفوقوا عليها فى طول ما رووا من حكايات أو فى مدى ما أباحوه لأنفسهم من تصوير للدعارة[٢٨] ، من ذلك مثلا كتاب «القصص التهذيبى» الذى نشره «سانتو كيُودِنْ» سنة ١٧٩١ ، لكنه كان بعيداً عن الغاية التى زعمها لنفسه – غاية التهذيب – بعداً حدا بأولى الأمر أن ينفذوا القانون الذى يحرم الفحش ، فيحكموا على الكاتب بأن تغل يداه خمسين يوماً وهو فى داره ، وكان «سانتو» هذا يتاجر فى أكياس الطباق والأدوية «البلدية» وتزوج من عاهرة ، وكسب الشهرة أول ماكسبها بكتاب أخرجه عن بيوت الدعارة فى لوكيو ، وبعدئذ أخذ يهذب من أخلاق قلمه شيئاً فشيئاً ، لكنه لم يقتلع بهذا التهذيب

من جمهور القراء ما تعوده من إقبال على شراء كتبه إقبالا عظيما ، ولما وجد كل هذا التشجيع ، خرج على كل السوابق المعروفة فى تاريخ القصص اليابانى فطالب الناشرين بدفع شيء من المال ثمناً لكتبه ، إذ يظهر أن سابقيه من المؤلفين كانوا يكتفون من الأجر بدعوة يدعونها على عشاء ، وقد كان معظم كتاب القصة من الداعرين الفقراء ، الذين أنزلهم المجتمع مع الممثلين منزلة هى أدنى ما تكون المنزلة امتهانا[٢٩] ، وظهر قصصى آخر هو «كيوكوتى باكين» (١٧٦٧ – ١٨٤٨) كان أقدر فناً فى قصصه من «كيودن» لكنه أقل استثارة لاهتمام قرائه ، وهو يماثل «سْكُتْ» وديماس» فى صبه للتاريخ فى قالب قصصى يفيض بالحياة ، ولقد بلغ إعجاب قرائه به فى نهاية الأمر مبلغاً جعله يمط إحدى قصصه فى مائة جزء ، وكان « هوكوساى » يوضح قصص «باكين» بالرسوم ، ولبثا فى العمل زميلين حتى نشب بينهما الخلاف – وما داما من أبناء عبقر فلا بد من خلاف – ثم افترقا .

وأمرَحُ هؤلاء القصاصين جميعاً هو « چيپنشا إيكو » (مات سنة ١٨٣١) وهو فى اليابان يعادل « لىساج » و « دكنز » ؛ « بدأ « إيكو » حياته الراشدة بثلاث زيجات ، فشل منها اثنتان بسبب أن حَمَوَيْه فى كلتا الحالين لم يفهما شذوذ مسلكه الناشئ عن اشتغاله بالأدب ؛ فقد رضى بالفقر متفكهاً ، لم يكن فى بيته أثاث . فعلق على جدرانه العارية صوراً للأثاث الذى كان يشتريه لو استطاع ، وفى أيام المواسم الدينية كان يضحى للآلهة بصور فيها رسوم لخير ما يمكن تقديمه من قرابين وقدم له الناس حوضاً للاستحمام – رغبة منهم فى التخلص من قذارته – فحمله على رأسه مقلوباً ، وراح يوقع به من اعترض طريقه من المارة معلقاً بالنكات فى بداهة سريعة على كل من وقع ؛ ولما جاءه الناشر فى زيارة إلى داره ، دعاه أن يستحم ؛ وقبل الناشر الدعوة ، فلبس صاحبنا ثياب الناشر أثناء استحمامه وزار كل من أراد زيارته فى ذلك اليوم

ـ وكان رأس السنة الجديدة ــ وهو فى تلك الثياب الفاخرة ، وآيته الأدبية هى قصة « هيزاكورياچ » التى نشرها فى اثنى عشر جزءاً فى الفترة التى تمتد من ١٨٠٢ إلى ١٨٢٢ ، وهى تحكى قصة تهز قارئها هزا بالضحك ، على نحو ما تراه فى قصة « مجموعة مذكرات نادى پكْوِك » (للكاتب الإنجليزى دكنز) ؛ ويقول « آستن » عن هذه القصة إنها أفكه وأمتع كتاب فى اللغة اليابانية كلها[٣٠] ، ولما كان « إيكو » فى فراش موته ، التمس من تلاميذه أن يضعوا على جثمانه قبل حرقه ــ وكان إحراق الموتى مألوفاً فى اليابان عندئذ ــ بضعة لفائف أعطاها إياهم فى وقار وجد ، ولما كان يوم جنازته ، وفرغ المصلون من تلاوة الدعوات ، وأشعِل الحطب الذى أعد لإحراق جثمانه ، تبين أن تلك اللفائف كانت تحتوى على مفرقعات نارية أخذت تطقطق أثناء حرق الجثة طقطقة كلها مرح ونشوة ؛ وهكذا وفى « إيكو » بالعهد الذى قطعه على نفسه وهو شاب ، بأن يجعل حياته كلها مفاجآت حتى بعد موته .

(٢) التاريخ

المؤرخون – آرى هاكوسيكى

لن تجد فى كتابة التاريخ عند اليابانين ما يمتعك بمثل ما يمتعك فى أدبهم القصصى ، على الرغم من أنه يتعذر عليك أن تفرق عندهم بين التاريخ والقصة ، وأقدم كتاب باق فى الأدب اليابانى هو « كوچيكى » ومعناها « ثبت بالآثار القديمة » وهو مكتوب بالأحرف الصينية بقلم « باسومارو » سنة ٧١٢ ، وفى هذا الكتاب كثيراً ما تحل الأساطير محل الحقائق ، حتى ليحتاج القارئ أن يمعن فى إخلاصه للعقيدة الشنتوية لكى يقبل هذه الأساطير على أنها تاريخ[٣١] ثم رأت الحكومة بعد « الإصلاح العظيم » فى سنة ٦٤٥ أن الحكمة تقتضى أن تروى قصة الماضى رواية جديدة ، فظهر تاريخ جديد حول سنة ٧٢٠

عنوانه « ينهونچى » ومعناها « نيپون » وهو مكتوب باللغة الصينية ، ويزدان بفقرات سرقها الكاتب سرقة جريئة من الأدب الصينى ، وأحياناً أجراها على ألسنة أشخاص من اليابانيين القدماء ، دون أن يأبه مطلقاً للترتيب الزمنى للحوادث ؛ ومع ذلك فقد جاء الكتاب محاولة أكثر جداً فى روايته للحقائق من كتاب « كوچيكى » وكان هو بمثابة الأساس للكثرة الغالبة مما كتب بعدئذ من كتب فى التاريخ اليابانى القديم ، فمنذ ذلك الحين كتبت عدة كتب فى تاريخ اليابان كل منها يبزّ سابقه فى روحه الوطنية ، وقد كتب « كيتاباتاكى » كتاباً أسماه « چنتوشوتوكى » — ومعناها تاريخ التسلسل الحقيقى للملوك الإلهيين — وضعه على أساس هذه العقيدة المتواضعة الآتية ، التى أصبحت اليوم أمراً مألوفاً .

« إن ياماتو العظمى (أى اليابان) بلد إلهى ، فالسلف الإلهى لم يضع أساساً لبلد من بلاد الأرض سوى بلدنا ، وهو دون سائر البلاد قد لقى الرعاية من آلهة الشمس بحيث ولّت على أموره سلسلة طويلة من أبنائها ، ولن تجد لمثل هذا شبيهاً فى البلاد الأخرى ، ومن ثم سميت اليابان بالأرض الإلهية »[٣٢] .

وطبع هذا الكتاب أول ما طبع سنة ١٦٤٩ ، فكان بداية للحركة التى قصدت إلى استعادة الإيمان القديم والدولة القديمة ، وهما الجانبان اللذان بلغا أقصى حدودهما فى المناقشات الحامية التى أقامها « موتو — مورى » وشاءت الأيام أن يكون « متسو — كونى » — وهو حفيد « أيياسو » نفسه — هو الذى يتصدى لكتابة كتابه الذى أسماه « داى نيهونشى (ومعناها « التاريخ الأكبر لليابان » ١٨٥١) فأخرج به صورة من مائتين وأربعين جزءاً صور بها الماضى الذى ساد فيه الأباطرة وساد النظام الإقطاعى ، فكان هذا الكتاب بعدئذ من العوامل التى هيأت اليابانيين لخلع حكومة توكوجاوا العسكرية من مراكز السلطان .

وقد يكون « آراى هاكوسيكى » أعلم المؤرخين اليابانيين وأبعدهم عن الميل إلى الهوى ، فعلمه هو الذى ساد الحياة العقلية فى « بيدو » فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، وقد سخر « آراى » من اللاهوت الذى كان يأخذ به مبشرو المسيحية الأرثوذكسية ووصفه بأنه « ممعن فى صبيانيته »[٣٣] ، لكن جرأته قد حدت به كذلك أن يهزأ ببعض الأساطير التى ظنها أهل وطنه تاريخاً[٣٤] ، وكتابه العظيم » هانكامپو » — وهو تاريخ « لدايمو » يتألف من ثلاثين جزءاً — يعد من أعاجيب الروائع الأدبية ، لأنه — فيما يظهر — قد تم تأليفه فى أشهر قلائل ، على الرغم مما لا بد أن يكون قد اقتضاه من كثرة البحث[٣٥] ، وقد استمد آرى بعض علمه وطائفة من أحكامه من دراسته للفلاسفة الصينيين ، ويقال إنه لما جعل يحاضر فى الآداب الكونفوشيوسية ، كان الحاكم العسكرى « أينوبو » يستمع إليه فى إقبال وإجلال حتى لم يكن ليذب البعوض عن رأسه فى الصيف ، وكان فى الشتاء ينحو بوجهه جانباً إذا أراد أن يمسح الرشح عن أنفه احتراماً للمحاضر[٣٦] ، وكتب « آراى » ترجمة لحياته فصور أباه تصويراً جليلا رسم به المواطن اليابانى فى خير صورة له وأبسطها .

« إننى أعود بذاكرتى إلى أول لحظة بدأت عندها أتعمق الأمور إلى صميمها ، فأجد حياته الرتيبة اليومية لم تكن تختلف فى يوم عنها فى يوم آخر ، فما كان يفوته قط أن يستيقظ قبل شروق الشمس بساعة ، ثم يستحم بماء بارد ، ويصفف شعره بنفسه ، وإذا اشتد برد الشتاء تعرض عليه امرأته — وهى أمى — أن تعد له ماء ساخناً ، لكنه لم يكن يرضى بذلك ، لأنه لم يكن يريد أن يتعب الخدم ، فلما زاد عمره على السبعين ، وتقدمت أمى كذلك فى سنها ؛ وكان البرد يشتد إلى درجة لا يحتملانها ، كانا يستحضران فى غرفتهما موقداً وينامان وأقدامهما ممددة تجاهه ، وكان يوضع إبريق من الماء الساخن إلى جانب

المدفأة ، فيشرب منه أبي عند استيقاظه ، وكلاهما كان يقدس بوذا ، فكان أبي لايفوته قط– بعد أن يصفف شعره ويسوى ثيابه – أن يبدى علائم خشوعه لبوذا . . . وبعد أن يرتدى رداءه ، كان يجلس هادئاً فى انتظار تباشير الصباح ، وعندئذ يخرج إلى عمله الرسمى . . . إن أحداً لم يره قط وعلامات الغضب على وجهه ، ولست أذكر أبداً أنى رأيته يوماً – حتى إن ضحك – يستسلم للمرح الصاخب ، وأقل من ذلك حدوثاً أن تراه يسفل إلى الألفاظ الجارحة إذا ما شاءت له الظروف أن يؤنب أحداً ، وكان فى سمره لا يتكلم ما أمكنه السكوت ، كان رصيناً فى سلوكه ، فما رأيته قط جازعاً أو مضطرباً أو قلقاً . . . يحافظ على نظافة الغرفة التى كان يشغلها عادة ، ويعلق على الجدار صورة قديمة ، ويضع فى أصيص بعض زهرات من زهور الموسم ، وقد ينفق يومه ناظراً إليها ، كان قليل الرسم للصور يرسمها باللون الأسود على ورق أبيض ، لأنه لم يكن محباً للألوان الزاهية ، وإذا جادت صحته لم يطلب إلى الخادم أن يعينه فى شىء قط ، لأنه كان يعد كل شىء لنفسه بنفسه[٣٧] » .

(٣) المقالة

« السيدة سى شوناجون » – « كامونو – شومى »

كان « آرامى » كاتباً للمقالة كما كان مؤرخاً ، وله نتاج عظيم فى هذا اللون من الأدب (أدب المقالة) الذى ربما كان أمتع ضروب الأدب اليابانى جميعاً ، على أن الزعامة فى أدب المقالة – كما هى الحال فى القصة – كانت لامرأة ، فكتاب « صُوَر على الوسادة » (ماكورازوشى) الذى كتبته « السيدة سى شوناجون » يوضع عادة فى أعلى مراتب هذا الأدب ، كما أنه أول ما كتب فيه ، والسيدة الكاتبة قد نشأت فى نفس البلاط ونفس الجيل اللذين نشأت فيهما « السيدة

موراساكى » واختارت لقلمها الحياة المترفة الداعرة من حولها ، فراحت تصف تلك الحياة فى صور عابرة ، يستحيل علينا أن نلم بروعتها فى لغتها الأصلية إلا على سبيل التخمين ، مهتدين بما نراه باقياً فى الترجمة الإنجليزية لتلك الصور من آثار جمالها الفاتن ؛ والكاتبة من طائفة « فيوجيورا » وصعدت حتى أصبحت وصيفة الإمبراطورة ؛ فلما قضت الإمبراطورة نحبها ، توارت « السيدة سى » : فمن قائل إنها أوت إلى دير ، ومن قائل إنها انطوت فى ثنايا الفقر ؛ لكن كتابها ليس فيه ما يدل على صدق هذا القول أو ذاك ، وهى تنظر إلى الإباحية الخلقية فى عصرها ، بالعين المتساهلة التى عرف بها ذلك العصر ، ثم هى لا تنزل رجال الدين الماديين منزلة عالية من نفسها :

« إن الواعظ الدينى لا بد أن يكون وسيم المحيا ، إذ يسهل عليك عندئذ أن تحدج بعينيك فى وجهه ، وبغير ذلك يستحيل الانتفاع بحديثه ، لأن عينيك ستحومان هنا وهناك ، ويفوتك أن تصغى إلى قوله ؛ وإذن فالواعظون الدميمون تقع عليهم تبعة كبرى ... ولو كان رجال الوعظ يحيون فى عصر أنسب لهم من عصرنا ، لسرنى أن أحكم عليهم حكماً أقرب إلى صالحهم من حكمى عليهم الآن ؛ لكن الأمر كما أراه فى الواقع ، يدعونى إلى القول بأن خطاياهم أشنع فحشاً من أن تحتمل منا مجرد التفكير »[٣٨] .

ثم تضيف الكاتبة إلى ذلك قوائم صغيرة بما تحب وما تكره :

فالأشياء التى تبعث فى نفسها النشوة :

أن أعود إلى البيت من رحلة وقد امتلأت العربات حتى فاضت ؛

أن يكون حول العربة عدد كبير من المشاة الذين يخفرون الثيرة والعربات تسرع فى السير ؛

زورق نهرى يسبح على الماء .

الأسنان زينت بالسواد على نحو جميل ...
والأشياء التى تثير فى نفسها الكراهية :
غرفة مات فيها طفل
مدفأة انطفأت نارها
حوزى يكرهه ثور عربته
ولادة سلسلة متصلة من البنات فى بيت عالم ...

ومن الأشياء الممقوتة :

الناس الذين إذا قصصت عليهم قصة قاطعوك بقولهم : إننا نعرفها ثم يقولون القصة على صورة تختلف كل الاختلاف عما كنت تنوى أن تقوله ...

والرجل الذى تصادفه امرأة ، ويكون بينهما ود ، فيثنى على امرأة أخرى يعرفها ...
والضيف الذى يقص عليك قصة طويلة وأنت عجلان ...
شخير رجل تحب أن تخفيه ، والرجل ينام فى مكان لا شأن له به ..
البراغيث(٣٩) .

وليس ينافس هذه السيدة فى مكان الصدارة من أدب المقالة فى اليابان ، إلا « كامونو– شومى » ، الذى حُرِمَ خلافة أبيه فى حراسة الضريح الشنتوى « لكاموز » فى مدينة كيوتو ، فاعتنق البوذية حتى أصبح راهباً من رهبانها ؛ ولما بلغ من عمره عامه الخمسين ، اعتكف فى حديقة فى الجبل ، حيث انصرف إلى حياة التأمل ، وهناك كتب كتاباً يودع به الحياة الصاخبة ، وأسمى كتابه « هوچوكى » (١٢١٢) ومعناها « مدوّن الأقدام العشر المربعة » فبعد أن بيّن الصعاب والمضايقات التى يلاقيها الإنسان فى حياة المدنية ، ووصف

مجاعة سنة ١١٨١(*) أخذ يروى لنا كيف أقام لنفسه كوخاً مساحته عشرة أقدام مربعة وارتفاعه سبع أقدام ، واستقر فيه راضى النفس بفلسفة لا يعكر هدوءها شيء وزمالة هادئة لما يحيط به من كائنات الطبيعة ؛ ولا يسع الأمريكى الذى يقرؤه إلا أن يسمع فيه صوتاً شبيهاً بصوت « ثورو » وإن يكن صادراً من اليابان فى القرن الثالث عشر ؛ فالظاهر أن كل جيل لابد له من كاتب يدعو إلى معاشرة الطبيعة بمثل كتاب « بِركة وولدن » ..

(*) أسلفنا وصفها فى الفصل الثالث من الباب الثانى .

الفصل الرابع

المسرحية

المسرحيات « الغنائية » – خصائصها – المسرح الشعبى –
شيكسبير اليابان – خلاصة الرأى

وآخر ألوان الأدب ، وأعسرها فهماً علينا ، هى المسرحية اليابانية ؛ فما دمنا قد نشأنا فى جو من تقاليد المسرح الإنجليزى الذى يبدأ من رواية هنرى الرابع وينتهى برواية « مارية اسكتلندة » فكيف يمكن أن نعد آذاننا إعداداً يتقبل المسرحيات الغنائية اليابانية بما فيها من إطناب وحركات صامتة بالنسبة إلينا ؟ إنه لا بدلنا من نسيان شيكسپير والعودة إلى « إفريمان » بل والعودة إلى ما هو أبعد من ذلك فى الماضى ، إلى الأصول الدينية للمسرحية اليونانية والمسرحية الأوروبية الحديثة ؛ عندئذ نجد ما يعيننا على متابعة تطور التمثيل الصامت الشنتوى القديم ، والرقص الكهنوتى المسمى «كاجورا» ، حتى أصبح هذه الصورة التمثيلية الناطقة بالحوار ، التى تتألف منها المسرحية الغنائية عند اليابانيين ؛ ففى نحو القرن الرابع عشر أضاف الكهنة البوذيون أناشيد جوقية إلى التمثيل الطقوسى الصامت ، ثم أضافوا إلى ذلك شخصيات فردية ، ودبروا حبكه للمسرحية بحيث تفسح المجال أمام هذه الشخصيات فتفعل الأفعال كما تقول الكلام ، ومن ثم ولدت المسرحية[40] ؛

كانت هذه المسرحيات – مثل المسرحيات اليونانية – تُؤدَّى فى ثُلاثيات وكانوا يمثلون فى الفترات التى بين الفصول أحياناً ، ما يطلقون عليه « كيوجن» أى المهازل (أو التهريج) قاصدين بذلك أن يخففوا ويلطفوا من حدة العاطفة والفكر ؛ أما الجزء الأول الثلاثى المسرحى فقد كانوا يخصصونه لاسترضاء

الآلهة ، فكاد لا يزيد على تمثيل ديني صامت ؛ وأما الجزء الثانى فكان يؤدى بعدة مسرحية كاملة ، ويبتغون به طرد الأرواح الشريرة بتخويفها ؛ وأما الجزء الثالث فكان ألطف جواً ، يراد به تصوير جانب رائع من جوانب الطبيعة ، أو وجه ممتع من وجوه الحياة اليابانية(٤١) ؛ وكانت أسطر المسرحية تصاغ عادة فى صورة الشعر المرسل ، بحيث يتألف البيت الواحد من اثنى عشر مقطعاً ؛ وكان الممثلون ذوى منزلة اجتماعية حتى بين العلية ؛ فلا تزال بين أيدينا وثيقة تثبت أن « نوبونجا » و « هيديوشى » و « أيياسو » قد اشتركوا جميعاً كممثلين فى إحدى المسرحيات الغنائية حول سنة ١٨٥٠ (٤٢) ، وكان كل ممثل يلبس قناعاً منحوتاً من الخشب نحتاً فنياً دقيقاً يجعل هذه الأقنعة تحفة عند هواة الآثار الفنية فى عصرنا هذا ، وكانت مناظر المسرح قليلة ، إذ كانوا يعتمدون على الخيال القوى عند النظارة فى خلق البطانة التى يتم الفعل المسرحى فى جوها ؛ وأما الحكايات التى تمثل فمن أبسط الحكايات تأليفاً ، ولم يكن مجرى الرواية هو نقطة الاهتمام ؛ ومن أشيع تلك الروايات رواية تحكى عن « سياف » أصابه الفقر ، طرق بابه راهب جوال أراد الدفء ، فقطع له السياف أعز نباتاته ليوقد له بها ناراً ؛ وعندئذ تبين أن الراهب لم يكن إلا الوصى على العرش ، فأجزل العطاء للفارس ، وكما أننا فى الغرب لا نفتأ نختلف إلى المسرح مرة بعد مرة لنسمع مسرحية غنائية ، روايتها قديمة ، وربما كانت رواية سخيفة أيضاً ، فكذلك ترى أهل اليابان ، — حتى يومنا هذا — يبكون كلما شهدوا هذه الرواية التى يتكرر تمثيلها بغير انقطاع(٤٣) ، ذلك لأن براعة التمثيل تعيد لهذه الرواية فى كل مرة قوتها ومغزاها ؛ ولو قصد إلى المسرح متفرج متعجل عملى المقاييس ، فإنه قد يجد فى أمثال هذه الأغانى التى صبت فى قالب تمثيلى ، تسلية أكثر مما يجد فيها عظمة تأخذ عليه نفسه ، لكن اسمع ما يقوله فيها شاعر يابانى : « كم فى المسرحية الغنائية من عناصر

المأساة وعناصر الجمال ، ولطالما طاف برأسى خاطر ، هو أننا نؤدى خدمة جليلة لا شك فيها ، إذا نحن أحسنا تقديم مسرحيتنا الغنائية فى الغرب ، ولو فعلنا لنتج عن ذلك احتجاج شديد ضد المسرح الغربى ، إن ذلك لو تم كان بمثابة الإيحاء باتجاه جديد »[٤٤] — ومع ذلك فاليابان نفسها لم تنتج من هذا الضرب المسرحى شيئاً منذ القرن السابع عشر على الرغم من أنها تقوم بتمثيلها اليوم وتقبل عليها إقبالا شديداً .

إن تاريخ المسرحية فى معظم البلاد عبارة عن تحول تدريجى من سيادة الجوقة إلى سيادة دور يقوم به فرد من الأفراد — وعند هذه النقطة تنتهى مراحل التطور فى الكثرة الغالبة من الحالات التى يتم فيها هذا الانتقال ، ولما تقدم الفن المسرحى فى اليابان من حيث تقاليده وروعته ، خلق شخصيات محببة إلى الناس صارت هى القوة السائدة فى المسرحية ، وأخيراً قل شأن التمثيل الصامت والموضوعات الدينية ، وباتت المسرحية حرباً بين أفراد تملؤهم قوة الحياة وقوة الخيال ، وهكذا ظهر المسرح الشعبى فى اليابان الذى يطلق عليه « كابوكى شيباى » وأول مسرح من هذا القبيل الشعبى ظهر حول عام ١٦٠٠ أنشأته راهبة ملت جدران الدير ، فأقامت مسرحاً فى أوساكا وجعلت ترتزق بالرقص على ذلك المسرح[٤٥] ، وكان ظهور المرأة على المسرح — كما هى الحال فى انجلترا وفرنسا بمثابة الثورة واقتراف إثم محرم ، ولما كانت الطبقات العليا قد اجتنبت هذه المحرمات (اللهم إلا فى خفاء يؤمنها من الخطر) فقد أوشك الممثلون أن يصبحوا طبقة منبوذة ، ليس لهم حافز اجتماعى يدفعهم إلى صيانة مهنتهم من الدعارة والفساد ؛ واضطر الرجال أن يقوموا بأدوار النساء ، وذهبوا فى إتقان تقليد النساء إلى حد لم يستطيعوا عنده أن يخدعوا النظارة فحسب ، بل خدموا أنفسهم كذلك حتى لقد ظل كثير من هؤلاء الرجال الذين كانوا يمثلون أدوار النساء ، ظلوا نساء خارج المسرح[٤٦] وكان من عادة الممثلين أن يصبغوا وجوهم بألوان زاهية ، وربما يرجع ذلك

إلى خفوت الأضواء على المسرح ؛ كذلك كانوا يلبسون أردية ذات رسوم فاخرة لكي يدلوا بها على عظمة أدوارهم ، ثم لكي يرفعوا من قدر تلك الأدوار ؛ وغالباً ما كان يجلس خلف المسرح أو حوله أفراد أو جوقات ، تلقى الكلام المراد إلقاؤه ، وكان هؤلاء أحياناً هم الذين ينطقون بالكلام بينما يقصر الممثلون أنفسهم على الحركات المناسبة صامتين ؛ وأما النظارة فقد كانت تجلس على الأرضية المفروشة بالبُسُط ، أو فى مقصورات على الجانبين[٤٧] .

وأشهر الأسماء التى تصادفك فى المسرحية الشعبية فى اليابان هو « شيكاماتسو مُنْزايمون » (١٦٥٣ – ١٧٢٤) الذى يقرنه مواطنوه بشيكسبير وأما النقاد الإنجليز ، فتراهم يمقتون هذه المقارنة ، فيتهمون « شيكاماتسو » بالعنف والإسراف والمبالغة فى قوة اللفظ وبعد حبكاته عن الواقع ، إلا أنهم يعترفون له « بشىء من القوة والفخامة البدائيتين[٤٨] ، والظاهر أن التشابه تام ، فتلك المسرحيات الأجنبية بالنسبة لنا ، تبدو لنا مجرد مسرحيات غنائية لأنه إما أن يكون معناها أو تكون دقائقها اللغوية خافية علينا ، وقد يكون هذا نفسه هو وقع شيكسبير على رجل لا يستطيع أن يقدر جمال لغته أو يتابعه فى أفكاره ، وربما كان « شيكاماتسو » قد غالى فى جعل العشاق فى مسرحياته ينتحرون على المسرح اليكون انتحارهم بمثابة الذروة التى تعلو إليها حوادث القصة على نحو ما نرى فى رواية « روميو وچولييت » لكن قد يكون له فى ذلك هذا العذر ، وهو أن الانتحار فى الحياة اليابانية أوشك أن يكون من الشيوع بمثل ما كان على المسرح .

إن المؤرخ الأجنبى عن البلاد ، لا يسعه فى هذه الأمور إلا أن يسجل ، لا أن يصدر حكمه ، فالتمثيل اليابانى فى عينى مشاهد عابر يبدو أقل فى درجة الرقى والنضوج من التمثيل الأوربى ، ولكنه أكثر منه قوة ورفعاً لأفئدة

المشاهدين ؛ إن المسرحيات اليابانية قد تكون أكثر تمشياً في سذاجتها مع سواد الشعب ، لكنها أقل تعرضاً لعوامل الضعف التى تنشأ عن الصبغة العقلية السطحية ، من زميلاتها فى فرنسا وانجلترا وأمريكا اليوم ؛ والعكس صحيح ، وهو أن الشعر اليابانى يبدو لنا خفيفاً ميتاً ، مبالغاً فى رقته الأرستقراطية نحن الذين تعودت أذواقنا المقطوعات الغنائية التى تكاد تبلغ فى طولها طول الملاحم (مثل قصيدة Maud) كما تعودت أذواقنا الملاحم التى يبلغ الملل من قراءتها حداً لا أشك معه فى أن هومر نفسه إذا اضطر أن يقرأ الإلياذة مجتمعة لترنح رأسه من نعاس ؛ وأما القصة اليابانية فالظاهر أنها عاطفية تثير حب التطلع فى نفس القارئ ، ومع ذلك فيخيل إلينا أن آيتين من آيات القصة الإنجليزية — هما قصة « توم چونز » وقصة « أوراق پِكْوِك » — يقابلان تمام التقابل قصتى « جنچى مونوجانارى » و « هيزا كوريج » فى الأدب اليابانى ؛ ويجوز أن تكون « السيدة موراساكى » أنبغ من « فيلدنج » العظيم نفسه فى دقتها ورشاقتها وسعة فهمها ؛ إن كل ما هو بعيد عن أنفسنا غامض علينا ، يكون مملولا سخيفاً بالنسبة لنا ، وستظل الأشياء فى اليابان غامضة علينا حتى نستطيع أن ننسى نسياناً تاماً تراثنا الغربى ، لنتشرب تراث اليابان تشرباً كاملا .

الفصل الخامس

فن الدقائق الصغيرة

تقلهد مبدع – الموسيقى والرقص – « إنرو » و « نتسوكى » – هيدارى چنجارو – لاكيه

جاءت القوالب الخارجية للفن اليابانى من الصين ، مثلها فى ذلك مثل كل ظاهرة بادية من ظواهر الحياة اليابانية ؛ أما القوة والروح الداخليان ، فمثلهما مثل كل ما هو حيوى من أمور اليابان ، فى صدورهما عن الشعب نفسه ؛ نعم إن الموجة الفكرية والهجرة اللتين جاءتا إلى اليابان بالبوذية فى القرن السابع ، قد جاءتاها كذلك من الصين وكوريا بصور الفن وبالدوافع النفسية المرتبطة بتلك العقيدة ، التى ليست آصل فى الصين وكوريا منها فى اليابان ؛ بل إنه لمن الحق أيضاً أن العناصر الثقافية لم تدخل إلى اليابان من الصين والهند وحدهما ، بل جاءتها كذلك من أشور واليونان – فالملامح التى تراها فى بوذا كاماكورا مثلا أقرب إلى الملامح « اليونانية البكتيرية » منها إلى الملامح اليابانية ؛ لكن هذه الحوافز وإن تكن قد جاءت إلى اليابان من الخارج ، إلا أنها استُخدمت هناك فى إبداع ما هو جديد ؛ فسرعان ما تعلم شعب اليابان أن يفرق بين الجمال والقبح ؛ وكثيراً ما كان أغنياء تلك البلاد يؤثرون تحف الفن على الأرض أو الذهب(*) ، وكان رجال الفن فيها يعملون بإخلاص لفنهم أنساهم نفوسهم ، وهؤلاء الفنانون ، على الرغم من أنهم كانوا يجتازون

(*) قام قواد الجيش أيام « هيديوشى » بحملات حربية مظفرة ، والظاهر أنهم اكتفوا فى مكافآتهم على ذلك الظفر – أحياناً – لا بالضياع ولا بالمال ، بل بالتحف النادرة من الفخار والخزف(٤٩) .

دوراً طويلا عنيفاً من التدريب الفنى ، قلَّ أن تقاضوا على فنهم أجراً أكثر مما كان يتقاضاه الصناع من أجور ؛ وإن شاءت لهم الأيام مرة أن يجيئهم شيء من ثراء ، راحوا يبددونه فى إسراف مستهتر ، ثم لم يلبثوا بعدئذ أن يعودوا إلى فقرهم الطبيعى الذى ترتاح إليه نفوسهم[٥٠] ، أما من حيث النشاط والذوق والمهارة ، فلم يكن يدانيهم إلا أرباب الفن من أهل مصر القديمة واليونان والصين فى عصورها الوسطى .

إن حياة الشعب نفسها كانت تتخللها علائم الفن — تراها فى نظافة بيوتهم وجمال ملابسهم ، وظرف حليهم ، وإقبالهم إقبالا فطرياً على الغناء والرقص ؛ ذلك لأن الموسيقى — كالحياة — جاءت إلى اليابان من الآلهة نفسها ؛ ألم تُغَنِّ « إيزانامى » فى جوقات جمعية عند خلق الأرض ؟ ونقرأ عنهم أن الإمبراطور « إنكيو » عزف على آلة موسيقية بعد ذلك بألف عام ، وقامت الإمبراطورة ترقص لعزفه ، وكان ذلك فى مأدبه إمبراطورية سنة ٤١٩ ، أقيمت احتفالا بافتتاح قصر جديد ؛ ولما مات « إنيكو » أرسل أحد ملوك كوريا ثمانين موسيقاراً ليعزفوا فى جنازته ، فعلم هؤلاء العازفون أهلَ اليابان آلات موسيقية جديدة وأنغاماً جديدة — بعضها من كوريا ، وبعضها من الصين ، وبعض ثالث من الهند — ولما نُصب الـ« دايبوتسو » فى معبد « تودايجى » فى نارا (٧٥٢) عزفت موسيقى الأساتذة من الصين فى احتفال التنصيب ؛ ولا يزال « بيت المال » الإمبراطورى فى نارا يعرض علينا الآلات التى استخدمت فى تلك الأيام السوالف ، وكان الغناء والإلقاء ، وموسيقى القصر وموسيقى الرقص فى الأديرة ، هى الضروب الرفيعة الموقرة من الموسيقى ، أما الأنغام الشعبية فكانوا يعزفونها على آلة يسمونها « بيوا » « أى قيثارة » أو على آلة يطلقون عليها « ساميزانه » و (وهى آلة ذات ثلاثة أوتار)[٥١] ، ولم يكن لليابانيين نوابغ فى التأليف الموسيقى ، ولا كان لهم كتب فى الموسيقى ، وتآليفهم الموسيقية الساذجة

التى كانوا يعزفونها فى خمسة أنغام على السلم الهارمونى الصغير ، لم يكن فيها اتساق فى النغم ، ولا كان عندهم تمييز بين ما هو صغير وما هو كبير من مفاتيح الموسيقى ، ومع ذلك فكل يابانى تقريباً كان يستطيع العزف على آلة من الآلات العشرين التى جاءتهم من القارة الأسيوية ؛ ويقول اليابانيون إن أية واحدة من هذه الآلات لو أتقن العزف عليها ، استطاعت أن ترقص الغبار العالق بسقف المكان(٥٢) والرقص نفسه شاع بينهم « شيوعاً لا نظير له فى أى بلد آخر »(٥٣) ــ ولم يكونوا يرقصون على سبيل إتمام مقتضيات الغرام بين عشيقين ، بمقدار ما كانوا يرقصون تنسكا فى العبادة أو فى الحفلات الجمعية ؛ فكان يحدث أحياناً أن يخرج أهل قرية بأسرهم ، فى أبهى حللهم ، ليحتفلوا بإحدى المناسبات السعيدة احتفالا راقصاً يشترك فيه الناس جميعاً ؛ وكانت الراقصات المحترفات يجتذبن حشوداً من الجماهير بمهارتهن فى الرقص ؛ وكنت تجد الرجال والنساء على السواء ــ حتى فى أرفع الطبقات ــ ينفقون من وقتهم زمناً طويلا فى هذا الفن ؛ فتقول « السيدة موراساكى » فى قصتها عن « جنجى » إنه حين رقص رقصة « موجات البحر الأزرق » مع صديقته « تونو ــ شوچو » تحركت العواطف فى صدور المشاهدين جميعاً ؟ « فلم يشهد أولئك المشاهدون قط فى حياتهم أقداماً تطأ الأرض بهذه الرشاقة كلها ، ولا شاهدوا رؤوساً قامت على أعناقها بهذا الجلال كله ... كانت هذه الرقصة من عمق التأثير فى النفوس ومن جمـــال الحركات ، بحيث اغرورقت عينا الإمبراطور فى ختامها ، وأجهش الأمراء والسادة كلهم بالبكاء »(٥٤) وقد كان كل من تسعفه ظروفه المالية ، يزين نفسه زينة ، لا يكتفى فيها بالوشى الجميل والدمقس المصور بالرسوم ، بل يضيف إلى ذلك تحفاً رقيقة هى من الخصائص المميزة لليابان القديمة ، بل توشك أن تكون تعريفاً يحدد معناها ؛ فكان النساء ينكمشن ليغازلن الرجال من وراء مرواح فتانة الجمال ، بينما الرجال يسيرون فى خيلاء بما حملوا من سيوف نقشت نقشاً نفيساً ، وما علقوا فى

مناطقهم من صناديق (يسمون الواحد منها « إنرُو ») تدلت من أوساطهم بخيط سميك ، وكان الصندوق منها يتألف عادة من عيون نقشت فى العاج أو الخشب نقشاً دقيقاً ، يضعون فيها التبغ والنقود وأدوات الكتابة وغير ذلك مما يلزم استعماله أحياناً ، ولكى يمتنع سقوط الخيط منزلقاً تحت المنطقة ، كانوا يربطونه فى الجانب الآخر من المنطقة بوصلة صغيرة يسمونها « نتسوكا » (وهى كلمة مكونة من جزئين : « نى » ومعناها طرف ، و « تسوكا » ومعناها يربط) وكانت تلك الوصلة تعهد إلى فنان يرسم على سطحها المتغضن رسما مسرفاً فى الرقة والنفاسة ، رسما لآلهة أو شياطين أو فلاسفة أو حور أو طيور أو زواحف أو سمك أو حشر أو زهر أو أوراق شجر أو مناظر من حياة الناس ، وها هنا وجدت روح الفكاهة الشيطانية التى يتفوق فيها الفن اليابانى على سائر الفنون تفوقاً فسيحاً ، وجدت متنفساً طليقاً ، وإن يكن متواضعاً ، فلن يتكشف لك ما فى هذه التحف الفنية من لطف بالغ ودلالة كبرى ، إلا بعد فحص دقيق لها ، غير أن لمحة سريعة تنظر بها إلى صورة مصغرة لامرأة بدينة أو كاهن سمين أو قرد خفيف الحركات أو حشرات لطيفة ، مما كانوا ينقشونه على مساحة لا تبلغ بوصة واحدة مكعبة من العاج أو الخشب ، لتكفيك للتأكد مما كان للشعب اليابانى من خصال فنية فذة تنبض بحرارة العاطفة(*) .

وكان أشهر من حفر الخشب من اليابانيين هو « هيدارى چنجارو » (هيدارى معناها مبتور اليد اليسرى) ، فتنبئنا الأساطير كيف فقد ذراعا وكسب اسما ، وذلك أن ظافراً فى القتال طالب مولى « چنجارو » بحياة ابنته ، فنحت « جنجاروا » رأساً مبتوراً يمثل رأس مولاه تمثيلا بلغ من الصدق حداً جعل ذلك الظافر يأمر ببتر الذراع اليسرى لهذا الفنان عقاباً له على قتل

(*) مؤلف هذا الكتاب مدين لتستر « أدولف كروش » فى شيكاغو بالإذن له بفحص مجموعته الجميلة من هذه التحف : « النتسوكا » و « الانرو » .

ابنة مولاه [٥٥] ؛ « چنجارو » هو الذى نحت بإزميله الفينة والقطة النائمة التى تراها فى ضريح « أيياسو » فى نِكُو » ، وهو الذى نحت كذلك « باب السفير الإمبراطورى » فى معبد « نيشى – هنجوان » فى كيوتو ؛ وقد قص الفنان على الجانب الداخلى من ذلك الباب قصة الحكم الصينى الذى طهر أذنه مما أصابها من دنس باستماعها لاقتراح عُرض عليه بقبول عرش بلاده ، وكيف تجمع قطيع الماشية فى تجهم ، يقاتل ذلك الحكيم لأنه أصاب ماء النهر بالنجاسة حين أراد تطهير أذنه الدنسة [٥٦] ؛ على أن « چنجارو » لم يكسب شهرته هذه إلا أنه أبرز فنان فى وضوح شخصيته ، من بين طائفة الفنانين الذى ذهب الزمان بأسمائهم ، والذين زينوا ألوف المبانى بالخشب المنقوش أو المدهون نقشاً أو دهناً جميلا ؛ ولقد لقيت شجرة « اللاكيه » فى جزر اليابان منزلة تتناسب مع شغف أولئك الناس بالفنون ، فكانوا يروونها فى عناية عظيمة ؛ وكان رجال الفن أحياناً يكسون نقوشهم التى نحتوها فى الخشب بطبقات من « اللاكيه » وأحياناً أخرى يسرفون فى فرض العناء على أنفسهم بأن يصبوا تمثالا من الطين ، ثم يجعلونه أجوف ، ثم يضعون فى جوفه عدة طبقات من « اللاكيه » كل طبقة تكون أسمك من سابقتها [٥٧] وهكذا رفع الفنان اليابانى مادة الخشب إلى منزلة المرمر ، وملأ الأضرحة والمقابر والقصور بأجمل ما تعرفه فى القارة الأسيوية من الزخارف الخشبية .

الفصل السادس

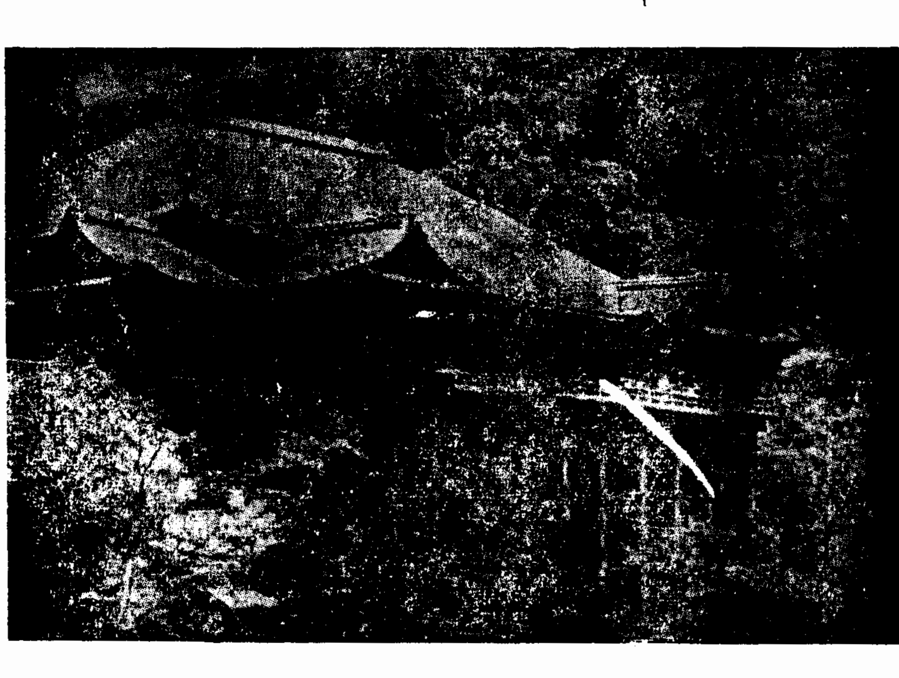
فن العمارة

المعابد – القصور – ضريح – أبياسو – المنازل

وفى عام ٥٩٤ أمرت الإمبراطورة « سويكو » أن تقام المعابد البوذية فى طول البلاد وعرضها ، إما اعتقاداً منها بما فى الدعوة البوذية من حق ، أو التماساً لما عسى أن يترتب عليها من نفع ؛ وعهد بتنفيذ هذا الأمر إلى الأمير « شوتوكو » فاستدعى من كوريا كهنة ومعماريين وناحِتِى الخشب وصائغى البرونز وصانعى النماذج من الطين وبنائين ومُذَهِّبين وصانعى القرميد ونساجين وغير هؤلاء من مهرة الصناع [٥٨] وقد كان فى استدعاء هذه الحملة الثقافية بداية تقريبية للفن فى اليابان ؛ ذلك لأن « شنتو » لم يكن يرضى عن زخرفة البناء ، ولم يكن يسمح بتشويه صور الآلهة فى تماثيل منحوتة ؛ أما مذ جاءت تلك البعثة الثقافية ، فقد امتلأت أرجاء البلاد بالأضرحة والتماثيل البوذية ؛ وكانت المعابد فى جوهرها شبيهة بمعابد الصين . غير أنها كانت أغنى من معابدالصين زخرفاً وأرق نحتاً ؛ وترى فى معابد اليابان ماتراه فى معابد الصين ، من بوابات فخمة على طول المرتقى أو المدخل الذى يؤدى إلى الحرم المقدس ؛ وتزدان الجدران الخشبية بناصع الألوان ، وترتكز السقوف القرميدية – التى تسطع فى ضوء الشمس – على عمد ضخمة ، ويفصل الضريح الأوسط من الأشجار المحيطة به أبنية صغرى كسلسلة من الأبراج مثلا أو معبد من الطراز المعروف باسم « باجودا » وأعظم ما أبدعه أولئك الفنانون الأجانب هو مجموعة المعابد التى فى « هوريوجى » والتى أشرف على بنائها الأمير « شوتوكو » ، وهى قائمة على مقربة من « نارا » وتم بناؤها عام ٦١٦ ؛

وإنه لما يذكر حسنة من حسنات الخشب باعتباره أدوم مواد البناء بقاء ، أن أحد هذه الأبنية الخشبية قد ظل قائماً رغم ما تعاوره من زلازل لا تحصى عدداً فكان أطول عمراً من مائة ألف معبد من المعابد التى شيدت بالحجر ، وكذلك مما يذكر على سبيل الفخر للبنائين الذين أقاموا تلك المعابد أن اليابان لم تشهد فيما بعد بناء واحداً يفوق هذا الضريح العريق فى القدم من حيث جلال البساطة ، وربما كانت المعابد المقامة فى « نارا » نفسها موازية فى جمالها لهذا الضريح ، وهى أحدث منه بقليل ، وخصوصاً « القاعة الذهبية » التى فى معبد « توديجى » والتى بلغ التناسب فى أجزائها حد الكمال . . ويقول « رالف آدمز كرام » إن « نارا » تحتوى على أنفس آيات الفن المعمارى فى آسيا »[٥٩] .

وبلغت العمارة فى اليابان أوجها الثانى فى عهد حكومة « أشيكاجا » العسكرية ، فقد صمم « يوشيمتسو » أن يجعل من كيوتو أجمل عاصمة على وجه



معبد كيوميزو

الأرض ، فشيد للآلهة معبداً من طراز « يا جودا » بلغ ارتفاعه ٣٦٠ قدماً ، وشيد لأمه « قصر التاكاكورا » الذى بلغت تكاليف باب واحد من أبوابه عشرين ألف قطعة من الذهب (ما يساوى مائة وخمسين ألف ريال) ثم شيد لنفسه « قصر الزهرة » الذى بلغت تكاليفه ما يساوى خمسة ملايين من الريالات ، وكذلك أقام لمجـــد الشعب كله « البهو الذهبى » فى « كنكاكوجى »[٦٠] ، وأراد « هيديوشى » أيضاً أن ينافس « قبلاخان » فبنى فى « مرمويامام » قصر النعيم ولم يكد يمضى على بنائه بضع سنين ، حتى شاءت أهواؤه المتقلبة أن يهدمه ، ونستطيع أن نحكم بما كان لذلك القصر من فخامة ، من « بوابة اليوم كله » التى أخذت منه ليزينوا بها معبد « نيشى بنجوا » وإنما أطلق على البوابة هذا الاسم لأن المعجبين بها يقولون إنك قد تظل يوماً كاملا تدقق النظر فى نقشها دون أن تأتى على كل ما فيها من روعة ، وكان « كانوپيتوكو



بوابة « يو — مى — مون »

لـ « هيديوشى » بمثابة « استينوس » أو « فيدياس » ، لكنه زخرف له مبانيه بما هو أقرب إلى فخامة البندقية منه إلى الاعتدال اليونانى ، فما شهدت اليابان قط ، بل ما شهدت آسيا قط قبل ذاك مثل هذا الزخرف الفاخر ، وكذلك حدث فى عهد « هيديوشى » أن بدئ فى « حصن أوساكا » المتجهم ، حتى تشكلت صورة البناء ، وأريد بذلك الحصن أن يشرف على موقع هو فى اليابان بمثابة « بتسبرج » ، وأن يكون مقبرة لولده .

وأما أيياسو ، فقد كان أميل إلى الفلسفة والأدب منه إلى الفنون ، لكن حفيده « أبيمتسو » — الذى اكتفى بكوخ من الخشب يتخذ منه قصراً لنفسه — راح ينفق بسخاء من ثروة اليابان وفنها ، ليبنى حول رفات « أيياسو » فى « نكو » أجمل بناء تذكارى شيد من أجل فرد واحد فى أرجاء الشرق الأقصى ، فى هذه البقعة التى تبعد عن طوكيو تسعين ميلا ، وعلى قمة تل هادئ تبلغها بطريق مظلل مزدان بالقباب الفخمة ، فى هذه البقعة بنى مهندسو العمارة الذين استخدمهم الحاكم العسكرى ، سلسلة من المداخل الفسيحة المدرجة ، بنوا تلك المداخل بادئ ذى بدء ، ثم عقبوا عليها ببوابة مزخرفة لكنها رائعة ، وهى المعروفة باسم « يو — مى — مون » ، ثم أقاموا على مجرى مائى جسراً مقدساً حرام لمسه ، ثم سلسلة من المقابر والمعابد أقاموها بالخشب المبطن « باللاكيه » وهى تمتاز بجمال الأنوثة وضعفها ، فالنقوش فاخرة إلى حد الإسراف والبناء نفسه ضعيف ، وترى لون الطلاء الأحمر فاقعاً حولك حيثما أدرت البصر ، كأنه مسحوق الزينة الأحمر على شفاه امرأة بالغت فيه ، تراه فاقعاً وسط أخضر الأشجار الباهتة ، ومع ذلك فلنا أن نقول إن بلداً يزدهر بالازهار كل ربيع ، قد يكون أحوج إلى ألوان ساطعة للتعبير عن مشاعره ، من بلد أقل اضطراماً فى عاطفته يقنعه ويرضيه ما هو أقل من ذلك سطوعاً .

وليس فى وسعنا أن نقول إن هذه العمارة جبارة ، لأن شيطان الزلازل قد



قردة « نكوكو »

شاء لليابان أن تبنى على نطاق متواضع وألا تركم الحجارة بعضها فوق بعض حتى تعلو إلى السماء ، بحيث تتقوض حطاماً حين تعبس الإرض عبوساً يغضن جلدها ؛ ومن ثم تراهم يبنون بيوتهم من الخشب ، وندر أن يرتفع البيت عن طابق واحد أو طابقين ؛ ولم يجعل أهل المدن سقوفهم من القرميد — إذا استطاعوا إلى نفقاته سبيلا — إلا بعد أن عانوا من الحرائق المتكررة ، وبعد أن أمرت الحكومة بذلك أمراً جعلت تتشدد فى تنفيذه ، عندئذ فقط اضطر أهل المدن أن يغطوا بالقرميد أكواخهم أو قصورهم الخشبية

ولما تعذر على أبناء العلية أن يشمخوا بقصورهم إلى السحاب ، راحوا ينشرونها على أرض فسيحة ، على الرغم من الأمر الإمبراطورى الذى يحدد مساحة الدار الواحدة بمائتين وأربعين ياردة مربعة ؛ ويندر أن يكون القصر بناء واحداً ، بل كان القصر فى العادة يتألف من بناء رئيسى متصل بوساطة مماش مسقوفة بأبنية فرعية تعد لمختلف فروع الأسرة ؛ ولم يكن من عاداتهم أن يخصصوا غرفة للطعام وغرفة للجلوس وغرفة للنوم ، فالغرفة الواحدة تستخدم لكل الأغراض ؛ فإذا شاءوا طعاماً فما هى إلا لحظة واحدة حتى ترى المائدة قد مدت على أرضية الغرفة المغطاة بالحصير ، وإن أرادوا نوماً ، فما عليهم إلا أن يمدوا فراش النوم المطوية ، فيخرجوها من مخبئها وينشروها على الأرض مدة الليل ؛ والجدران قوامها أجزاء تتداخل ، أو تزال من مواضعها ، وبذلك يمكنهم فصل الحجرات بعضها عن بعض أو فتحها بعض على بعض ، بل إن الحائط الخارجى نفسه — بما فيه من شبابيك ونوافذ ، يمكن طيه بسهولة ليمكنوا لأشعة الشمس من الدخول كاملة ، ولنسيم المساء البارد من التغلغل فى ديارها ؛ وهم يضمون فى منازلهم أستاراً جميلة من فلقات الخيزران ، فتكسبهم تلك الأستار ظلا وستراً فى آن معاً ؛ والنوافذ هناك من علامات الترف ، إذ ترى بيوت الفقراء ذات فتحات كثيرة تُترك على حالها فى الصيف ليدخل الضوء ، حتى إذا ما جاء الشتاء سدوها بصنف من الورق

المشمع ليتقوا برد الشتاء ، إن نظرة إلى فن العمارة فى اليابان تدلك على أن تلك العمارة ولدت فى بلاد حارة ، ثم نقلت فى غير حذر إلى جزائر تمتد بأعناقها شمالا حتى تصل إلى كامشتكا التى ترتعش من شدة البرد وهـذه المنازل البسيطة الرقيقة إذا ما شهدتها فى المدن الجنوبية ألفيت لها أسلوباً معمارياً . وجمالا خاصاً يميزها ، وهى هناك مساكن ملائمة لشعب كان يوماً من أبناء الشمس الذين تملؤهم نشوة المرح .

الفصل السابع

المعادن والتماثيل

السيوف – المرايا – ثالوث هوريوجى – التماثيل الكبيرة – الدين والنحت

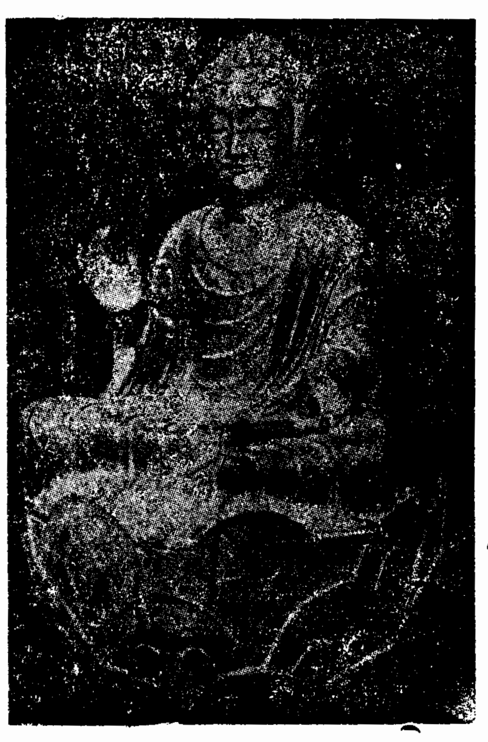
كان سيف الرجل من طائفة « السيافين » أصلب عوداً من مسكنه ؛ لأن صناع المعادن فى اليابان بذلوا جهدهم كله فى صناعة أسياف تفوق أسياف دمشق وطليطلة(٦١) فقد كانوا يصنعونها من المضاء بحيث تكفى ضربة واحدة منها لشق الرجل من كتفه إلى فخذه ؛ وكذلك كانوا يزخرفونها بالمقابض والمدلَّيات التى يسرفون فى تزيينها ، أو فى ترصيعها بالجواهر ، إسرافاً لم يجعلها دائماً صالحة للنقل ؛ ومن صناع المعادن من كانوا يختصون بصناعة المرايا من



الهالة البرونزية فى « أميدا » بمدينة « هوريوجى »

البرونز ، يصقلونها صقلا أثار خيال أصحاب الأساطير بحيث راحوا يروون أساطيرهم إعجاباً بما بلغته تلك المرايا من كمال ؛ من ذلك مثلا أن فلاحاً اشترى مرآة لأول مرة ، ونظر إليها فظن أنه يرى فيها وجه أبيه الميت ، فأخفاها على أنها كنز ثمين ؛ لكنه كان يتسلل إليها فارتابت زوجته فى أمره ، وأخرجت المرآة يوماً من مكمنها ، فما كان أشد فزعها حين رأت امرأة فى مثل سنها ، ورجحت أن تكون تلك المرأة خليلة زوجها[٦٢] ، ومن هؤلاء الصناع من افتنّ فى صناعة الأجراس الضخمة ، مثل ذلك الجرس العظيم فى نارا (٧٣٢ ميلادية) الذى تبلغ زنته تسعة وأربعين طناً ، وكانوا يستخرجون من تلك الأجراس أنغامها الحلوة — أحلى من الأصوات التى تنبعث من مصفقاتنا المعدنية فى الغرب — بطرقها بلسان من خارجها ، يهزونه بوساطة عمود خشبى متأرجح .

وكان النحاتون أميل إلى استخدام الخشب أو المعدن منهم إلى استخدام الحجر ، لفقر بلادهم فى الجرانيت والمرمر ؛ ومع ذلك ، فعلى الرغم من صعوبات المادة كلها ؛ استطاعوا أن يفوقوا معلميهم من أهل الصين وكوريا ، فى هذا الفن الذى هو أوضح فن فى تحديد معالمه — فسائر الفنون كلها تحاول فى خفاء أن تحاكى ما يفعله النحات صابراً حين يزيل ما لا يجوز بقاؤه من مادته ، وأقدم آية فى فن النحت اليابانى تقريباً وربما كانت كذلك أعظم



« تمثال أميدا - بوذا » فى هوريوجى

آيات اليابان فى ذلك الفن — هى « ثالوث هوريوجى » البرونزى —

وقوامه بوذا جالساً على برعم من براعم اللوتس بين بوذيْن منتظرَيْن ، أمام ستار وهالة من البرونز ، لا يفوقهما جمالا إلا الوشى الحجرى الذى نراه على ستار « أورنجزيب » فى « تاج محل » ؛ ولسنا ندرى من ذا أبدعت يداه هذه المعابد فأقامها ، وتلك التماثيل فنحتها ؛ ولنا أن نقول إنها من إرشاد معلمين كوريين ، أو أنها اقتفت نماذج من الصين ؛ أو أنها تعزى إلى حوافز من الهند ، بل لنا أن نقول إنها متأثرة بمؤثرات يونانية جاءتها من أيونيا البعيدة عبر ألف من السنين ؛ لكن الذى لا نشك فيه هو أن هذا الثالوث آية من أبدع آيات الفن فى تاريخه كله(*) .

ويجوز أن يكون قصر قامة اليابانيين ، بحيث توشك أجسامهم أن تنوء بحمل مطامحهم وقدراتهم الروحية ، هو الذى جعلهم يلتمسون المتعة فى إقامة التماثيل الضخمة ؛ وقد وفقوا فى هذا الفن المحفوف بمواضع الزلل ، أكثر مما وفق المصريون أنفسهم ؛ فلما فشا الجدرى فى اليابان سنة ٧٤٧ ، كلف الإمبراطور « شومو » « كيميارو » أن يصوغ تمثالا ضخماً لبوذا استرضاء للآلهة ؛ فاستخدم « كيميارو » لهذه الغاية أربعمائة وسبعة وثلاثين طناً من البرونز ، ومائتين وثمانية وثمانين رطلا من الذهب ، ومائة وخمسة وستين رطلا من الزئبق ، وسبعة أطنان من الشمع النباتى ، وعدة أطنان من الفحم ، وقد تطلب هذا العمل عامين ، واقتضى سبع محاولات ؛ فصب الرأس فى قالب واحد ، أما البدن فكان مؤلفاً من رقائق معدنية كثيرة لصق بعضها ببعض ،

(*) قد يكون لـ « شوتوكا تايشى » العظيم ، الذى كان من رجال السياسة والفن على السواء ، صلة بهذا الأثر الفنى الجليل . لأننا نعلم أنه أمسك بالأزميل ونحت تماثيل كثيرة من الخشب(٦٣) ؛ كذلك كان « كوبو دايشى » (حوالى ٨١٦) نحاتاً ومصوراً معاً ، وعالماً وقديساً فى آن واحد ؛ ولقد صوره لنا « هوكوساى » ممسكا بخمس فراجين دفعة واحدة ، اثنتين بيديه واثنتين بقدميه وخاصة بفمه (٦٤) لكى يدلنا بذلك على تنوع براعته ؛ ورسم « أونكى » (١١٨٠ – ١٢٢٠) تماثيل نصفية دقيقة التعبير عن شخصياتها ، رسمها لنفسه ولكثير من الكهنة ، ونحت أشكالا جميلة مفزعة ليوم الحساب فى الجحيم ، ولهؤلاء الآلهة الغضاب الذين كان عليهم أن يطردوا بوجوههم القبيحة كل الأرواح الشريرة ، ولقد تعاون معه أبوه « كوكى » وابنه « جوكى » وتلميذه « چوكاكو » لإعلاء اليابان فى فن النحت فى الخشب .



تمثال لبوذا في اليابان

ثم غطيت بغشاء سميك من الذهب ؛ وإن الأجنبي عن اليابان ليعجب لتمثال بوذا « وايبوستو » القائم فى « كاماكورا » ، أكثر مما يعجب لذلك التمثال الكئيب العابس فى « نارا » وتمثال « وايبوستو » هذا مصبوب من البرونز تم صنعه سنة ١٢٥٢ على يدى « أونو جريئمون » ولعل ما يجعل حجم هذا التمثال مناسباً للغاية منه ، كونه جالساً على مرتفع فى الفضاء المكشوف ، محوطاً بمنظر جميل من الشجر ، فضلا عن أن الفنان هنا قد عبر ببساطة تدعو إلى العجب ، عن روح بوذا فى تأمله وسكينته ؛ وكان هذا التمثال بادئ الأمر قائماً فى معبد — كما هى الحال اليوم فى التمثال القائم فى « نارا » — لكن حدث فى سنة ١٤٩٥ أن اجتاحت المكان موجة من البحر ، فاكتسحت المعبد والمدينة جميعاً ، تاركة فيلسوفنا البرونزى هادئاً وسط هذا الخراب الشامل ، وما ملأ الأرض حوله من عــذاب وموت ، كذلك شيد « هيديوشى » تمثالا ضخماً فى كيوتو ، ولبث خمسون ألف رجل يعملون مدى خمسة أعوام فى إقامة هذا التمثال لبوذا ؛ بل كان الحاكم العظيم نفسه يتلفع أحياناً بثوب عامل بسيط ، ويعاون العاملين فى إقامة التمثال معاونة كبرى ؛ لكنه لم يكد يتم بناؤه ، حتى زلزلت الأرض سنة ١٥٩٦ فألقت به على الأرض هشيما ، ونثرت حطام جزئه الداخلى الذى كان مفروضاً أن يكون حرماً وموئلا ، نثرتها حول رأسه ؛ ويروى فى اليابان أن « هيديوشى » رمى الصنم المحطم بسهم قائلا فى ازدراء : « لقد أقمتك هاهنا بباهظ النفقات ، فلم تستطع حتى حماية معبدك »[٦٥] .

فى هذا المدى الذى يتفاوت فيه الحجم : من أمثال هذه التماثيل الضخمة إلى المدليات (النتسوكا) الصغيرة ، تناول النحت اليابانى كل ضروب الأشكال فى شتى ضروب الأحجام : فأحياناً ترى سادة هذا الفن — مثل « تاكامور » فى يومنا هذا — ينفقون أعواماً من العمل المتصل فى صناعة تماثيل لا تكاد

تبلغ قدماً واحدة فى طولها ؛ وكان يمتعهم أن يصوروا بماثيلهم تلك كهولا فى الثمانين التوَت أبدانهم ؛ أو شرهين يمرحون فى الشره ، أوكهنة متفلسفين ؛



تمثال بوذا العظيم فى كاما كورا

وإنه لمن الخير أن يرى روح الفكاهة فى عملهم قد شجعتهم على المضى فى فنهم، لأن معظم الكسب الذى كانت تدره صناعتهم ، كان يستولى عليه مستخدموهم الدهاة ؛ وكانوا فى تماثيلهم الكبيرة مقيدين بتقاليد خاصة بموضوع التمثال ،

و بطريقة أدائه ، مما يفرضه عليهم الكهنة ؛ فالكهنة إنما أرادوا من هؤلاء
لنحاتين أن يصوروا لهم آلهة لا نساء فاجرات ، أرادوا أن يوحوا إلى الناس
التقوى ، أو أن يحيطوا فضائلهم بعوامل الخوف لا أن يستثيروا فى الناس
حساسهم بالغبطة والجمال ، ولما كان النحاتون مرتبطين يداً وروحاً بالدين
قد تدهور فن النحت حين بردت حرارة الإيمان وذهبت قوته ؛ وكما حدث
ى مصر من قبل ، رأينا أنه لما غاض معين التقوى ، بقيت صلابة التقاليد
ى الفن دليلا على برودة الموت .

الفصل الثامن

الخزف

الدافع من الصين . خزافو هيزن – الخزف والشاى – كيف استحضر «جوتو سايجيرو» فن الخزف الرقيق من هيزن إلى كاجا – القرن التاسع عشر

إنه ليس من العدل التام بالنسبة إلى اليابان ، أن نتحدث عن استجلابها لمدنيتها من كوريا والصين ، إلا بالمعنى الذى نقصده من مثل هذا الكلام حين نقول عن شمالى غربى أوربا إنه أخذ مدنيته عن اليونان وروما ؛ هذا إلى أنه يجوز لنا أن نعد شعوب الشرق الأقصى كلها وحدة بشرية وثقافية ، وكل جزء من أجزاء هذه الوحدة – شأنها فى ذلك شأن أقاليم القطر الواحد – قد أنتج فنه وثقافته فى مكانه الخاص وزمانه الخاص ، بحيث جاءت تلك الثقافة وذلك الفن يشبهان ويعتمدان على ما أنتجته بقية الأجزاء من ثقافة وفن ؛ وعلى هذا نرى الخزف اليابانى جزءاً من الفن الخزفى فى الشرق الأقصى ، ووجهاً من وجوهه ؛ وهو فى أساسه شبيه بالخزف الصينى ، إلا أنه مطبوع بطابع يميزه من الرقة والرشاقة اللتين تميزان الفن اليابانى كله ؛ وقد كان الخزف اليابانى – حتى قدوم الصناع الكوريين فى القرن السابع – مجرد صناعة خالية من لمسة الفن ، أعنى أنه كان لا يعدو أن تصب المادة صباً على نحو غليظ لتكون آنية للاستعمال اليومى ؛ والأرجح أنه لم يكن فى الشرق الأقصى قبل القرن الثامن خزف مصقول ، وأكثر من هذا ترجيحاً أنه لم يكن به نوع الخزف المسمى « بورسلان »(٦٦) ثم أصبحت الصناعة فناً ، وكان أكبر العوامل على هذا التطور دخول الشاى فى القرن الثالث عشر ؛ فقد صحب الشاى عند دخوله البلاد أقداح صينية لشربه من طراز « صنج » فأثارت الإعجاب عند أهل اليابان ؛ حتى غامر خزاف يابانى سنة ١٢٢٣ ، وهو «كاتوشيروزيمون»

د افر إلى الصين ، ودرس هناك فن الخزف مدى ستة أعوام ، وعاد بعدها ليقيم مصنعاً له فى سيتو ، وتفوق بضاعته على كل ما سبقه فى بلاده من هذه الصناعة ، حتى أصبحت « منتجات سيتو » علماً على كل صناعة خزفية فى اليابان كلها ، وذلك شبيه بما حدث فى اللغة الإنجليزية فى القرن السابع عشر ، حين أطلقت كلمة « منتجات صينية » على الخزف البورسلانى ، وقد كتب الحاكم العسكرى « يوريتومو » الثراء لذلك الخزاف « شيروزيمون » حين ابتدع بدعاً جديداً ، وهو أن يكافئ الخدمات الصغرى بهدايا من أباريق الشاى التى « صنعها شيروزيمون » هذا بعد أن يملأها بهذه الأعجوبة الجديدة ، وهى مسحوق الشاى ، وما بقى لنا اليوم من آثار هذه المنتجات — ويطلق عليها اسم « توشيرو — ياكى »[*] — يكاد يغلو عن أى ثمن مهما علا ، وترى تلك الآثار باقية ملفوفة فى الحرير الموشى الثمين ، ومصونة فى صناديق من خشب « اللاكيه » الجميل ، وإذا حدثك محدث عن أصحابها ، حدثك عنهم بأنفاس متقطعة على أنهم سادة خبراء الفن[٦٧] .

وبعد ذلك بثلاثمائة عام ، أغرت الصين يابانياً آخر بالرحلة إليها ، وهو « شونزِوِى » ليدرس مخازفها المشهورة ، ولما عاد إلى بلاده ، أنشأ مصنعاً فى « أريتا » فى إقليم « هيزن » ، وكان مما قام فى وجهه من صعاب ، أنه لم يجد فى تربة بلاده المواد المعدنية التى تعين على صناعة الخزف الرقيق ، كالتى توجد فى تربة الصين ؛ وقد قيل عن منتجاته إن عنصراً من أهم عناصرها مستمد من عظام صُنَّاعه ، ومهما يكن من أمر ، فمنتجات « شونزِوِى » ذات اللون الأزرق الإسلامى (كذا ؟) قد بلغت من الروعة حداً أغرى خزافى الصين فى القرن الثامن عشر أن يبذلوا وسعهم فى تقليدها وتصديرها مُزَوَّدة باسمه ، والعينات الباقية من صناعته ، تقدر اليوم بما يقدر به أندر الصور

(*) « توشيرو » اسم آخر كان يطلق على « « شيرزيمون » و « ياكى » معناها منتجات .

الفنية التى رسمتها ريشة الصفوة من أعلام الفن فى اليابان(٦٨) ، وحدث حوالى سنة١٩٠٥ ، أن كشف رجل من كوريا — هو « ريزامپى » — فى «إزومى — ياما» الواقعة فى إقليم « أريتا » عن رواسب غريزة من حجر البورسلان ، فأصبحت « هيزن » منذ ذلك الحين مركزاً لصناعة الخزف فى اليابان ، وكذلك كان « كاكيمون » المشهورة ممن قاموا بهذه الصناعة فى « أريتا » إذ تعلم فن الطلاء بالميناء من ربان سفينة صينية ، وبعدئذ احترف هذه الصناعة حتى كاد اسمه يصبح كلمة معناها البورسلان الذى طلى بالميناء طلاء رقيق الزخارف ، وراح التجار الهولنديون يرسلون إلى أوربا مقادير هائلة من مصنوعات هيزن ، كانوا يعبئونها فى السفن من ميناء « أريتا » عند « عمارى » ، فأرسلوا من ذلك ٩٤٣ر٤٤ قطعة إلى هولندا وحدها عام ١٦٦٤ ، فأثارت « المنتجات العمارية » الباهرة هزة فى أوروبا ، وأوحت إلى « إيبرجت دى قيصر » أن يفتتح عهداً ذهبياً من صناعة الخزف الهولندية بمصانعه فى « دلفت » .

هذا إلى أن ظهور الاحتفال بشرب الشاى ، قد حفز على تطور جديد فى اليابان ، وذلك أنه فى عام ١٥٧٨ كلّف « نوبوجانا » — بإشارة من « ركيُو » سيد الشاى — أسرة كورية من المشتغلين بصناعة الخزف فى كيوتو ، أن تصنع له مقداراً كبيراً من أقداح الشاى وغيرها من الأدوات المستعملة فى عمله وشربه، ومضت أعوام قلائل بعد ذلك ، ثم أهدى « هيديوشى » تلك الأسرة خاتماً ذهبياً وجعل مصنوعاتها وتعرف باسم « راكو — ياكى » شرطاً يكاد يكون لازماً لتمام الاحتفال بشرب الشاى ، وعاد قادة جيش هيديوشى من حملتهم الفاشلة على كوريا ، عادوا ومعهم عدد كبير من الأسرى ، كان بينهم كثير من رجال الفن ، اختيروا قصداً ، وهو اختيار لا نألفه فى رجال الحروب ، وفى سنة ١٥٩٦ أحضر « شيمازويو شيهيرو » إلى « ساتسوما » مائة من مهرة الكوريين ، بينهم سبعة عشر خزّافاً ، فكان لهؤلاء الرجال وأخلافهم الفضلُ

فى نشر سمعة « ساتسوما » فى أرجاء العالم كله مقرونة بتلك المصنوعات الخزفية المصقولة الزاهرة الألوان ، والتى نطلق عليها اليوم اسم مدينة إيطالية ، إذ نسميها « فاينس » وكان علم أعلام هذا الفرع من فن الخزف هو خزف كيوتو ، واسمه « نِينْسى » ، ولم يكتف هذا الرجل بابتكاره لطلى خزف « فاينس » بالميناء ، بل أضاف إلى ذلك رشاقة فى مصنوعاته واعتدالا سليم الذوق يعلو بقيمتها ، مما جعلها نفيسة فى أعين هواة هذا الفن منذ ذلك اليوم ، حتى إن اسمه ليزوّر أكثر مما يزور أى اسم آخر من رجال الفن فى اليابان(٦٩) ، وقد كان من أثر صناعته ، أن أقبل الناس على خزف « فاينس » المزخرف ، إقبالا بلغ فى العاصمة حد الجنون ، وفى بعض الأحياء فى كيوتو كنت ترى منزلا من كل منزلين قد انقلب تحفة خزفية(٧٠) وهنالك خزاف آخر ، لا يفوقه شهرة إلا « نِينْسى » ، وهو « كِينْزان » الذى كان شقيقاً أكبر للمصور « كورين » :

وهنالك قصة تروى عن كيفية إحضار « جوتوسايچيرو » لفن البورسلان من « هيزن » إلى « كاجا » ، ومن تلك القصة نتبين طرقاً من أعاجيب الخيال التى كثيراً ما نراها كامنة وراء فن الخزف فى نشأته وتطوره ، وذلك أن طبقة من رواسب الحجر الخزفى الجميل قد استُكشفت قريباً من قرية « كوتانى » ، فصمم الحاكم الإقطاعى فى ذلك الإقليم على إنشاء صناعة البورسلان فى إقليمه ، وأرسل جوتو إلى هيزن لدراسة طرائق صناعته فى الأفران وزخرفته بالرسوم ، لكن جوتو لم يجد طريقه ميسَّراً إذ وجد القائمين على صناعة الخزف يكتمون أسرار صناعتهم كتماناً شديداً ، وأخيراً تنكر خادماً ، وقبل عملا وضيعاً فى منزل خزاف وبعد أن قضى فى خدمته ثلاثة أعوام ، أذن له سيده بالدخول فى مصنع الخزف ، وهناك لبث جوتو يعمل أربعة أعوام أخرى ؛ وبعدئذ هجر الزوجة التى كان تزوج بها فى هيزن والأطفال الذين أنجبتهم له تلك الزوجة ، وفر إلى كاجا ، حيث أحاط مولاه علماً كاملا بالطرائق التى تعلمها ، ومنذ ذلك الحين (١٦٦٤) أصبح خزافو « كوتانى » أعلاماً فى هذا

الفن ، وباتت « كوتانى » – ياكا « (أى مصنوعات كوتانى) تنافس خيرة منتجات اليابان فى هذا الباب[٧١] .

واحتفظت مصانع « هيزن » لمنتجات الخزف بزعامتها إبان القرن الثامن عشر كله ؛ وكان ذلك يرجع إلى حد كبير إلى العناية الكريمة التى أولاها الحاكم الإقطاعى « هيرادو » عمال مصانعه ، ولبثت مصنوعات الخزف الأزرق المسماة « منشاواكى » والتى كانت تنتمى لـ « هيرادو » ، لبثت قرناً كاملا (١٧٥٠ – ١٨٤٣) فى طليعة البورسلان اليابانى ، ثم نَقَلَ « زنجورو هوزن » الزعامة فى القرن التاسع عشر إلى كيوتو ، بتقليد بارع لمصنوعات « منشاواكى » ، كثيراً ما بز فيه النموذج المحتذى ، بحيث كان يستحيل أحياناً أن تفرق بين الأصل والتقلد ، وفى الربع الأخير من ذلك القرن ، هذبت اليابان من صناعة الطلى بالميناء ، فطوّرتها من الحالة البدائية التى كانت عليها منذ قدومها من الصين وتزعمت العالم كله فى هذا الميدان من ميادين الصناعة الخزفية[٧٢] وتدهورت فروع أخرى من تلك الصناعة فى الفترة عينها ، لأن ازدياد الطلب فى أوروبا للخزف اليابانى ، أدى إلى نمط فيه إسراف فى الزخرف ، لا يسيغه الذوق اليابانى فكان من أثر هذا الطلب للخزف اليابانى من خارج البلاد ، أثر فى تعويد العمال عادات جديدة فى صناعتهم تأثرت بها مهارتهم ، وضعفت تقاليد ذلك الفن ، وجاءت الصناعة الآلية فكانت هاهنا – كما كانت فى كل مكان آخر – وبالا ؛ فحل الإنتاج الكبير محل الجودة ، كما حل الاستهلاك الكبير محل الذوق الذى يميز الطيب من الخبيث ، ومن يدرى ؟ فلعله بعد أن يفرغ الاختراع الآلى فى الصناعة من شوطه الخصيب ، وبعد أن تنتشر فى الناس نعمة الفراغ وطريقة استعماله استعمالا فيه خلق وإبداع ، بفضل ما يطرأ على المجتمع من تنظيم وخبرة ، ستتحول هذه النقمه إلى نعمة ، بحيث تنشر الصناعة فى أكثرية الناس ألوان الترف ، فقد يعود العامل فيصبح فناناً كما كان – بعد أن يستكمل ساعات عمله القليلة أمام الآلة – وقد يحول الإنتاج الآلى إلى عمل يعبر فيه عن شخصيته وفنه إذا ما أحبه حباً صادراً من صميم نفسه وفرديته .

الفصل التاسع

التصوير

مشكلات الموضوع . الطريقة والمادة – القوانب الفنية والمثل العليا – الأصول الكورية والوحي البوذى – مدرسة توسا . العودة إلى الصين – سشيو – مدرسة كانو – كوينسو – وكورين – المدرسة الواقعية

لئن كانت سائر الموضوعات التي مسسناها بالحديث على هذه الصفحات مما لا ينبغي فيه الحديث لغير المتخصصين ، فذلك أصدق بالنسبة للتصوير اليابانى ؛ وإذا نحن اشتملناه هاهنا بكلامنا جنباً إلى جنب مع غيره من الموضوعات التي تمس خفايا النفس ، حيث تخشى الملائكة أن تدوس بأقدامها فى غير احتفال ، فإنما نشتمله بالكلام آملين أن يستطيع القارئ خلال هذه الغلالة التي نقدمها له من نسيج الأخطاء ، أن يلمح قبساً يهديه إلى لب الحضارة اليابانية فى تمام خصائصها وجودة عنصرها ، فآيات التصوير اليابانى نتاج فترة من الزمن طولها ألف ومائتا عام ، تتقسمها كثرة متشابكة الخيوط من مختلف المدارس ؛ وقد طرأ على تلك الآيات الفساد أو الضياع على مر الزمن وتكاد كلها تكون خبيئة بين المجموعات الخاصة فى اليابان(*) .

وأما الآيات القليلة المعروضة لأعين الباحثين من الأجانب ، فمختلفة فى قالبها وطريقتها وأسلوبها ومادتها ، عن الصور الغربية اختلافاً يستحيل معه إصدار حكم سليم عليها من عقل غربى .

فالصور اليابانية – قبل كل شيء تشبه نماذجها فى الصين من حيث

(*) أظن أن خير مجموعات « مدرسة كانو » – وهى مجموعة مستر بيبو فى طوكيو ، قد أصابها زلزال سنة ١٩٢٣ بما يقرب من التلف الكامل .

إنها رُسمت أول ما رسمت بنفس الفرجون الذى كان يستخدم للكتابة ؛ والكلمة التى معناها كتابة ، والأخرى التى معناها تصوير ، هما فى الأصل كلمة واحدة — كما هى الحال أيضاً عند اليونان ، فالتصوير كان عبارة عن فن خطى ؛ وهذه الحقيقة الأساسية قد تفرع عنها نصف خصائص التصوير فى الشرق الأقصى ، بادئاً من المادة المستعملة فى التصوير ، ومنتهياً إلى إخضاع اللون للتخطيط ، فالمواد المستعملة بسيطة : مداد أو ألوان مائية ، وفرجون وورق نشاف أو حرير نشاف ، وأما العمل نفسه فعسير : فالفنان لا يعمل وهو واقف ، بل يعمل جاثيا على ركبتيه ، منحنياً على قطعة الحرير أو قطعة الورق المنشورة على الأرض ؛ ولا بد له من ضبط يده فى التخطيط بالفرجون ، حتى يستطيع أن يخط إحدى وسبعين درجة أو أسلوباً من درجات التخطيط أو أساليبه (٧٣) ؛ وكانت الرسوم ترسم على الجدران فى القرون الأولى ، أيام أن كانت البوذية مسيطرة على الفن فى اليابان ، على نحو ما كانت ترسم الصور الجدارية فى « أجانتا » أو « تركستان » ؛ غير أن كل ما بقى لدينا تقريباً من أعمال فنية واسعة الشهرة إما أن تكون من نوع الـ « ماكيمونو » (أى اللفائف) أو نوع الـ « كاكيمونو » (أى التعاليق) أو من نوع الستائر ولم تكن هذه الصورة ترسم لتعرض فى متاحف الفن عرضاً يخلو من استساغة المشاهدين لفنها — إذ ليس فى اليابان متاحف للفن — إنما كانت ترسم لتكون متعة لناظرى مقتنيها وأنظار أصدقائه ؛ أو كانت تُرسم لتكون جزءاً من زينة زخرفية فى معبد أو قصر أو منزل ؛ وكان من النادر جداً أن تصور تلك الرسوم أشخاصاً معينين ، إذ كان معظمها يصور لمحات من الطبيعة ، أو مشاهد من النشاط العسكرى ، أو قبسات فكهة أو تهكمية تصور ما يشاهده الفنان من طرائق العيش عند الحيوان أو بنى الإنسان نساء ورجالا .

كانت صورهم أقرب إلى أن تكون قصائد تعبر عن وجدان الفنان ، منها إلى أن تكون رسما لأشياء ؛ كما كانت أدنى شبهاً بالفلسفة منها بالتصوير

الفوتوغرافى ؛ فلم يحاول الفنان اليابانى أن يلتزم الواقع فى تصويره ، وقلما أراد أن يقلد برسمه الصورة الخارجية للشىء المرسوم ، فقد نفض يديه ، فى ازدراء من ظلال الأشياء ، على اعتبار أنها لا تتصل بجواهر الأشياء ، مؤثراً لنفسه أن يصور « فى الهواء الطلق » بمعنى أنه لا يتقيد بتجسيم الشىء بوساطة تأثير النور والظل ، وهو يبتسم ساخراً بالغربيين فى إصرارهم على أن يخضعوا الأشياء البعيدة لقواعد النظر فى رؤيته للأشياء على أبعاد ، بحيث تصغر تبعاً لذلك أو تكبر ، يقول « هوكاساى » — فى تسامح فلسفى — « إن التصوير اليابانى يمثل القالب واللون بغض النظر عن التجسيم . أما طرائق الأوربيين فتهدف إلى التجسيم والإيهام »[٧٤] أراد الفنان اليابانى أن ينقل شعوراً أكثر مما ينقل شيئاً ، أراد أن يوحى أكثر مما يعرض الشىء بأكمله كما هو ، ففى رأيه لا يلزم أن تبين من عناصر المنظر المرسوم أكثر من عدد قليل ، فالأمر هنا فى التصوير كالأمر فى الشعر اليابانى الذى لا يسمح بالزيادة فى القول عن مجرد القدر الذى يكفى لإثارة وجدان التقدير الفنى فى السامع بحيث يعمل خياله إعمالا يكمل به النتيجة الجمالية المراد بلوغها ، وكان المصور شاعراً ، يقدر إيقاع التخطيط ، ويقدر موسيقى القوالب ، أكثر جداً مما يقدر أشكال الأشياء وطرائق بنائها التى تختار اختياراً كما اتفق ، وهو كالشاعر يعتقد أنه لو أخلص لمشاعره ، فحسبه هذا القدر من الواقعية .

ويحتمل أن تكون كوريا هى التى جاءت بفن التصوير للإمبراطورية القلقة التى تم لها عندئذ غزوها ، وأغلب الظن أن بعض رجال الفن من كوريا هم الذين رسموا الصور الجدارية ذات الانسياب فى خطوطها والازدهار فى ألوانها التى تراها فى « معبد هوريوجى » ، لأنك لا تجد شيئاً فى تاريخ اليابان فيما قبل القرن السابع ، تفسر به مثل هذا الإنتاج القومى المفاجئ الذى بلغ فيه كمال الفن روعة لا يعيبها خطأ ، ثم جاءها الحافز الثانى من الصين

مباشرة ، حين ذهب إليها الكاهنان اليابانيان « كوبودايشى » و « دنجيودايشى » ليدرس فيها فن التصوير ، فلما عاد « كوبودايشى » (سنة ٨٠٦) إلى اليابان ، كرس نفسه للتصوير وللنحت وللأدب والعبادة فى آن معاً ، وبعض الآيات التى تعد من أقدم الآيات الفنية ، هى من نتاج فرجونه المتعدد المواهب ، وكانت البوذية أيضاً مصدر وحى للفنان فى اليابان كما كانت مصدر وحى له فى الصين ، فممارسة الحالة التأملية البوذية المعروفة باسم « زن » قد اتجهت ناحية الإبداع فى ناحيتى اللون والشكل ، بقوة تكاد تقرب من القوة التى اتجهت بها نحو الفلسفة والشعر ، وكثرت مناظر « اميدا بوذا » فى الفن اليابانى كثرة مناظر البشرى بمولد المسيح ومناظر صَلْبه على الجدران اللوحات التى ترجع إلى عهد النهضة الأوروبية ، والكاهن « ييشين سوزو » (مات سنة ١٠١٧) هو لليابان بمثابة « فرا انجليكو » و « إلى جريكو » لذلك العصر ، فتصويره لصعود « أميدا » وهبوطه جعله أعظم مصور دينى فى تاريخ اليابان ، وكان عندئذ « كوسى نو — كا نوكا » (حوالى ٩٥٠) قد بدأ فى جعل التصوير اليابانى علمانىَّ الصبغة ، وهاهنا بدأت الطيور والزهور والحيوان تنافس الآلهة والأولياء على لوحات التصوير .

غير أن فرجون « كوسى » كان ما يزال يتحرك على أساس القواعد الصينية ويفكر بعقول أهل الفن فى الصين ، ولم تبدأ اليابان فى قرونها الخمسة التى اعتزلت بنفسها فيها وأخذت خلالها تصور مناظرها هى ، وموضوعاتها هى ، بطريقتها الخاصة ، إلا حين وقفت علاقات الاتصال بين اليابان والصين فى القرن التاسع ، ونشأت مدرسة قومية لفن التصوير حوالى سنة ١١٥٠ ، تحت رعاية الدوائر الإمبراطورية والأرستقراطية فى كيوتو ، وأعلنت تلك المدرسة سخطها على ما يرد إلى البلاد من الخارج ، من حوافز وأساليب فى عالم الفن ، وأخذت على نفسها أن تزخرف منازل العاصمة الفاخرة ، برسوم زهور اليابان ومناظرها الطبيعية ، وكان لهذه المدرسة عدة أسماء ، كما كان لها عدة أعلام بارزين ، فيطلق عليها « ياماتو — ريو » أو الأسلوب

الياباني و « واجا – ريو » ومعناها كذلك الأسلوب الياباني ، و « كاسوجا » باسم مؤسسها المشهور ، وأخيراً يطلق عليها « مدرسة توسا » باسم أهم ممثل لها في القرن الثالث عشر ، وهو « توسا جون – نو – كومى » ، ومنذ ذلك الحين ، ظل اسم « توسا » يطلق على كل رجال الفن الذين ينتمون إلى تلك المدرسة ، وهى مدرسة جديدة بوصفها بالصفة القومية لأنك لا تجد فى الفن الصينى ما يقابل مما أنتجته فراجين أتباع هذه المدرسة من حيث القوة والثبات والتنوع والفكاهة ، مما تراه فى اللوحات التى تقص قصصاً عن الحب والحرب ؛ فحوالى سنة ١٠١٠ رسم « تاكايوشى » بالألوان رسوماً فخمة تصور حكاية « جنچى » وما فيها من غواية ، وسرّى « توبا سوچو » عن نفسه برسم صور تهكمية نابضة بالحياة ، يسخر فيها من أوغاد عصره وكهنته ، تحت ستار من القردة والضفادع ، ولما وجد « فوچيوارا تاكانوبو » قرب نهاية القرن الثانى عشر ، أن حَسَبَه الشريف لا يغنيه شيئاً مذكوراً فى إشباع حاجته من الطعام والشراب ، استدار للفرجون يكسب به عيشه ، ورسم صوراً عظيمة لـ « يورنيومو » وغيره ، لا تشبه فى شىء قط ما أنتجته الصين حتى ذلك الحين ، وصور ابنه « فوچيوارا نوبوزانى » ستاً وثلاثين صورة للشعراء ، محتملا ما فى ذلك العمل من صبر ، وفى القرن الثالث عشر ، رسم ابن « كاسوجا » وهو « كيون » – أو غيره . تلك اللوحات الحية التى تعد من أروع ما أنتجه العالم كله فى فن التصوير .

لكن هذه المصادر القومية التى كانت تبعث الوحى ، راحت تجف شيئاً فشيئاً ، بحيث تتحول إلى أوضاع تقليدية فى الأشكال والأساليب ، وعاد الفن اليابانى من جديد فالتمس غذاءه عند المدارس الجديدة التى كانت ناهضة فى الصين أيام « نهضة صنج » ، ولبث اليابانيون حيناً مدفوعين إلى تقليد الصين بغير ضابط ، واتفق الفنانون اليابانيون الذين لم يشهدوا « المملكة الوسطى »

ط ، أنفقوا أعمارهم فى رسم أشخاص ومناظر من الصين ، فرسم « شو دنو » ست عشرة صورة لأولياء بوذيين ، هى الآن بين الكنوز المعروضة فى متحف فرير » للفن فى وشنطن ، وأما « شوبون » فقد شاءت له ظروفه أن ولد وأن ينشأ فى الصين ، فلما جاء ليقضى حياته فى اليابان ، استطاع أن صور مناظر طبيعية صينية مستعيناً فى ذلك بذاكرته وبخياله معاً .

وكانت هذه الفترة الثانية من فترات التصوير اليابانى ، هى الفترة التى نجبت أعظم شخصية ظهرت فى تاريخ التصوير كله ، وهو « سشيو » الذى كان كاهناً من طائفة « زن » فى « سوكوكوجى » وهى مدرسة من المدارس الفنية كثيرة التى أقامها « يوسيمتسوا » الحاكم العسكرى من أسرة « أشيكاجا » ؛ قد استطاع « سشيو » هذا وهو لم يزل فى يفاعته أن يدهش بنى بلده برسومه ، تروى عنه أسطورة لم تدر كيف تعبّر عن إجلالها لفنه ، تروى أنه ربط ذات يوم إلى عمود لسوء سلوكه ، فرسم بأصابع قدميه جرذاناً بلغ شبهها بالجرذان الحية حداً جعل الحياة تدب فيها فتأتى لتقرض الوثاق الذى شد به[٧٥] ، ولما اشتد به الشوق إلى الاتصال بسادة الفن فى الصين حينئذ اتصالا مباشراً ، حصل على أوراق اعتماد رسمية من رؤسائه الدينيين ومن الحاكم العسكرى ، ثم عبر البحر ، لكن رجاءه خاب حين وجد التصوير الصينى فى طريقه إلى التدهور ، ثم عزى نفسه بما وجده فى تلك المملكة العظيمة من تنوع فى الحياة والثقافة ، وعاد إلى وطنه مملوءاً بآلاف الأفكار الجديدة التى توحى إليه بما ينبغى أن يفعله ، وتروى الرواية أن رجال الفن ورجال الطبقة العليا من أهل الصين ، صحبوه إلى السفينة التى أعادته إلى بلاده ، وأمطروه بورقات بيض ملتمسين منه أن يرسم فيها رسوماً تخطيطية بسطية — إن لم يَجُدْ عليهم بأكثر من ذلك — ثم يرسلها إليهم ، ومن ثم — هكذا تقول هذه الرواية — سمى باسمه الرمزى « سشيو » الذى معناه « سفينة الثلج »[٧٦] لأن الورقات البيض

تساقطت عليه كما يتساقط الثلج) والظاهر أنه لما بلغ اليابان استقبله الناس هناك استقبالهم لأمير ، ومنحه الحاكم العسكرى « يوشيماسا » منحاً كثيرة ، لكنه رفض هذه المنح كلها – لو أخذنا بما نقروؤه عن الأمر – وعاد فأوى إلى أبراشيته الريفية فى « شوشو » وهناك راح ينثر الفن نثراً ، واحدة فى إثر واحدة ، كأنما ينتج فى كل لحظة نتاجاً تافهاً عابراً أوحت به ظروف اللحظة الراهنة ، حتى كاد يخلّد بصوره كل جوانب الصين فى مناظرها وحياتها ؛ فقلما رأت الصين مثل هذا التنوع كله فى موضوعات التصوير عند الفنان الواحد – ولم تر اليابان مثل ذلك قط فى تاريخها – كلا ولا رأت مثل هذه القوة فى التصور والتصوير معاً ، وفى ثبات الخطوط ، ولما بلغ الشيخوخة ، دقّ رجال الفن فى اليابان طريقاً إلى بابه وكرموه فجعلوه – حتى قبل موته – فناناً فى طليعة الركب ؛ وإن الصورة بريشة « سشيو » لتقدر اليوم عند هواة الصور من اليابانيين ، بمثل مايقدر به هواة الأوروبيين صورة بريشة ليوناردو ؛ وتروى أسطورة من تلك الأساطير التى تحول الأفكار الغريبة إلى حكايات لطيفة ، أن رجلا كان يملك صورة من رسم « سشيو » ثم اشتعلت النار بمنزله بحيث كان يستحيل عليه النجاة ، فبقر بطنه بقراً بسيفه ودسّ فى معدته قماشة الصورة النفيسة – ووجدت الصورة بعدئذ سليمة من التلف داخل جثمانه الذى كانت النار قد أكلته إلى نصفه(٧٧) .

واستمر ازدياد التأثير الصينى فى كثير من رجال الفن الذين كانوا فى كنف أمراء الإقطاع من الأسرتين العسكريتين : «أشيكاجا» و «توكوجاوا » ؛ وكان لكل أمير فى حاشيته مصوره الرسمى الذى نيط به أن يدرب مئات الفنانين الناشئين الذين قد تدعو الحاجة المباغتة إلى استخدامهم فى زخرفة أحد القصور ؛ إذ كانت المعابد عندئذ تُنسى ، لأن الفن كان فى طريق التحول إلى المجال الدنيوى كلما ازدادت البلاد ثراء ؛ ولما دنا القرن الخامس عشر من ختامه ، أنشأ « كانوماسانوبو » فى كيوتو تحت رعاية « أشيكاجا » مدرسة

الفنانين العلمانيين ، أطلق عليها الجزء الأول من اسمه ، وجعلها تتجه بجهدها كله نحو الاحتفاظ بكل شدة بالتقاليد الكلاسيكية الصينية فى الفن اليابانى ؛ بلغ ابنه « كانو موتونوبو » فى هذا الاتجاه مبلغاً جعله علماً لا يمتاز عليه إلا « سشيو » وحده ؛ وإن قصة لتروى عنه فتبين بياناً واضحاً كيف أن تركيز الانتباه والثبات على غاية واحدة هما اللذان يكونان العبقرية ؛ تقول عنه القصة أنه قد طُلِب إليه أن يصور عدداً من طيور الكركى ، فشوهد مساء بعد مساء يمشى مشية الكركى ؛ واتضح أنه كان فى كل ليلة يقلد الكركى الذى كان مصمماً على تصويره فى اليوم التالى ؛ فيظهر أن الإنسان لا بد له من الذهاب إلى مخدعه والغاية المنشودة نصب عينيه ، حتى يستيقظ فى الصباح مشهوراً ، وظهر حفيد لـ « موتونوبو » — هو « كانوييتوكو » فطوَّر على يديه تحت رعاية هيديوشى ، نمطاً فنياً أبعد ما يكون عن الكلاسيكية المتزمتة التى اصطنعها أسلافه ، على الرغم من أنه كان فرعاً من أسرة « كانو » ، وجاء « تانيو » فنقل مركز المدرسة من كيوتو إلى يبدو ، وعمل فى كنف أفراد أسرة « توكوجاوا » وعاون فى زخرفة مقبرة « أيياسو » فى « نكو » وبالرغم من كل هذه المحاولات نحو مواءمة الفن لظروف العصر ، فقد استنفدت أسرة « كانو » دوافعها إلى الفن على مر الزمن ، وأدارت اليابان وجهها نحو أعلام آخرين يبدءون لها فى تاريخ فنها شوطاً جديداً .

وهكذا ظهرت طائفة أخرى من رجال التصوير سنة ١٦٦٠ ، وأطلق عليها اسم علَمَيها الزعيمين ، إذ سميت « مدرسة كويتسو — كورين » ، وكان من طبيعة التذبذب الذى يطرأ على الفلسفات وأنماط الفن ، أن تنظر هذه المدرسة الجديدة إلى الأوضاع والموضوعات الصينية التى عنى بها « سشيو » و « كانو » نظرتها إلى الشيء الرجعى الذى أبلاه الزمان ؛ وتلفت الفنانون الجدد يبحثون عن مناظر فى بلادهم نفسها ، واستوحوا بلادهم الإلهام الفنى والموضوعات التى يديرون فيها فنهم ذاك ؛ وكان « كويتسو » رجلا بلغ به



قردة وطيور رسمها سشيو فى القرن الخامس عشر

تنوع المواهب حداً يذكّرنا بما قاله « كارلايل » غيرةً من سواه من العظماء ، إذ قال إنه لا يعرف عظيما واحداً لم يكن ليستطيع أن يكون عظيما فى أى مجال شاء ؛ ذلك أن « كويتْسو » هذا كان ممتازاً فى الخط وممتازاً فى التصوير ، وممتازاً فى الرسم على المعادن و « اللاكيه » والخشب ؛ وهو شبيه بـ « وليم موريس » فى قيامه بحركة إحيائية فى سبيل الطباعة الجميلة ، وأشرف على قرية قام فيها صُنَّاعُه بمختلف ألوان الفن تحت إرشاده[٧٨] ولم ينافسه الزعامة فى التصوير فى عهد « توكوجاوا » إلا « كورين » ذلك المصور البارع للأشجار والأزهار ، الذى يحدثنا عنه معاصروه فيقولون إنه كان يستطيع بجرة واحدة من فرجونه أن يطبع ورقة من أوراق السوسن على قماشة الحرير فتحيا[٧٩] ولست تجد مصوراً سواه تمثلت فيه الروح اليابانية الخالصة كاملة كما تمثلت فيه ، أو أظهر الروح اليابانية كما أظهرها هو إظهاراً جعله بمثابة النمط لليابان كلها فى سلامة ذوقه ودقة فنه(*) .

وآخر مدارس التصوير اليابانية التى يسجلها التاريخ ، بمعنى كلمة التصوير الدقيق ، مدرسة أسسها « ماروياما أوكيو » فى كيوتو فى القرن الثامن عشر ؛ وكان « أوكيو » هذا رجلا من الشعب ، حركت نوازع الفن فى نفسه معرفته اليسيرة بالتصوير الأوروبى ، فصمم أن يهجر الأساوب القديم بما فيه من نزعة مثالية ونزعة تأثرية قد نفدت منهما عصارة الحياة ، وأن يحاول وصفاً واقعياً لمشاهدة بسيطة يختارها من الحياة اليومية الجارية ؛ وأغرم غراماً خاصاً برسم الحيوان ، واحتفظ بصنوف كثيرة من أنواع الحيوان تعيش حوله ليتخذ منها موضوعات لفنه ؛ وقد حدث مرة أن رسم خنزيراً متوحشاً وأطلع الصيادين

(*) ظفر متحف الفن المعروف باسم متروبولتان فى نيويورك ، بصورة من صور « كورين » يقول عنها « ليدو » إنها : « من أعظم آيات نوعها التى سمح لها بالخروج من اليابان[٨٠] » .

على صورته فخاب رجاؤه حين ظن هؤلاء الصيادون أن الخنزير المرسوم يصور خنزيراً ميتاً ، فلبث يحاول ثم يحاول ، حتى رسم صورة لخنزير قال عنها الصيادون إن الخنزير الذى تصوره ليس ميتاً ، ولكنه نعسان(٨١) ، ولما



ستار متموج ، رسم كورين

كانت الطبقة العالية فى كيوتو مفلسة ، اضطر « أوكيو » أن يبيع صوره لأبناء الطبقة الوسطى ، ولعل هذه الضرورة الاقتصادية هى التى ألزمته إلى حد كبير أن يختار لفنه موضوعات شعبية ، لدرجة أنه جعل يصور بعض غانيات

كيوتو ، وصعق لذلك فنانو الجيل السابق لجيله ، ولكنه مضى فى طريقه خارجاً على التقاليد ؛ وجاء « مورى سوزان » فتقبل زعامة « أوكيو » فى التزام الطبيعة فى الفن ، وقصد إلى حيث تسكن الحيوانات فعاش بينها لكى يتاح له الإخلاص فى تصويرها ، حتى أصبح أعظم مصور يابانى فى رسم القردة والغزلان ؛ فلما مات « أوكيو » (١٧٩٥) كان الواقعيون قد كسبوا السيادة التامة على فن التصوير ، واستطاعت مدرسة شعبية خالصة أن تستوقف الأنظار ، لا فى اليابان وحدها ، بل فى أرجاء العالم كله .

الفصل العاشر

الصور المحفورة

مدرسة « يوكيويي » - مؤسسوها - أعلامها - هوكوسا - هيروشيجا

إنها لأضحوكة أخرى من أضاحيك التاريخ أن يكون الفن اليابانى أقربه إلى الغرب علماً وأعمق فيه تأثيراً ، عن طريق جانب من جوانبه ، هو أقل تلك الجوانب منزلة فى اليابان نفسها ؛ فقد تحول فيما يقرب من منتصف القرن الثامن عشر ، فن الحفر الذى كان قد وفد على اليابان فى ثنايا التعاليم البوذية وملحقاتها قبل ذاك بخمسمائة عام ، تحول فأصبح أداة لتوضيح الكتب وحياة الناس بالرسوم ، ذاك أن الموضوعات القديمة والطرائق القديمة كانت قد فقدت رونق الجدة ففقدت بذلك اهتمام الناس بها ، إذ أترع هؤلاء الناس بصور القديسين البوذيين والفلاسفة الصينيين ، والحيوانات التى استغرقت فى التأمل ، والزهور التى ترمز للطهر والبراءة ؛ ونهضت طبقات جديدة من الناس فاحتلت مكان الصدارة ، وافتقدت فى الفن تصويراً لشئون حياتهم ، وراحت تخلق من رجال الفن من يُقبل راضياً على إشباع تلك الرغبات ؛ فلما كان التصوير يتطلب فراغاً ونفقات ، ولا ينتج إلا صورة واحدة فى المرة الواحدة ، عمل الفنانون الجدد على إصطناع فن الحفر لتحقيق غاياتهم ، فحفروا الصور فى الخشب ، وبذلك تمكنوا من إصدار عدد رخيص من الصورة الواحدة بمقدار ما يطالب سوادُ الشارين فى السوق ، وكانت هذه الرسوم المحفورة تلوَّن باليد أول الأمر حتى إذا جاء عام ١٧٤٠ صنعت ثلاثة « كليشيهات » للصورة الواحدة : واحدة لا لون فيها ، وثانية لوِّن جانب منها باللون الأحمر الوردى ، وثالثة لونت فى بعض أجزائها باللون الأخضر ، ثم كانت الأوراق المراد طبعها توضع على « الكليشيهات » بالتناوب ، وأخيراً فى

سنة ١٧٦٤ صنع « هارونوبو » أول كليشيهات متعددة الألوان ، فمهد بذلك الطريق إلى تلك الرسوم الناصعة التي رسمها « هوكوساى » و « هيروشيجى » : والتي جاءت للأوروبيين الذين ملوا الثقافة القائمة وتحرقوا ظمأ لكل ما هو جديد . جاءت تلك الرسوم للأوروبيين حافزاً وموحياً ؛ وهكذا ولدت مدرسة « يوكيوبى » التي جعلت موضوعها « صور الحياة العابرة » :



ثعالب ، رسم هيروشيجى

ولم يكن مصوروها أول من جعل الإنسان العارى من الألقاب موضوعاً للفن ، فقد سبق لـ « إواسا ماتابى » فى أوائل القرن السابع عشر أن أدهش فئة « السيافين » بتصويره على ستار سداسىّ الجوانب رجالا ونساء وأطفالا فى

أوضاع الحياة اليومية بغير تحفظ ؛ وقد وقع اختيار الحكومة اليابانية سنة ١٩٠٠ على هذا الستار « واسمه هيكونى بيوبو » لعرضه فى باريس ، وأمّنت على سلامته أثناء الرحلة بثلاثين ألف ين (وهو ما يعادل خمسة عشر ألف ريال)[٨٢] وفى سنة ١٦٦٠ صنع « هيشيكاوا مورونوبو » مصور الزخارف على الأقمشة فى مدينة كيوتو ، أول رسوم بالكليشيهات ، صنعها أول الأمر لتطبع فى الكتب توضيحاً لمادتها ، ثم صنعها ليستخدمها فى طبع رسوم وبيعها للشعب كما تباع البطاقات المصورة عندنا اليوم ؛ وحوالى سنة ١٦٨٧ ، انتقل « توروكوچوموتو» مصور المناظر فى مسارح «أوساكا» انتقل إلى « ييدو » وعلّم مدرسة « يوكيوى » (التى كانت محصورة فى العاصمة وحدها) كيف يمكنها أن تستفيد من الوجهة المالية ، إذا هى اتجهت نحو تصوير الرسوم المحفورة لمشاهير الممثلين فى ذلك العصر ، وبعدئذ انتقل الفنانون الجدد من المسرح إلى مواخير الدعارة فى « يوشيوارا » فخلعوا بفنهم مسحة من الخلود على على كثيرات من ربات الجمال الزائل وهكذا دخلت الأثداء العارية والأطراف المتلألئة — بعد أن خلعت عذارها — حرم فن التصوير اليابانى الذى كان لا يدخله من قبل إلا موضوعات الدين والفلسفة .

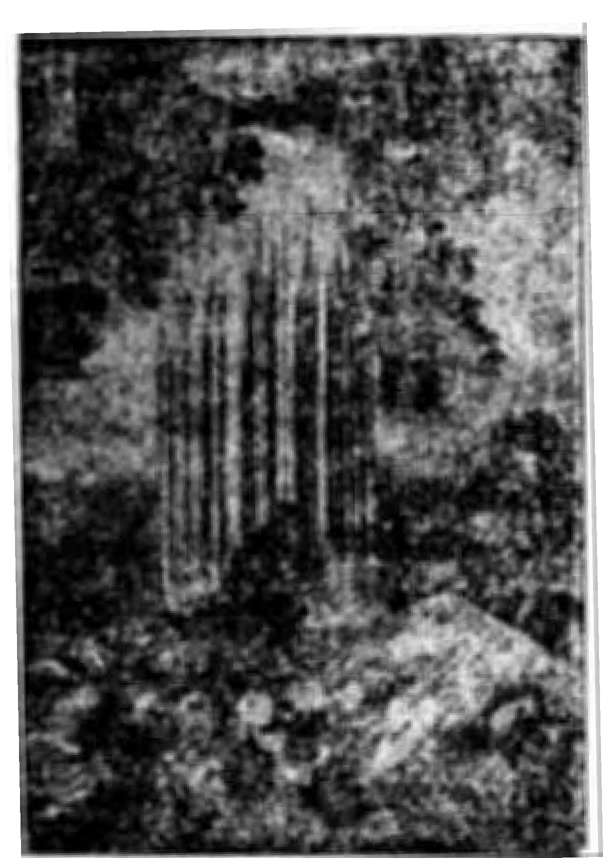
وظهر أعلام هذا الفن الذى تقدم وتطور ، حول منتصف القرن الثامن عشر ؛ فقد صنع «هارونو بو » رسوماً تحتوى على اثنى عشر لوناً ، بل خمسة عشر لوناً ، مستخدماً فى ذلك كليشيهات بعدد الألوان ، ولما أحس لذعة الضمير لرداءة ما صوره فى سابق عهده للمسرح ، راح يعوض عن ذلك برسوم تتجلى فيها الرقة اليابانية ، يعرض فيها ألوان الشباب المرح فى عالمه الشيق وبلغ « كيوناجا » أوج الفن فى هذه المدرسة وجعل يستخدم اللون والخطوط متداخلا بعضه فى بعض ، فى رسمه لسيدات من الطبقة العالية مستقيمات القامة، دون أن تؤثر تلك الاستقامة فى مرونة البدن ؛ وأما « شاراكو» فالظاهر أنه لم

ينفق أكثر من عامين فى حياته لتصميم الرسوم المحفورة ، لكنه فى هذا الأمد القصير استطاع أن يرقى إلى طليعة العاملين فى هذا الفن ، بفضل صوره عن « الأولياء (الرونين) الأربعة والسبعين » ، ورسومه التى أفحشت فى سخريتها بـ «نجوم» المسرح الهاويات من سمائها ؛ وصور «أوتامارو » الذى عرف بالخصوبة فى نبوغه وتنوع قدرته ، كل ضروب الأحياء من الحشرات إلى الفاجرات ، فقد قضى نصف حياته العاملة فى الـ « يوشيوارا » وأرهق نفسه متعةً وعملا ، وزج فى السجن عاماً (١٨٠٤) لرسمه « هيديوشى » محاطاً بأربع غانيات من خليلاته[٨٣] ؛ وكأنما مل « أوتامارو » تصويره لغمار الناس فى أوضاع الحياة العادية ، فأخذ يصور سيداته الرقيقات المهذبات فى رشاقة تكاد تقول عنها إنها رشاقة روحانية ، صورهن برءوس مائلة قليلا ، وعيون مستطيلة منحرفة ، ووجوه طويلة ، وقدود عجيبة لفّتها ثياب مناسبه كثيرة الطبقات ؛ ثم فسد فى الذوق فأفسد هذا النمط الفنى بحيث جعله متكلفاً ممقوتاً ، فانحدرت مدرسة « يوكيوبى » إلى ما يدنو من الفساد والتدهور ، لولا أن قام بها زعيماها المشهوران فمدا من حياتها نصف قرن آخر

أما أحدهما فهو « هوكوساى » الذى نعت نفسه « بالرجل الكهل الذى جُنَّ بالتصوير » ، وقد امتد به العمر إلى ما يقرب من تسعين عاماً ، ومع ذلك كتب يرثى لبطء سيره نحو الكمال وقصر أمد الحياة ، فقال :

« لقد تولانى جنون عجيب منذ السادسة من عمرى برسم كل ما يصادفنى من الأشياء كائناً ما كان ، فلما بلغت الخمسين كنت قد نشرت عدداً من آثارى مختلفة أنواعها ، لكن لم أطمئن إلى أى منها اطمئناناً تاماً ، ولم يبدأ عملى الحق إلا حين بلغت السبعين ، وهأنذا الآن فى الخامسة والسبعين ، وقد استيقظ فى نفسى حب الطبيعة بمعناها الصحيح ، ولذا ترانى آمل أن أظفر عند الثمانين بقوة من إدراك البصيرة يظل ينمو معى حتى أبلغ التسعين ، فإذا ما بلغت

المائة كان لى — فى أغلب الظن — أن أقرر تقرير الواثق بأن إدراك بصيرتى قد أصبح إدراكاً فنياً خالصاً ؛ ولو وهبنى الله أن أعيش حتى العاشرة بعد المائة كان رجائى عندئذ أن يشعَّ من كل خط أسطره بل من كل نقطة أخطها فهمٌ جوهرى صحيح بالطبيعة .:. وإنى لأطلب من أولئك الذين سيمتد بهم العمر



مساقط يورو ، رسم هوكوساى

يمتد بى أن يروا إن كنت ممن ينمون بما يعدون أو لم أكن ، لقد كتبت هذا وأنا فى سن الخامسة والسبعين ، أنا الذى كان اسمه « هوكوساى » أصبح الآن يدعى « الرجل الكهل الذى جُنَّ بالتصوير »[84]

وكان شأنه شأن سائر رجال الفن من مدرسة « يوكيويى » من حيث إنه

نشأ من طبقة العمال ، فهو ابنٌ لصانع كان يصنع المرايا ، وألحقوه بفنان يدعى « شنسو » ليأخذ عنه الفن ، لكنه لم يلبث أن طرد لإصالته وعاد إلى أسرته ليعيش فقيراً شقياً مدى حياته الطويلة ، ولم يستطع أن يعيش بتصويره ، فراح يجول فى المدينة بائعاً للطعام وكراسات التقويم ، وحدث أن احترقت داره ، فلم يزد على إنشائه هذه العبارة من الشعر :

لقد احترقت الدار .

فما كان أجل الزهور وهى تهوى[٨٥] ! .

وجاءه الموت وهو فى التاسعة والثمانين ، واستسلم له كارهاً وهو يقول : « لو وهبتنى الآلهة عشرة أعوام أخرى فقط لأمكننى أن أكون فناناً عظيما بحق[٨٦] .

وخلف وراءه خمسمائة مجلد تحتوى على ثلاثين ألف صورة كلها مخمور بروح الفن اللاشعورى حين يتناول الطبيعة فى شتى صورها ؛ فقد رسم — محباً لما رسم مكرراً له فى أوضاع مختلفة — رسم الجبال والصخور والأنهار والجسور ومساقط الماء والبحر ، وحدث بعد أن فرغ من نشره لكتاب « ست وثلاثين صورة من مناظر فيوجى » أن قفل راجعاً ليجلس عند سفح الجبل المقدس من جديد ، : كما فعل الكاهن البوذى المفتون الذى تروى عنه الأساطير(*) ، وهناك رسم « مائة منظر من فيوجى » ، ونشر سلسلة أسماها « أخيلة الشعراء » عاد فيها إلى الموضوعات الرفيعة التى كان يتناولها الفن اليابانى من قبل ، وكان من بين هذه المجموعة منظر يصور « لى پو » العظيم بجانب الوادى الصخرى ومسقط الماء يطلق عليهما « لو » .

وفى سنة ١٨١٢ نشر الجزء الأول من مجموعة قوامها خمسة عشر جزءاً ،

(*) الكاهن الذى يروى عنه أنه أبعد من اليابان نفياً ، فجعل يعبر البحر بموكبه كل يوم لينظر إلى « الجبل المقدس » .

أسماها « مانجو » — وهى سلسلة من صور واقعية تشتمل على الأخص تفصيلات الحياة اليومية الجارية تلذع بما فيها من فكاهة ، وتفحش بما تحتوى عليه من تشهير مُقنَّع ، وقد كان ينثر هذه الصور نثراً دون عناية أو مجهود ، فيخرج منها اثنتى عشرة كل يوم حتى صور بها كل ركن من أركان الحياة الشعبية فى اليابان ، ولم تكن الأمة قد شهدت قط من قبل مثل هذه الخصوبة ولا مثل هذا التصور العقلى السريع النافذ ، ولا القدرة على التنفيذ بكل هذه الحيوية الجامحة ، وكما أن رجال النقد فى أمريكا قد قللوا فى حسابهم من شأن « وِتْمان » فكذلك قلل رجال النقد ودوائر الفن فى اليابان من شأن « هوكوساى » فلم يروا إلا فورة فرجونه وسوقية عقله التى تتبدى آناً بعد آن ، لكن جيرانه لما مات — جيرانه الذين لم يكونوا يعلمون أن « وِسْلَرْ » قد أخذه التواضع لحظة فوضعه فى أعلى منزلة من منال الفن التى لم يحتلها أحد سواه منذ « ڤلاسكويز » — أقول إنه لما مات دهش جيرانه حين رأوا كل تلك الجنازة الطويلة تنبعث من ذلك المنزل المتواضع .

وآخر شخصية برزت من مدرسة « يوكيوئى » هو « هيروشيجى » (١٧٩٦ — ١٨٥٨) الذى يقل شهرة عن « هوكوساى » فى البلاد الغربية ، لكنه أكثر منه احتراماً فى الشرق ، وتنسب إليه مائة ألف صورة حفرية متميزة الخصائص ، وكلها يصور المناظر الطبيعية فى بلاده تصويراً فيه من الإخلاص ما ليس فى رسوم « هوكوساى » ، وفيه فنٌ أنزل « هيروشيجى » منزلة قد تجعله أعظم من صوَّر المناظر الطبيعية من أهل اليابان ؛ فقد كان « هوكوساى » إذا وقف إزاء الطبيعة لا يرسم المنظر كما يبدو ، بل يرسم خيالا شاطحاً يوحى إليه بالمنظر الذى يراه ، أما « هيروشيجى » فقد أحب الطبيعة نفسها بشتى صورها ، ورسمها بدرجة من الإخلاص تمكن الرحالة الذى يمرّ بالأجزاء التى رسمها أن يتبين الأشياء والسفوح التى أوحت إليه بصوره تلك ،

وفى وقت يقع حوالى سنة ١٨٣٠ أخذ طريقه فى السكة الرئيسية التي تمتد من طوكيو إلى كيوتو ، فكان فى رحلته شاعراً بأدق معنى الشاعرية حين لم يقصد توآ إلى غايته المقصودة ، بل سمح لنفسه أن تنشغل بالمناظر التى استثارتها وهو فى الطريق ؛ فلما فرغت رحلته جمع انطباعاته بتلك المناظر فى مجموعة له مشهورة اسمها « المحطات الثلاثة والخمسون على الطريق العام » (١٨٣٤) ، وقد أحب رسم المطر والليل فى كل صورهما المشبعة بروح الغموض ، ولم يفُقْه فى ذلك إلا « وِسلرْ » الذى جرى على غراره فى رسمه لمناظر المساء[٨٨] ، وكذلك أحب « هيروشيجى » « فيوچى » كما أحبها « هوكوساى » ورسم لجبالها « المناظر الستة والثلاثين » غير أنه أحب معها مسقط رأسه « طوكيو » ، ورسم « مائة منظر من مناظر ييدو » قبيل موته ، ولئن لم يعمِّر ما عُمِّره « هوكوساى » إلا أنه أسلم شعلة الفن وهو مطمئن لما صنع :

إنى أترك فرجونى فى « أزوما »

وأتابع رحلتى « إلى الغرب المقدس »

لكى أشاهد المناظر المشهورة هناك (*)[٨٩]

(*) يوجد فى متحف بوسطن مجموعة رائعة من الرسوم المحفربة التى « رسمها هيروشيجى »

الفصل الحادي عشر

فن اليابان وحضارتها

مراجعة – موازنات – تقدير – خاتمة اليابان القديمة

كانت الرسوم الحفرية فى اليابان آخر مرحلة تقريباً من مراحل تلك المدنية اللطيفة الرقيقة التى اندك بناؤها تحت ضغط الصناعة الغربية ، كما أن تشاؤم العقل الغربى ومرارة نظرته إلى العالم اليوم ، قد يكونان آخر مظهر من مظاهر مدنية أراد لها القضاء أن تموت تحت وطأة الصناعة الشرقية ؛ ولما كانت اليابان فى عصورها الوسطى التى امتدت حتى عام ١٨٥٣ غير ذات أذى لنا ، كان فى مستطاعنا أن نقدر جمالها تقديراً فيه العطف والرعاية ؛ وإنه لمن العسير علينا أن نرى فى اليابان بعد أن أقامت المصانع التى تنافس مصانعنا ، وأقيمت بها المدافع التى تتهدد سلامنا ، من العسير علينا أن نرى فى مثل هذه اليابان ذلك السحر الذى يفتننا حين ننظر إلى مختارات ماضيها الجميلة ؛ وقد ننظر أحياناً نظرة عقلية هادئة ، فندرك أن تلك اليابان القديمة شهدت كثيراً من العسف ، وأن الفلاحين كانوا يعيشون فى فقر ، والعمال يقيمون على ضيم ، وأن النساء كن إماء يُبَعْنَ وقت الشدة لمتعة من شاء أن يستمتع ، وأن الحياة كانت رخيصة وأنه فى النهاية لم يكن ثمت قانون يحمى الرجل من سواد الشعب إلا سيف « السياف » ؛ لكن الأمر فى أوربا كان على هذه الحال نفسها : كان الرجال يصطنعون القسوة وكانت المرأة خاضعة للرجل ، وكان الفلاحون يعيشون فى فقر ، والعمال يقيمون على ضيم ، وكانت الحياة عسيرة والفكر الحر مجلباً للخطر ، ولم يكن فى النهاية من قانون سوى إرادة سيد الإقطاع أو الملك .

وكما أننا قد نشعر بالحب لأوربا القديمة التي شهدت كل هذا ، لأنها وسط

ما غمرها من فقر واستغلال وتعصب ، استطاع أهلها أن يبنوا الكنائس بناء يعنون فيه بنحت كل حجر من أحجاره نحتاً جميلا ؛ وراحوا يضحون بأنفسهم ليكسبوا لخلفهم حق التفكير ؛ أوكانوا يقاتلون فى سبيل العدالة حتى خلقوا بقتلهم تلك الحريات المدنية التى هى أنفس جزء من تراثنا وأكثره تعرضاً للزوال ؛ فكذلك كان وراء صليل سيوف السيافين (فى اليابان) ما يستحق التمجيد من شجاعة لا تزال تبث فى اليابان قوة فوق ما يتناسب مع عدد أهلها أو كمية تراثها ، وكذلك نستطيع أن نتبين وراء الرهبان الكسالى شاعرية البوذية ، وقدرتها التى لا تنفذ على الإيحاء بالشعر والفن ؛ ونستطيع كذلك أن نستشف وراء الصفعة القوية التى تنم عن القسوة ، والوقاحة الظاهرة التى يعامل بها القوىّ الضعيف ؛ نستطيع أن نستشف وراء هذا كله أرق ضروب الأخلاق ، وأبهج ألوان المحافل ، وإخلاصاً لجمال الطبيعة فى كل صورها لا يدانيه إخلاص ، ثم نستطيع أن نرى وراء استعباد المرأة ، جمالها ورقتها ورشاقتها التى لا تنافسها فيها امرأة أخرى ؛ ووسط مظاهر الاستبداد الذى يظلل الأسرة ، ترن فى آذاننا أصوات السعادة تنبعث من الأطفال وهم يلعبون فى جنة الشرق .

إن شعر اليابان الذى يضبط فيه الشاعر نفسه ضبطاً يؤديه إلى الاقتضاب ، والذى تستحيل ترجمته ، لا يحرك اليوم مشاعرنا تحريكاً قويا ؛ ومع ذلك فهذا الشعر نفسه ــ فضلا عن الشعر الصينى ــ هو الذى أوحى لنا « بالشعر المرسل » و« التصوير الشعرى » اللذين نعهدهما فى شعرنا اليوم ؛ ولم تعرف اليابان إلا قليلا من الفلاسفة ، وكذلك يندر جداً فى مؤرخيها أن تجد روح الحياد الرفيع الذى يصادفك عند قوم لا يكتبون الكتب لتكون ملحقاً لقوتهم العسكرية أو السياسية ؛ لكن هذه أشياء تعدّ من الصغائر فى حياة اليابان ، لأنها أنفقت جهدها كله فى اتجاه حكيم ، وهو أن تخلق صور الجمال أكثر مما تتعقب الحق ، وكانت الأرض التى عاش عليها اليابانيون أشد غدراً من أن تقوم عليها عمارة

شامخة ، ومع ذلك فالدُّور التى كانت تبنيها تلك البلاد هى « أجمل ما خططه العالم من دُورإذا نظرنا إليها من وجهة نظر جمالية »[٩٠] ولم ينافسها فى العصور الحديثة بلد آخر فى رشاقة تحفها الصغيرة وجمالها — كثياب النساء والمراوح والشمسيات ، والفناجين ولعب الأطفال ، والمدليّات والعُقَد الحريرية المزخرفة ؛ وروعة الطلاء « باللاكيه » والنحت الرائع فى الخشب ، ولم يبلغ أى شعب حديث ما بلغه الشعب اليابانى من ضبط الزخارف ورقتها ، أو من شيوع الذوق المرهف الأصيل ، نعم إن الخزف (البورسلان) اليابانى لاينزل فى التقدير — حتى فى نظر اليابانيين أنفسهم — منزلة الخزف الذى كان يصنع فى « صنج » و « منج » (فى الصين) لكنه إن كانت الصين وحدها قد بزتها فى تلك الصناعة ، فإن عمل الخزاف اليابانى ما يزال يعلو على مثيله من نتاج الأوربيين المحدثين ؛ ولئن كان التصوير اليابانى تعوزه قوة التصوير الصينى وعمقه ، ثم لئن كانت الرسوم الحفرية اليابانية قد تسوء حتى تبلغ أن تكون مجرد رسوم للإعلان ، وهى فى أجود حالاتها لا تزيد على كونها إثباتاً سريعاً لتوافه كانت قمينة أن تزول وشيكاً ، فأضيف إليها شىء مما يميز الفن اليابانى من تمام الرشاقة وكمال التخطيط ، فإن التصوير اليابانى — لا التصوير الصينى — وإن الرسوم الحفرية اليابانية لا ألوانها المائية ، هى التى أحدثت الثورة فى فن التصوير إبان القرن التاسع عشر ، وهى التى كانت حافزاً لإجراء مئات التجارب الفنية البديعة الطريفة ؛ ولما أعيد التبادل التجارى بعد سنة ١٨٦٠ بين أوروبا واليابان كانت تلك الرسوم الحفرية التى تدفقت إلى أوربا فى ذيل التجارة ، هى التى أثرت أعمق الأثر فى « مونيه » و « مانيه » و « ديجا » و « وِسْلَرْ » فهؤلاء قد أقاموا إلى الأبد عن « الصلصة البنية اللون » التى لازمت التصوير الأوروبى كله تقريباً من « ليونا ردو » إلى « مِلِيتْ » وملأوا رقعات التصوير فى أوروبا بصور الشمس ، واستحثوا المصور الفنان أن يكون أقرب إلى الشاعر منه إلى الفوتوغرافى ؛ يقول « وِسْلَرْ » فى اعتداد جعل

الناس جميعاً إلا معاصريه يكبرونه « لقد تمت بالفعل قصة الجمال ، لأنه تبدى منحوتاً فى المرمر الذى تراه فى البارثنون ، ولأنه مُوَشَّى على هيئة الطير فى المروحات التى رسمها « هوكوساى » على سفح فيوجى ياما »[19] .

وإنا لنرجو ألا يكون هذا القول صواباً ، لكنه كان هو الصواب فى رأى اليابان القديمة وإن لم تصرح به ؛ وماتت اليابان القديمة بعد « هوكوساى » بأربعة أعوام ، ذلك لأنها عاشت حياة وادعة رخية فى عزلتها البعيدة ، فنسيت أن الأمة لا بد أن تساير العالم إذا أرادت ألا يستعبدها المستعبدون ، فبينما كانت اليابان فى شغل من نحتها للمدليات وزخرفتها للمروحات بالزهر ، كانت أوروبا تنشئ علماً لم يكد يعلم الشرق عنه شيئاً ، وأخيراً تمكن ذلك العلم الذى قام بناؤه على مر الأعوام فى المعامل التى يبدو فى ظاهرها أنها فى عزلة بعيدة عن مصطخب الحياة الجارية ، تمكن آخر الأمر من تزويد أوروبا بالصناعات الآلية التى أتاحت لها أن تصنع لوازم العيش بثمن أرخص مما تصنعها به آسيا على أيدى مهرة صناعها الذين كانوا يصنعونها بأيديهم ، وإن تكن تلك المصنوعات الآلية أقل جمالا من زميلاتها اليدوية ، فقد كان لا بد لتلك السلع الرخيصة — عاجلا أو آجلا — أن تكتسح أسواق آسيا ، فتنزل الخراب الاقتصادى وتغير من الحياة السياسية ، فى بلاد كانت تمرح مطمئنة فى مرحلة الصناعة اليدوية ، وأسوأ من ذلك شراً أن العلم قد صنع المفرقعات والمدمرات والمدافع ، التى تستطيع أن تكون أشد فتكاً من سيف أشجع « السيافين » فماذا تجدى شجاعة الفارس أمام فزع القنبلة التى لا يُعرف اسم راميها ؟

ولن تجد فى التاريخ الحديث أروع ولا أعجب من الطريقة التى استيقظت بها اليابان من نعاسها استيقاظاً جازعاً على صوت مدفع الغرب ، فوثبت تتعلم الدرس ، وأصلحت صنع ما تعلمت صنعه ، وأفسحت صدرها للعلم والصناعة والحرب ، ثم هزمت كل منافسيها فى ميدان الحرب وميدان التجارة معاً وباتت خلال جيلين أكثر أمم العالم المعاصر تحفزاً للعدوان .

الباب الحادي والثلاثون

اليابان الجديدة

الفصل الأول

الثورة السياسية

تدهور الحكم العسكرى – أمريكا تطرق الباب – عودة السلطة الإمبراطورية
تغريب لليابان – التجديد السياسى – الدستور الجديد – القانون – الجيش
الحرب مع الروسيا – نتائجها السياسية

يندر أن يأتى الموت إلى مدينة من خارجها ، بل لا بد للانحلال الداخلى أن يفت فى نسيج المجتمع أولا قبل أن يتاح للمؤثرات أو الهجمات الخارجية أن تغير جوهر بنائها ، أو أن تقضى عليها قضاء أخيراً ؛ فقلما يكون للأسرة الحاكمة تلك الحيوية الدءوب والمرونة السريعة التشكل، اللتان يتطلبهما استمرار السيادة ، فمؤسس الأسرة المالكة يستنفد نصف القوة الكامنة فى أصلاب أسرته ثم يترك لغير الممتازين من خلفه عبئاً لا يستطيع حمله إلا العباقرة ؛ فأسرة « توكوجاوا » بعد « أيياسو » حكمت البلاد حكماً لا بأس به ، لكننا لو استثنينا منها « يوشيمونى » لما وجدنا بين أفرادها شخصيات بارزة تستوقف النظر ؛ فما انقضت بعد موت « أيياسو » ثمانية أجيال حتى راح أمراء الإقطاع يزعزعون قوائم تلك الأسر العسكرية بثوراتهم التى ما فتئت تنهض حيناً بعد حين ؛ فكانوا يسوِّفون فى دفع الضرائب أو يمتنعون عن دفعها ؛ وعجزت خزانة « ييدو » – بالرغم من التدابير الاقتصادية العنيفة التى اتخذت – عن تمويل الدفاع القومى أو صيانة الأمن فى البلاد(1) . وقد مر على البلاد أكثر من

قرنين حيث ساد السلام فتطرّت خشونة « السيافين » وضعف احتمال الشعب لكاره الحروب وتضحياتها ؛ وحلّت فى الناس نزعات أبيقورية (ترمى إلى التمتع) محل البساطة الرواقية التى كانت سائدة فى عهد هيديوشى ؛ فلما أن دعيت البلاد فجأة لحماية سيادتها ، وجدت نفسها منزوعة السلاح بمعناه المادى والخلقى جميعاً ؛ وانحل العقل اليابانى بفعل اعتزالها الاتصال بالأجانب ، وأخذ الناس يسمعون بتطلع قلق عن ازدياد الثروة وتغير المدنية فى أوربا وأمريكا ؛ وراح هؤلاء الناس يدرسون ما جاء بكتابى « مابوشى » و « موتو — أورى » وشاع بينهم فى الخفاء أن الحكام العسكريين مغتصبون للحكم ، وقد فككوا باغتصابهم ذلك استمرار سيادة الإمبراطورية ، ولم يستطع الشعب أن يوفق بين الأصل الإلهى للإمبراطور ، وبين فقره المدقع الذى فرضته عليه أسرة « توكوجاوا) ؛ وجعل الدعاة إلى قلب نظام الحكم العسكرى القائم ، يخرجون من مكامنهم فى « يوشيوارا) وغيرها ويغمرون البلاد بنشراتهم التى تحرض الناس على ذلك الانقلاب ، وإرجاع الإمبراطور للحكم .

ونزلت النازلة على رأس هذه الحكومة المرتبكة الفقيرة ، حين شاع النبأ سنة ١٨٥٣ بأن أسطولا أمريكياً قد تجاهل الأوامر اليابانية التى تحرم دخول خليج أوراجا ، ودخل ذلك الخليج ، وأن قائده يلح فى مقابلة صاحب السلطة العليا فى اليابان ، والحقيقة أن « الكومودور پرى) كان يقود أربع سفن حربية فيها خمسمائة وستون رجلا ، وبدل أن يعرض هذه القوة المتواضعة عرضاً فيه معنى التهديد ، أرسل مذكرة ودية إلى الحاكم العسكرى « أبيوشى) يؤكد له أن الحكومة الأمريكية لا تطلب أكثر من فتح بضعة موان يابانية فى وجه التجارة الأمريكية ، واتخاذ بعض الإجراءات لحماية البحارة الأمريكيين الذين قد تتحطم بهم سفائنهم على الشواطئ اليابانية ، ولم يلبث (پرى) أن اضطر إلى العودة إلى قاعدته فى المياه الصينية بسبب (ثورة تاى — ينج) ؛ لكنه عاد إلى اليابان من جديد سنة ١٨٥٤ مسلحاً بقوة بحرية أكبر ، ومزوداً

بمختلف الهدايا المغرية — عطور وساعات ومدافئ وشراب الوسكى . . .
يقدمها للإمبراطور والإمبراطورات وأمراء البيت المالك ؛ غير أن الحاكم
لعسكرى الجديد « أييسادا » تعمد ألا يرسل هذه الهدايا إلى أفراد الأسرة
المالكة ، ووافق على توقيعه لمعاهدة « كاناجاوا » التى اعترفت بكل ما طلبه
الأمريكان ؛ وهنا أثنى « پرى » على حسن لقاء أهل الجزر اليابانية ، وأعلن
مدفوعاً بقصر نظره أنه « لو جاء اليابانيون إلى الولايات المتحدة ، وجدوا المياه
الصالحة للملاحة فى البلاد مفتوحة أمامهم ، وأنه ستفتح لهم أبواب مناجم
الذهب نفسها فى كليفورنيا »[٢] وهكذا فتحت الموانى اليابانية الكبرى للتجارة
الخارجية بمقتضى هذه المعاهدة وما تلاها من معاهدات ؛ وحددت الضرائب
الجمركية وفصِّلت مقاديرها وأنواعها ؛ ووافق اليابانيون على أن يحاكم
المتهمون من الأوربيين والأمريكيين فى اليابان أمام محاكمهم القنصلية ؛
واشترطت شروط اتفق فيها على أن يوقف اضطهاد المسيحية فى الإمبراطورية
اليابانية ، ووافقت الولايات المتحدة فى الوقت نفسه أن تبيع لليابان كل
ما تحتاج إليه من أسلحة وسفن حربية ، وأن تعيرها الضباط والصناع لعل
هذه الأمة المسالمة مسالمة صبيانية أن تتعلم على أيديهم فنون القتال[٣] .

وعانى الشعب اليابانى أقسى عناء مما فرضته هذه المعاهدات عليه من
فروض الذل ، ولو أنه عاد فنظر إليها على أنها أدوات محايدة جاءته لتعمل على
تطوره ، وتقرير مصيره ؛ وود بعض اليابانيين أن يقاتل الأجانب مهما تكلف
فى سبيل ذلك ، وأن يطردهم ويعيد للبلاد نظامها الزراعى الإقطاعى الذى
يكفيها مؤونة الاعتماد على غيرها ؛ لكن بعضهم الآخر كان من رأيه أن
تقليد الغرب أجدى من طرده من بلادهم ؛ فالوسيلة الوحيدة التى تستطيع
بها اليابان أن تتجنب الهزائم المتكررة والخضوع الاقتصادى الذى يشبه
ما كانت أوربا تفرضه عندئذ على الصين ؛ هى أن تتعلم اليابان بأسرع طريقة
ممكنة أساليب الصناعة الغربية ، وفن الحرب الحديثة ؛ وهنا نهض الزعماء

الداعون إلى تغريب البلاد، واستعملوا اللباقة البالغة فى استخدام سادة الإقطاع أعواناً لهم فى قلب الحكم العسكرى ، وإعادة الإمبراطور ، وبعدئذ استخدموا السلطة الإمبراطورية فى قلب نظام الإقطاع وإدخال الصناعة الغربية فى البلاد ، وهكذا حدث سنة ١٨٦٧ أن حمل أمراء الإقطاع «كيكى» — آخر الحكام العسكريين — على النزول عن سلطته ، وقد قال «كيكى» : «إن معظم أعمال الإدارة الحكومية معيبة ، وإنى لأعترف خجلا بأن الأمور فى وضعها الراهن يرجع نقصها إلى ما أتصف به أنا من نقص وعجز ، وهاهو ذا اتصالنا بالأجانب يزداد يوماً بعد يوم ؛ فما لم تتولَّ إدارة البلاد سلطة مركزية موحدة ، انهار بناء الدولة انهياراً من أساسه »[٤] ؛ وعلى هذا القول أجاب الإمبراطور «ميچى» فى اقتضاب قائلا : «قد قبلنا ما عرضه توكوجاوا كيكى من إعادة السلطة الإدارية إلى البلاط الإمبراطورى ، وفى اليوم الأول من يناير سنة ١٨٦٨ بدأ العهد الجديد «عهد ميچى» بداية رسمية .

وروجعت الديانة الشنتوية القديمة ، وقام أولو الأمر بدعاية قوية فى الشعب حتى أقنعوه بأن الإمبراطور العائد إلى عرشه إلهىُّ النسب والحكمة ، وأن ما يصدره من مراسم يجب طاعته ، كما تجب طاعة أوامر الآلهة .

فلما أن توفرت هذه القوة الجديدة لأنصار التغريب تمتْ على أيديهم معجزة أو ما يوشك أن يكون معجزة فى تحول البلاد تحولا سريعاً ؛ فقد شق «إتوا» و «إنوى» طريقهما إلى أوربا رغم كل ما صادفهما من صعاب وعقبات ، ودَرَسا أنظمتها وصناعاتها ، ودهشا لطرقها الحديدية وسفنها البخارية ، وأسلاكها البرقية وسفنها الحربية ، ثم عادا إلى بلادهما تشتعل فى صدريهما الحماسة الوطنية نحو تحويل اليابان إلى صورة أوربية ، فدُعِى رجال من الإنجليز للإشراف على بناء السكك الحديدية وإقامة الأسلاك البرقية وتكوين الأسطول ، كذلك دعى رجال من الفرنسيين ليعيدوا صياغة القوانين ويدربوا

الجيش ، وكلف رجال من الألمان بتنظيم شئون الطب والصحة العامة ، واستخدم الأمريكان فى وضع نظام للتعليم العام ، ولكى يتم لهم الأمر من جميع نواحيه جاءوا برجال من إيطاليا ليعلموا اليابانيين النحت والتصوير[٥] ، وقد كان يحدث بعض الحركات الرجعية أحياناً ، وكانت تصل هذه الحركات إلى حد إراقة الدماء ، بل كانت الروح اليابانية كلها تثور آناً بعد آن على هذا التحول المصطنع الذى رج أوضاع الحياة كلها ، لكن الآلة شقت طريقها آخر الأمر ، ودخلت اليابان بلداً جديداً فى نطاق الانقلاب الصناعى .

ورفعت هذه الثورة بالطبع (وهى الثورة الوحيدة الحقيقية فى التاريخ الحديث) ، طبقة جديدة من الرجال إلى منازل الثروة والقوة الاقتصادية ، – منهم الصناع والتجار والممولون – وقد كان هؤلاء فى اليابان القديمة يوضعون فى أسفل درجات السلّم الاجتماعى ؛ وجعلت هذه الطبقة (البرجوازية) الصاعدة تستخدم فى هدوء ما أتيح لها من مال وقوة نفوذ فى تحطيم النظام الإقطاعى أولا ، ثم عقبت على ذلك بالحد من سلطة العرش العائدة بحيث جعلت منها سلطة وهمية ؛ ففى عام ١٨٧١ حملت الحكومة أشراف الإقطاع على النزول عن امتيازاتهم القديمة ، وعوضتهم عن أراضيهم بسندات أصدرتها الحكومة[*] .

ولما كانت الطبقة الأرستقراطية القديمة قد ارتبطت هكذا بروابط المصلحة المادية مع المجتمع الجديد ، فقد بذلت خدماتها للحكومة عن ولاء ورضى ، ومكنتها من تحويل البلاد من عصرها الوسيط إلى عصرها الحديث دون أن تسفك الدماء فى هذا السبيل ، وكان « إيتو هيرو بومى » قد عاد لتوه من زيارته الثانية لأوربا ؛ فجرى فى بلاده على غرار ما رآه فى ألمانيا ، إذ أنشأ بها طبقة عالية جديدة مؤلفة من خمس درجات :

(*) كان هذا الإجراء يقابل فى جوهره إلغاء النظام الإقطاعى وما يتبعه من عبودية فى فرنسا سنة ١٧٨٩ وفى روسيا سنة ١٨٦٢ ، وفى الولايات المتحدة سنة ١٨٦٣ .

أمير ؛ فماركيز ، فكونت ، ففيكونت ، فبارون .

لكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا هم الأعداء الإقطاعيين للنظام الصناعى الجديد بل كانوا لهذا النظام أعوانه المأجورين .

جاهد « إيتو » فى تواضعه جهاداً لم يعرف الكلل ، ليحقق لبلاده ضرباً من الحكومة لا تعيبه العيوب التى بدت فى عينيه عيوباً ناشئة من الإفراط فى الديموقراطية ، على ألا يحد ذلك من تجنيد أصحاب النبوغ وتشجيعهم مهما تكن طبقتهم الاجتماعية لكى يحققوا للبلاد رقياً اقتصادياً سريعاً ؛ وتمكنت اليابان فى ظل زعامته أن تعلن أول دستور لها سنة ١٨٨٩ ؛ فكان الإمبراطور فى قمة البناء التشريعى ، إذ كان من الوجهة الدستورية رأس الحكومة الأعلى ، ومالكاً للأرض كلها ، وقائداً للجيش والأسطول المسئولين أمامه وحده ، وهو الذى يُكسب الإمبراطورية وحدتها واستمرارها وقوتها وسمعتها المستمدة من سمعة مليكها ، وقد شاءت إرادته الكريمة أن يفوض لقوته التشريعية إنشاء مجلسين نيابيين يظلان قائمين ما شاء هو لهما أن يقوما — مجلس الأشراف ، ومجلس النواب ، غير أنه هو الذى يعين وزراء الدولة ، الذين يسألون أمامه وحده لا أمام مجلس البرلمان ، وكان تحت هؤلاء طبقة من الناخبين عددها يقرب من أربعمائة وستين ألفاً حصروا فى هذه الدائرة الضيقة باشتراط مؤهلات كثيرة فى الناخب من حيث مقدار ما يملكه ؛ ثم ارتفع عدد الناخبين بفعل حركات تحريرية متعاقبة حتى بلغ ثلاثة عشر مليوناً فى سنة ١٩٢٨ ، ولكن فساد الحكومة كان يساير التوسع فى الديمقراطية خطوة خطوة[٦] .

وساير هذا التقدم السياسىّ نظام تشريعى جديد (١٨٨١) قائم إلى حد كبير على تشريع نابليون ، وهو يحقق خطوة تقدمية جريئة بالنسبة لتشريع العصور الوسطى التى ساد فيها نظام الإقطاع ؛ فمنحت للناس حقوقهم المدنية منحاً سخياً — إذ منحت لهم حرية الكلام وحرية الصحافة وحرية الاجتماع

وحرية العبادة وعدم انتهاك الرسائل والبيوت ، والحصانة من القبض والعقاب إلا بإجراء قانونى(*) ، وحرم التعذيب والمحنة وفكت عن جماعة الـ « إيتا » قيودهم الطبقية ، وسوّى بين الطبقات كلها أمام القانون من الوجهة النظرية ، وأصلحت السجون ، ودفعت الأجور للمسجونين على عملهم ، حتى إذا ما أطلق سراح المسجون أعطى مبلغاً من المال متواضعاً يبدأ به حياة جديدة فى زراعة أو تجارة ؛ وعلى رغم ما أتاحه هذا التشريع للناس من حرية ، فقد ظلت الجرائم قليلة الحدوث[1] .

ولو اعتبرنا رضى الناس بالقانون عن طواعية علامة على مدنيتهم ، عددنا اليابان فى طليعة الأمم الحديثة حضارة (إذا استثنينا عدداً قليلا من حوادث الاغتيال) .

ولعل أهم ما يميز الدستور الجديد هو إعفاء الجيش والأسطول من كل رئاسة إلا رئاسة الإمبراطور ، فإن اليابان لم تنس قط ما وقع لها من ذل فى عام ١٨٥٣ ، ولذا صممت على إنشاء قوة عسكرية تمكنها من السيطرة على تقرير مصيرها بنفسها ، وتجعلها فى النهاية سيدة الشرق كله ، فلم يكفها أن تعمم التجنيد ، بل جعلت من كل مدرسة فى البلاد معسكراً للتدريب الحربى ، وثدياً يُرضع النشء بلبان الحماسة الوطنية ، وكان لهؤلاء الناس استعداد عجيب للنظام والطاعة ، سرعان ما انتهى بقوتهم العسكرية إلى درجة أتاحت لليابان أن تخاطب « الأجانب الهمج » مخاطبة الند للند ، كما أتاحت لها احتمال ابتلاعها للصين جزءاً جزءاً ، وهو أمل طاف برأس أوربا ، لكنه لم يتحقق لها ، وحدث عام ١٨٩٤ أن أرسلت الصين حملة عسكرية لإخماد ثورة فى كوريا ، وأن لبثت تعيد وتكرر القول بأن كوريا دولة تابعة لسلطة الصين ، فلم يعجب اليابان هذا كله ، وأعلنت الحرب على معلمتها القديمة ، وأدهشت العالم بسرعة

(*) أدت حمى الحرب التى اقتضتها مغامرة منشوريا إلى التضييق من هذه الحقوق تضييقاً شديداً .

نتصارها إذ أرغمت الصين إرغاماً على الاعتراف باستقلال كوريا ، وعلى لتنازل لها عن « فرموزا » و « بورت آرثر » (على رأس شبه جزيرة لياوتنج) وعلى دفع تعويض مالى قدره مائتا مليون من التيلات ، وقد أيدت ألمانيا وفرنسا الروسيا فى « نصحها » لليابان بالانسحاب من « بورت آرثر » مقابل زيادة فى تعويضها المالى قدرها ثلاثون مليوناً من التيلات (والزيادة تدفعها الصين) وخضعت اليابان لما طلب إليها ، لكنها احتفظت بذكرى هذه المعاكسة على مضض ، وراحت ترقب فرصة الانتقام .

ومنذ تلك الساعة أخذت اليابان تعد نفسها إعداداً جادا لا يعرف اللهو ، تعد نفسها للصراع مع الروسيا صراعاً كان لا بد من وقوعه نتيجة اتساع الإمبراطوريتين فى آمالها الاستعمارية ، ونجحت اليابان فى إثارة مخاوف إنجلترا من احتمال التوغل الروسى فى الهند فأبرمت مع سيدة البحار تحالفاً (١٩٠٢ — ١٩٢٢) ، تعهدت به كل من الدولتين أن تساعد الأخرى إذا ما اشتبكت فى قتال مع دولة ثالثة ودخلت دولة أخرى فى القتال ، وقلما وقع السلسة الإنجليز على ما يقيد حريتهم كل هذا التقييد الذى فرضته عليهم تلك المعاهدة ، فلما بدأت الحرب مع الروسيا سنة ١٩٠٤ أقرض الممولون الإنجليز والأمريكان أموالا طائلة لليابان ، لتعينها على كسب النصر من القيصر[٨] ، واستولى « نوجى » على « بورت آرثر » وزحف بجيشه نحو الشمال قبل فوات الفرصة لإخماد مذبحة « مكدن » — وهى أفظع ما شهد التاريخ من مواقع دامية ، قبل أن يشهد حربنا العالمية (الأولى) التى لا يضارعها مضارع ، والظاهر أن ألمانيا وفرنسا فكرتا فى مساعدة الروسيا بالسياسة أو بالسلاح ، لكن الرئيس روزفلت صرح عندئذ بأنه إذا حدث شىء كهذا ، فلن يتردد فى الوقوف إلى جانب اليابان[٩] ، وفى ذلك الوقت ، أقلع أسطول روسى قوامه تسع وعشرون سفينة ، وشق طريقه جريئاً حول رأس الرجاء الصالح، مرتحلا

بذلك رحلة لم يسبق لأسطول حديث أن ارتحل مثلها طولا ، وذلك لكى يقابل اليابان فى مياهها وجهاً لوجه ، غير أن الأميرال « توجو » استعان لأول مرة فى تاريخ الأساطيل البحرية باللاسلكى ، وظل على علم متصل بسير الأسطول الروسى ، ثم وثب عليه وثبة قوية فى مضيق تسوشيما فى السابع والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٠٥ وأبرق « توجو » لقادته جميعاً رسالة تصور نفسية اليابان كلها . إذ قال : « إن نهوض الإمبراطورية أو سقوطها يتوقف على هذه المعركة »[١٠] فقتل من اليابانيين فيها ١١٦ ، وجرح منهم ٥٣٨ ، وأما الروس فقتل منهم أربعة آلاف ، وأسر سبعة آلاف ، وأغرقت أو أسرت كل سفنهم إلا ثلاثاً .

كانت « موقعة بحر اليابان » نقطة تحول فى مجرى التاريخ الحديث ، فهى لم تقتصر على إيقاف التوسع الروسى فى الأراضى الصينية ، بل أوقفت كذلك سيطرة أوربا على الشرق ، وبدأت ذلك البعث الذى اشتمل آسيا ، والذى يبشر بأن يكون محور الحركات السياسية كلها فى هذا القرن الحاضر ، ذلك أن آسيا كلها قد دبت فيها الحماسة حين رأت الإمبراطورية الجزرية الصغيرة تهزم أكثر دول أوربا عمراناً بأهلها ، فدبرت الصين خطة لثورتها ، وبدأت تحلم بحريتها ، أما اليابان ، فلم يَطُف ببالها أن توسع من نطاق الحرية ، بل فكرت فى الزيادة من سلطانها ، فانتزعت من الروسيا اعترافاً بأن لليابان المكانة العليا فى كوريا ، ثم ما جاءت سنة ١٩١٠ حتى أعلنت اليابان نهائياً ضم كوريا إليها رسمياً ، وهى تلك المملكة القديمة التى بلغت من المدنية يوماً شأوا عظيما ، فلما مات الإمبراطور « ميجى » عام ١٩١٢ ، بعد حياة طويلة طيبة أنفقها حاكما وفناناً وشاعراً استطاع أن يحمل معه إلى الآلهة الذين أنسلوا اليابان رسالة بأن الأمة التى خلقوها ، والتى كانت فى بداية حكمه لعبة فى يد الغرب الفاجر ، قد باتت اليوم رفيعة المكانة فى الشرق ، وقطعت شوطاً بعيداً فى طريقها نحو أن تكون محوراً للتاريخ كله .

الفصل الثانى

الانقلاب الصناعى

حركة التصنيع – المصانع – الأجور – الإضرابات –
الفقر – وجهة نظر اليابان

لم تلبث اليابان نصف قرن إلا وقد غيرت كل وجه من أوجه حياتها ، فتحرر الفلاح رغم فقره ، وأصبح فى مستطاعه أن يملك جزءا متواضعاً من الأرض يدفعه ضريبة سنوية أو أجراً سنوياً للدولة ، ولم يكن من حق أحد من سادة الإقطاع أن يقف فى سبيله لو أراد أن يترك الزراعة ليلتمس وسيلة رزقه فى المدن ، ذلك لأن مدناً عظمى قامت عندئذ على طول الساحل ، منها « طوكيو » (التى معناها العاصمة الشرقية) بقصورها الملكية والارستقراطية وحدائقها الفسيحة وحماماتها المزدحمة وعدد سكانها الذى لم يفقها فيه إلا لندن ونيويورك ، ومنها « أوساكا » التى كانت فى سابق عهدها قرية للسماكة وحصناً ، فأصبحت اليوم جباً مظلماً من الأكواخ الحقيرة والمصانع وناطحات السحاب ، وهى مركز الصناعات فى اليابان ، ومنها « يوكوهاما » و « كوبى » اللتين ترسلان من مرفأيهما الهائلين المعدين بكل ضروب الآلات الحديثة ، تلك الصناعات إلى مئات الموانى ، محملة على ثانى أسطول تجارى فى العالم(*) .

واستعانت البلاد فى وثبتها من نظام الإقطاع إلى النظام الرأسمالى باستخدامها لكل وسيلة ممكنة استخداماً لم يسبق له نظير ، فاستدعت الخبراء الأجانب اللذين وجدوا من مساعديهم اليابانيين طاعة المتحرق لمعرفة إرشاداتهم ؛ ولم

(*) يدل الإحصاء الرسمى الأخير على أن سكان يوكوهاما ستمائة وعشرون ألفاً ، وسكان كوبى سبعمائة وسبعة وثمانون ألفاً ، وأوساكا ٢،١١٤،٨٠٤ ، وطوكيو العظمى ٥،٣١١،٠٠٠

تمض خمسة عشر عاماً ، حتى تقدم المتعلمون الأذكياء فيما تعلموه تقدماً أتاح لليابان أن تدفع للإخصائيين الأجانب آخر أجورهم وأن ترساهم إلى أوطانهم بكل إجلال ، واقتفت اليابان أثر ألمانيا ، فاستولت الحكومة على البريد والسكك الحديدية والتلغراف والتليفون ؛ لكنها في الوقت نفسه عرضت قروضاً سخية لمن يريد أن ينهض لنفسه بصناعة ما ، وجعلت تحمى تلك الصناعات الخاصة بالضرائب الجمركية العالية ، من منافسة المصانع الأجنبية فى سائر الأقطار ؛ واستعانت البلاد بالتعويض المالى الذى أخذته من الصين بعد حرب سنة ١٨٩٤ على تمويل حركة التصنيع فى اليابان وتشجيع الصناعات على نحو ما استعانت ألمانيا بالتعويض الفرنسى سنة ١٨٧١ على استحثاث حركة التصنيع فى أرضها ؛ وشبهت اليابان ألمانيا قبل ذلك بجيل واحد ، فى قدرتها على البدء بآلات حديثة مقرونة بطاعة من العمال كالتى سادت فى عصور الإقطاع ، على حين كانت الدول الأخرى المنافسة لها ، تعانى من آلات قديمة وعمال ثائرين ، وكانت مصادر القوة فى اليابان رخيصة والأجور قليلة ، كما كان العمال يخضعون لرؤسائهم خضوع الولاء ؛ لهذا تأخرت عندهم قوانين تنظيم المصانع ، وفرضت على العمال فرضاً لا عنف فيه[12] وفى سنة ١٩٣٣ كنت ترى مغازل «أوساكا» الجديدة لا تحتاج إلى أكثر من فتاة واحدة لكل خمس وعشرين آلة ، بينما كانت مغازل لانكشير القديمة تتطلب رجلا لكل ست آلات[13] .

وتضاعف عدد المصانع ما بين ١٩٠٨ و ١٩١٨ ؛ ثم تضاعف مرة أخرى بين ١٩١٨ و ١٩٢٤ ، حتى إذا ما كانت ١٩٣١ زادت المصانع نصف عددها[14] بينما كانت الصناعة فى الغرب عندئذ تخوض أغوار أزمة عميقة ؛ وفى سنة ١٩٣٢ كانت لليابان الصدارة الأولى فى تصدير المنسوجات بحيث أرسلت بليونى ياردة من الخمسة بلايين ونصف البليون من ياردات المنسوجات القطنية التى استهلكها العالم فى ذلك العام[15] ؛ وفى سنة ١٩٢١

تنازلت عن معيار الذهب ، وسمحت لعملتها الـ « ين » أن تهبط إلى أربعين فى المائة من قيمتها السابقة فى التجارة الدولية ، وبذلك استطاعت أن ترفع مبيعاتها فى الخارج خمسين فى المائة عما كانت بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٣[١٦] ؛ وازدهرت التجارة الداخلية كما ازدهرت التجارة الخارجية ، وأتيح لأسرات تجارية كبرى ، مثل أسرتى « متسوى » و « متسوبيشى » أن تكدسا ثروة طائلة جعلت رجال الجيش يتحالفون مع طبقات العمال فى حركة ترمى إلى جعل الحكومة تتولى بنفسها ، أو تفرض رقابتها على الصناعة والتجارة(*) .

وبينما كان التقدم التجارى يخلق طبقة وسطى جديدة من الأغنياء ، كان العمال الذين ينتجون بأيديهم يتحملون عبء الأثمان المنخفضة التى جعلتها اليابان أداة تهزم بها منافساتها فى الأسواق العالمية ؛ فكان متوسط أجر العامل سنة ١٩٣١–١٧ر١ من الريال كل يوم ، ومتوسط أجر العاملة ٤٨ سنتاً فى اليوم وكان واحد وخمسون فى كل مائة من العمال نساء ، كما كان اثنتا عشر فى كل مائة ممن تقل سنهم عن ستة عشر عاما[١٩](**) وكانت الإضرابات كثيرة الوقوع

(*) لم ترق حركة النقل على اليابس بمثل ما ارتقت الحركة البحرية لأن السلسلة الفقرية الجبلية التى تمتد على طول البلاد ، جعلت التجارة تؤثر البحر ؛ لهذا ظلت الطرق رديئة بالقياس إلى الطرق فى الغرب ، ولم تبدأ السيارات تهدد اليابان إلا منذ أمد قريب ؛ ومن الملاحظ الآن أن العربات التى يجرها الإنسان ، والتى جرى العرف على إرجاع تاريخها إلى ابتكار مبشر أمريكى فى أوائل العقد الثامن من القرن الماضى[١٧] قد أخذت فى الزوال اليوم أمام السيارات الأمريكية واليابانية ، ورصفت طرق طولها مائتا ألف ميل ؛ وفى طوكيو طريق مشقوق تحت الأرض يمكن مقارنته بنظائره فى أوربا وأمريكا مقارنة ترجح كفته على تلك النظراء ؛ ومدت أول سكة حديدية فى اليابان سنة ١٨٧٢ على مسافة بلغ طولها ثمانية عشر ميلا ، فلما كان عام ١٩٣٢ بلغت السكة الحدية فى تلك الجزر الضيقة ١٣٧٢٤ من الأميال ؛ ويقطع القطار السريع الجديد المسافة بين مدينة « دايرين » (بالقرب من بورت آرثر ، وبين « هسنكنج » (وكانت تسمى شانجشون) عاصمة منشوريا ، وهى مسافة تبلغ سبعمائة كيلو متر ، وبواقع مائة وعشرين كيلو مترا فى الساعة (أى نحو خمسة وسبعين ميلا[١٨] .

(**) يرجع انخفاض أجور النساء إلى عوامل ، من بينها القلقلة ذات التكاليف الباهظة التى تسببها العاملات اللائى جرين على ترك الصناعة إذا ما توفر لديهن مهر الزواج .

والشيوعية تزداد اتساعاً ، حتى هبت على البلاد روح الحرب سنة ١٩٣١ ؛ فنفخت فى الناس وطنية دعتهم إلى التعاون والتماسك ؛ وحرم القانون « الآراء الخطيرة » وفرضت قيود شديدة على نقابات العمال التى لم تبلغ قط مبلغ القوة فى اليابان[٢٠] واتسعت رقعة المساكن الفقيرة فى أوساكا وكوبى وطوكيو ، فقد كانت الأسرة ذات الخمسة الأعضاء فى طوكيو تسكن من تلك المنازل الفقيرة غرفة تبلغ فى المتوسط من ثمانى أقدام إلى عشرة أقدام مربعة – وهى مساحة لا تزيد إلا قليلا عن المساحة التى يشغلها سرير لشخصين ؛ وكان يسكن فى أمثال هذه المساكن فى مدينة كوبى عشرون ألفاً من المتسولين والمجرمين والشائهين والبغايا ؛ كانوا يسكنون فى قذارة بلغت حداً جعل الوباء يتفشى فيهم مرة كل عام ؛ وزادت نسبة الوفيات فى الأطفال أربعة أمثال ما كانت عليه فى بقية اليابان[٢١] ونهض شيوعيون مثل « كاتاياما » واشتراكيون مسيحيون مثل « كاجاوا » يقاومون بالعنف أو باللين تلك الحالة السيئة حتى استيقظت الحكومة آخر الأمر ، وقامت بحركة تطهيرية لتلك المساكن الفقيرة ، لم يشهد التاريخ أعظم منها .

وقد كتب « لافكاديو هيرن » منذ جيل ، يعبر عن رأيه الناقم على النظام الحديث فى اليابان ، فقال :

« إن التاريخ لم يشهد قط فيما مضى أمثال هذه الألوان من البؤس التى تجد مجالها فى ظل النظام الجديد ؛ وتستطيع أن تكوِّن لنفسك صورة تقريبية عن هذا البؤس ، إذا عرفت أن عدد الفقراء فى طوكيو الذين يعجزون عن دفع ضريبة المسكن ، يربو على خمسين ألفاً ، ومع ذلك فهذه الضريبة لا تزيد قيمتها على عشرين « سنًا » وهو ما يقابل عشرين « سنتاً » بالعملة الأمريكية ولم يكن فى أى جزء من أجزاء اليابان مثل هذا العوز قبل أن تتراكم الثروة فى أيدى نفر قليل – إلا إذا استثنينا بالطبع الأعقاب المؤقتة التى تلحق عهود الحرب[٢٢] .

ولا شك أن « تراكم الثروة فى أيدى نفر قليل » عامّ فى العالم كله ، والظاهر

أنه عامل مصاحب للمدنية لا يتخلف ؛ ويقول المموّلون اليابانيون ، إن أجور العمال هناك ليست أقل مما ينبغي إذا روعى عدم كفايتهم فى العمل نسبياً ، وإذا روعى إلى جانب ذلك رخص العيش فى اليابان[٢٣] ، والرأى فى اليابان هو أن الأجور المنخفضة شرط لازم لانخفاض الأسعار ، وانخفاض الأسعار شرط لازم للسيطرة على الأسواق الخارجية ، والأسواق الخارجية شرط لازم لصناعة تعتمد على حديد وفحم يستوردان من الخارج ؛ والصناعة شرط لازم لسد حاجات شعب يتزايد عـــدده فى جزء لا تصلح الزراعة إلا فى اثنى عشر فى كل مائة جزء من أجزاء أرضها ، وهى كذلك ضرورية لاكتساب الثروة وإعداد السلاح اللذين بغيرهما لا تستطيع اليابان أن تحمى نفسها ضد عدوان الغرب .

الفصل الثالث

الانقلاب الثقافى

التغيير فى الشباب – وفى آداب السلوك – الخلق اليابانى – الأخلاق والزواج فى مرحلة انتقال – الدين – العلم – الطب فى اليابان – الفن والذوق – اللغة والتعليم – القصص الطبيعى – صورة جديدة من الشعر

إنا لنسأل هل تغير الشعب نفسه نتيجة للانقلاب الصناعى ؟ إن العين لتلمح بعض ألوان التجديد ؛ فالبدلة الأوروبية المقبضة ذات الشعبتين ، قد سيطرت على معظم سكان المدن ولَفَّتْ أبدانهم ، غير أن النساء مازلن يرتدينَ ثياباً فضفاضة زاهية الألوان ، يربطها عند الوسط شريط مزخرف يلتئم طرفاه بعقدة عريضة عند الظهر(*) وكلما أصلحت الطرق حلت الأحذية محل القباقيب الخشبية ؛ غير أن نسبة كبيرة من الجنسين ما تزال تمشى بأقدام حافية سليمة من التشويه ؛ وإذا نظرت خلال المدن الكبرى ألفيت كل ضروب التشكيلات والتركيبات التى تجمع بين الثياب الوطنية والثياب الغربية ، كأنما أرادوا بذلك أن يرمزوا إلى تحول اسْتُعْجلَت خطواته فابتُسر ابتساراً .

ولا تزال آداب المعاملة عندهم نموذجاً « للتشريفات » الدبلوماسية ، ولو أن الرجال ما برحوا عند عادتهم القديمة فى تقدمهم على النساء إذا مادخلوا غرفة أو خرجوا منها ، أو مشوا فى الطريق ، واللغة عندهم نسيج وحدها فى احتشامها فقلَّ أن يداخلها فحش فى اللفظ ، وتراهم يكسون بغطاء ظاهرى من التواضع احتراماً للنفس يبلغ حد التوحش ، وآداب السلوك قد تبلغ من رقتها حداً يلطف من حدة العداوة مهما بلغت من استيلائها على النفوس :

(*) النساء المشتغلات بالتعليم أو الصناعة يرتدين ثياباً مفصلة على الطراز الغربى ؛ على أن الرجال والنساء معاً يتحجبون بعد ساعات العمل فى ثيابهم التقليدية .

والخلق الياباني – شأنه شأن الخلق الإنساني فى كل بقاع الأرض – مؤلف من أشتات متناقضة لأن الحياة تضعنا فى ظروف مختلفة كل حين ، وتتطلب منا أن نأخذها بالشدة حيناً والرقة حيناً ، وباليسر حيناً وبالصرامة حيناً ، وبالصبر حيناً والشجاعة حيناً ، وبالتواضع حيناً والكبرياء حيناً ، لهـذا لا ينبغى لنا أن نأخذ على أهل اليابان جمعهم بين العاطفية والواقعية ، وبين رقة الإحساس وصرامة الجد فى الحياة ، وبين طلاقة التعبير والكتمان ، وبين سرعة التأثر وكبح الجماح ؛ إنهم يغلب عليهم المرح والفكاهة وحب المتعة ، ويميلون إلى الانتحار الذى يروع المتفرج بمنظره ، وهم رقاق القلب – نحو الحيوان غالباً ونحو المرأة أحياناً – لكنهم قساة فى بعض الأحيان على الحيوان والرجال(*) ، وإن اليابانى الصادق فى يابانيته ليتصف بكل صفات الجندى المحارب – الاعتداء والشجاعة والاستعداد لملاقاة الموت استعداداً لا يضارعه فيه مضارع ؛ ومع ذلك كله تراه فى كثير من الأحيان يحمل بين جنبيه روح الفنان – فهو مرهف الحس سهل التأثر رقيق نشيط محب للاطلاع والبحث ذو ولاء وصبر ، وله قابلية شديدة لاستيعاب التفصيلات ، وهو ذو دهاء وحيلة ككل ذى جسد ضئيل ، وذكاؤه وقاد ، تراه لا يبرع فى الخلق الفكرى ، لكنه قادر على الفهم السريع والاقتباس والمهارة العلمية ؛ ولقد اجتمعت فى اليابانى روح الرجل الفرنسى وغروره وشجاعة البريطانى وضيق أفقه ، وحرارة الإيطالى واستعداده للفنون ، ونشاط الأمريكى وميله للتجارة ، وحساسية اليهودى ودهاؤه :

ثم جاء اتصالهم بالغرب وصراعهم معه ، فغيروا حياة اليابان الاخلاقية

(*) حدث فى الاضطراب الذى أعقب زلزال سنة ١٩٢٣ ، ان سكان يوكاهاما من اليابانيين – بينما كانت تمدهم سفن النجدة الأمريكية بالقوت – استغلوا الشعب وذبحوا مئات (وقيل آلافاً) من دعاة التغيير ومن الكوريين العزل فى الطرقات(٤٢) والظاهر أن وطنياً متحمساً قد أثار اليابانيين باعلانه أن الكوريين (الذين كانوا عدداً ضئيلا) يدبرون قلب الحكومة وقتل الإمبراطور .

وطرائق السلوك فيها ، غير أن أمانتهم التقليدية(*) لاتزال قائمة بينهم إلى حد كبير ، وإن يكن التوسع فى حقوق الانتخاب وحدّة التنافس التى تلازم التجارة الحديثة ، قد أدخلا فى اليابان نصيبها النسبى من الرشوة التى هى من خصائص الحكم الديمقراطى ، والقسوة التى تتصف بها الحياة الصناعية ، وخفة اليد فى عالَم المال؛ نعم إن «خُلُق الفرسان» (ويسمونه بوشيدو) لا يزال باقياً هنا وهناك بين طبقات الجنود العليا، ولذا فهو بمثابة الضابط الارستقراطى الخفيف للجموح الشيطانى الذى استولى على عالمى التجارة والسياسة ؛ والاغتيال كثير الوقوع على الرغم مما تتصف به عامة الناس من طاعة القانون والصبر على أحكامه — والاغتيال هناك لايقع خلاصاً من استبدادية رجعية ، بل يقع عادة لتشجيع روح الوطنية التى لاتبالى الاعتداء ؛ من ذلك أن «جمعية الأفعوان الأسود» التى يرأسها «توياما» الذى يبدو فى مظهر المنبوذ ، قد كرست نفسها أكثر من أربعين عاماً لبث سياسة غزو كوريا ومنشوريا بين أصحاب المناصب الحكومية فى اليابان(**) وقد اتخذت الاغتيال أداة للوصول إلى هذا الغرض ، ومنها اكتسب الاغتيال مهمة شعبية ظل يقوم بها فى تحريك العالم السياسى فى اليابان(٢٦) .

لقد شارك الشرق الأقصى بلاد الغرب فى الاضطراب الخلقى الذى يصحب كل تغير عميق يتناول الأساس الاقتصادى للحياة ؛ وازدادت الحرب التى ما فتئت قائمة بين الأجيال المتعاقبة ، بين الشباب الطافح بحماسته ، وبين الشيوخ

(*) يقول لافكاديو هيرن : (لقد عشت فى أقاليم لم تعرف السرقة مدى مئات من السنين — حيث ظلت السجون التى ابتناها «ميجى» حديثاً ، خالية لا نفع فيها»(٢٥) .

(**) «الأفعوان الأسود» هو الاسم الذى تطلقه الصين على نهر أمور الذى يفصل منشوريا من سيبريا ، واليابانيون ينظرون إلى الاغتيال نظرتهم إلى نوع من العقاب الشريف الذى يحل عندهم محل النفى .

المفرطين فى حرصهم ، ازدادت تلك الحرب حدة نتيجة لنمو الصناعة التى تعمل على إبراز شخصية الفرد ، ونتيجة لإضعاف الإيمان الدينى ؛ فالانتقال من الريف إلى المدينة ، وإحلال الفرد محل الأسرة باعتباره الوحدة القضائية المسئولة ، للمجتمع الاقتصادى والسياسى ، قد قوض أركان السلطة الأبوية ، وأخضع عادات القرون الطويلة وأخلاقها للحكم المتسرع الذى يحكم به المراهق على أمثال هذه الأمور ؛ وكنت ترى الشباب فى المدن الكبرى يثورون على نظام الزواج تحت إشراف الأبوين ، وترى العروسين لا يجريان على مألوف العادات من حيث السكنى فى بيت والد العريس ، بل هما أميل إلى إنشاء بيت مستقل أو « شقة » مستقلة ؛ هذا إلى أن سرعة تصنيع النساء قد حتم انحلال الروابط التى كانت تربطهن بالدار واعتمادهن فى العيش على الرجال ؛ والطلاق فى اليابان قد كثر حتى شابه الحال فى أمريكا ، بل هو هناك أخف عاقبة منه فى أمريكا ، لأن الرجل قد يستطيع الطلاق بمجرد توقيعه على دفتر للتسجيل ، ودفعه رسوماً تبلغ ما يساوى عشر « سنتات »[٢٧] ولئن حرم القانون نظام الخليلات ، إلا أنه لا يزال قائماً فعلا يتمتع به كل من تمكنه حالته المالية من تجاهل القانون[٢٨] .

والآلة هى عدو رجل الدين فى اليابان كما هى فى سائر أنحاء العالم ، ولما استوردت اليابان من انجلترا أوضاعها الصناعية الفنية ، استوردت معها « سبنسر » و « ستيورت مِل » ، وبهذا أسدل الستار فجأة على سيادة المذهب الكنفوشيوسى فى الفلسفة اليابانية ، ولقد قال تشمبرلين سنة ١٩٠٥ : « إن الجيل الموجود الآن فى المدارس يتشكل على صورة فولتيرية واضحة المعالم»[٢٩] ومن نتيجة هذا الاتجاه نفسه أن ازدهر العلم بارتباطه الحديث بالآلة ، واكتسب فى اليابان قلوب أعظم الباحثين فى عصرنا هذا ، بحيث انصرفوا إليه مخلصين

على نحو ما نعهده فى اليابانيين من الولاء فيما يخلصون له(*) ؛ فالطب فى اليابان — على الرغم من اعتماده فى معظم مراحله على الصين وكوريا — قد تقدم تقدماً سريعاً حين احتذى مثـل الأوروبيين واندفع بحافزهم ، وخصوصاً الألمان ؛ وإذا أردت أن تعلم مدى السرعة التى انتقلت بها اليابان من مرحلة التتلمذ إلى مرحلة الأستاذية التى أخذت تعلم فيها العالم أجمع ، فانظر إلى ما عمله « تاكامين » فى استكشافه للأدرنالين وفى دراسته للفيتامينات ؛ وما أداه « كيتاساتو » فى مرض التتنوس وفقر الدم ، وفى تقدم التلقيح ضد الدفتريا ثم ما عمله ألمعهم جميعاً وأشهرهم جميعاً ، وهو « نجوشى » فى مرض الزهرى ومرض الحمى الصفراء .

ولد « هيديونجوشى » سنة ١٨٧٦ فى إحدى الجزر الصغرى ، من أسرة بلغ بها الفقر حداً جعل أباه يترك أسرته حين علم أن طفلا ثانياً فى طريقه إلى الحياة ؛ وأهمل الوليد هذا إهمالا جعله يسقط فى مدفأة فاحترقت يده اليسرى حتى شاهت ، وأوذيت يده اليمنى إيذاء كاد يفقد نفعها فكان أن اجتنبه التلاميذ فى المدرسة لما فى جسده من وصمات وتشويه ، وراح الناشئ يفكر فى الانتحار ، لكن جراحاً قدم إلى القرية حينئذ ، وعالج له يده اليمنى علاجاً ناجحاً ، واعترف «نجوشى» للجراح بالجميل اعترافاً جعله يقرر لتوه أن يكرس نفسه للطب ؛ ومن أقواله عن نفسه « سأكون نابليون ينقذ البشرية لا نابليون يفتك بها » « إنى أستطيع الآن أن أعيش معتمداً على نعاس أربع ساعات فى الليل »(٣٠) وكان « نجوشى » مفلساً . فاشتغل فى صيدلية حتى حمل صاحبها

(*) كان العلم فى اليابان قبل ١٨٥٣ مستورداً معظمه من نتاج الوطن الأصلى نفسه فالتقويم اليابانى الذى كان فيما سبق معتمداً على أوجه القمر ، قد أعيد حسابه بحيث يساير السنة الشمسية ، على يدى كاهن كورى حوالى سنة ٦٠٤ ميلادية ، ثم أدخلت تعديلات من الصين سنة ٦٠٨ ميلادية ؛ واصطنعت اليابان — ولا تزال — طريقة أهل الصين فى حساب الحوادث بردها إلى اسم الإمبراطور الذى وقعت فى أيامه ، وسنة توليه الحكم ؛ وفى سنة ١٨٧٣ أخذت اليابان بالتقويم الجريجورى .

على رصد مبلغ من المال يتعلم به الطب ؛ وبعد أن تخرج فى الطب من الجامعة ذهب إلى الولايات المتحدة وعرض خدماته على الهيئة الطبية فى الجيش فى وشنطن مقابل نفقاته ؛ وهيأت له مؤسسة روكفلر للأبحاث الطبية معملا ، وشرع « نجوشى » يعمل وحده لا يشاركه أحد على الإطلاق فى إجراء التجارب والقيام بالبحث العلمى مما انتهى إلى أطيب الثمرات ؛ فهو الذى أنتج أول عينة خالصة من جراثيم الزهرى ، وكشف عن أثر الزهرى فى الشلل العام وفى الشلل البطىء الذى يصيب حركة العضلات ، وأخيراً استطاع فى سنة ١٩١٨ أن يعزل طفيلىّ الحمى الصفراء ؛ فلما كسب الشهرة والثروة المؤقته ، عاد إلى اليابان ، وكرَّم أمه العجوز ، وجثا على ركبتيه أمام الصيدلى الذى أنفق على دراسته الطبيعية اعترافاً له بالجميل ، ثم ذهب إلى أفريقيا ليدرس الحمى الصفراء التى كانت تفتك بساحل الذهب من أوله إلى آخره ، فأصابته هذه الحمى ومات سنة ١٩٢٨ ، ومما يزيدنا حسرة على موته أنه لم يكن قد بلغ من العمر أكثر من اثنين وخمسين عاماً .

كان التقدم العلمى فى اليابان — كما كان كذلك فى الغرب — مصحوباً بانحلال فى الفنون التقليدية ؛ فتقويض الطبقة الأرستقراطية القديمة قد قوض عشاً كان يترعرع فيه حسن الذوق ، وراحت الأجيال بعدئذ تتخذ لنفسها ما شاء لها هواها من معايير الجمال ، بحيث يستقل كل جيل فى معياره الذوقى عما سلفه ؛ وتدفقت الأموال من البلاد الخارجية سعياً وراء المنتجات الوطنية ، فأدى ذلك إلى الإنتاج السريع الذى يعنى بالكم وحده ، وانحطت مستويات الرسوم اليابانية تبعاً لذلك ، فلما عاد الشارون إلى طلب المصنوعات القديمة ، انقلب الصناع جماعة من المزورين ، وأصبحت صناعة الآثار القديمة فى اليابان — كما هى الحال فى الصين — أروج الصناعات فى الفنون الحديثة ؛ ولعل جانب الصناعة الخزفية المعروف باسم cloisouné أن يكون الفرع الوحيد من فروع تلك الصناعة ، الذى تقدم فى اليابان منذ قدوم الغرب إلى

البلاد ؛ فالانتقال المضطرب من الصناعة اليدوية إلى الصناعة الآلية ، وهجمة الأذواق والأساليب الأجنبية على أهل البلاد متسترة برداء من الظفر والثروة ، قد أدى إلى زعزعة الحس الجمالى عند اليابانيين وإضعاف ذوقهم بحيث لم يعد على ما كان عليه من ثبات ؛ وهاهى ذى اليابان قد اختارت السيف اتجاهاً ، فاطلها قد كُتب لها أن تعيد تاريخ الرومان — بأن تقلد فى الفن ، وتسود فى الإدارة والحرب(*) .

لقد لبثت الحياة العقلية فى الإمبراطورية الحديثة جيلا اتجهت خلاله نحو مملأة الأساليب الغربية ، فتكاثرت الكلمات الأوروبية فى لغة القوم ، ونظمت الصحف على الطريقة ، وأنشئت مجموعة من المدارس العامة على غرار المدارس النموذجية الأمريكية ؛ إذ صممت اليابان تصميم الأبطال على أن تجعل من نفسها أمة تكون أسبق أمم الأرض جميعاً فى إزالة الأمية ، وقد نجحت فيما أرادت ، فى سنة ١٩٢٥ كان يختلف إلى المدارس من أبناء البلاد ٩٩٫٤ فى المئة[٣١] وفى سنة ١٩٢٧ كان فى مستطاع ٩٣ فى كل مائة من أهل البلاد جميعاً أن يقرأوا[٣٢] ؛ فقد أقبل الطلاب على الحركة العرفانية العلمانية الجديدة إقبالا فيه حرارة الإيمان الدينى ، حتى لقد أفسد مئات منهم صحة أبدانهم بسبب حماستهم فى كسب المعرفة[٣٣] واضطرت الحكومة اضطراراً أن تتخذ الوسائل الفعالة لتشجيع الرياضة البدنية والألعاب بكافة صنوفها ، القومى منها والمستعار من البلاد الخارجية ؛ وخرج التعليم من كنفه الدينى واصطبغ بصبغة علمانية أكثر مما اصطبغ به التعليم فى معظم الأقطار الأوربية ؛ وأعينت خمس جامعات إمبراطورية ، وقامت إحدى وأربعون جامعة أخرى — قد تقل فى نزعتها الإمبراطورية عن تلك الخمس — وضمت بين جدرانها آلاف الطلاب المتحمسين ؛ وفى سنة ١٩٣١ كانت الجامعة الإمبراطورية فى طوكيو تشتمل على ٨٠٦٤ طالباً ، وجامعة كيوتو تشتمل على ٥٥٥٢ طالباً[٣٤] .

(*) أخذت اليابان اليوم حتى الوطنية ؛ فأدت بها إلى إحياء الحوافز والأساليب القومية .

وأما الأدب اليابانى فى الربع الأخير من القرن (التاسع عشر) فقد أفنى نفسه فى سلسلة من ألوان المحاكاة ؛ وتوالت على الطبقة المثقفة موجات الحرية الإنجليزية والواقعية الروسية والفردية النيتشية والبراجماسية الأمريكية ، فاكتسحتها واحدة بعد واحدة ، حتى عادت روح الوطنية فأكدت نفسها ، وبدأ الكتاب اليابانيون يكشفون عن مادتهم القومية فيعبرون عنها بأساليبهم القومية ؛ وقد ظهرت فتاة شابة تدعى « إيشى يو » فافتتحت حركة فى كتابة القصة تنحو منحى المذهب الطبيعى قبل موتها سنة ١٨٩٦ وهى فى عامها الرابع والعشرين ، وذلك بتقديمها صورة ناصعة عن تعاسة النساء وذلهن فى اليابان[٣٥] ، وفى سنة ١٩٠٦ دفع الشاعر « توسون » هذه الحركة إلى أوجها بقصة طويلة عنوانها « هاكاى » أى عدم الوفاء بالعهد ، قصّ فيها بنثر شعرى قصة معلم وعد أباه ألا يفضح عن نفسه حقيقتها وهى أنه من طبقة « إتيا » أى الطبقة التى انحدرت من أسلاف عبيد ، وبهذا أتيح له بما كان له من قدرة وما ظفر به من تعليم أن يحتل مكانة عالية ، فأحب فتاة مهذبة من ذوات المكانة الاجتماعية ؛ وبعدئذ فار فورة صدق اعترف فيها بأصله ، وتنازل عن حبيبته ومكانته ، وغادر اليابان لغير عودة ، فكانت هذه القصة عاملا قوياً فى تحريك النفوس تحريكاً انتهى آخر الأمر بإسدال الستار على العوائق التى لبثت طوال التاريخ مفروضة على طبقة « إيتا » .

وكانت صورتا الشعر الموجز المعروفتان باسم « تانكا » و « بوكا » آخر صور الثقافة اليابانية استسلاماً للمؤثرات الغربية ، إذ لبثتا أربعين عاماً بعد عودة الإمبراطور إلى عرشه الفعلى ، هما الصورتين المنشودتين لقرض الشعر اليابانى ، وفنى الروح الشعرى فى آيات معجزات من البراعة والصناعة ، حتى كان عام ١٨٩٧ ؛ ظهر معلم شاب ، هو « توسون » فى « سنداى » وباع لأحد الناشرين ديواناً من الشعر بخمسة عشرة ريالا ، فجاء هذا الديوان بقصائده الطويلة ثورة تكاد تبلغ فى عنفها مبلغ أية ثورة أخرى مما زعزع نسيج الدولة ؛ وكان الشعب قد ملّ الأقوال القصيرة الرشيقة ، فأقبل على هذا

الديوان (ذى القصائد الطويلة) إقبال الشاكر ، وسبَّبَ بإقباله هـذا ثراء للناشر ؛ وسار بعض الشعراء الآخرين فى إثر توسون ، وانتهى الأمر بصورتى الشعر الموجز الـ « تانكا » والـ « بوكا » أن أسلمتا زمام السيطرة بعد أن ظلتا ممسكتين به ألف عام(٣٦) .

وعلى الرغم من ظهور هذه الصور الشعرية الجديدة ، فقد ظلت « المباراة الإمبراطورية فى قرض الشعر » قائمة كما كانت ؛ فالإمبراطور يعلن فى كل عام موضوعاً ، ثم يسوق مثالا بنشـيد يمليه فى ذلك الموضوع ؛ وتقتفى الإمبراطورة أثره ، وبعدئذ يرسل خمسة وعشرون ألف شاعر يابانى من كافة الأشكال والطبقات ، يرسل هؤلاء قصائدهم إلى « مكتب الشعر » فى القصر الإمبراطورى ؛ وتشكل لها هيئة تحكيم من أعلى أعلام البلاد ؛ حتى إذا ما انتهى التحكيم إلى القصائد العشر الأولى ، قرئت على الإمبراطور والإمبراطورة ، وطبعت فى الصحف اليابانية فى العدد الذى يصدر فى اليوم الأول من العام(٣٧) ، فياله من تقليد بديع خليق أن يدير النفس لحظة عن دنيا التجارة والحـروب ، وهو يدل على أن الأدب اليابانى ما زال جزءاً حيوياً فى حياة أمة هى أكثر الأمم حيوية فى العالم المعاصر .

الفصل الرابع

الإمبراطورية الجديدة

الأسس المزعزعة للمدنية الجديدة – أسباب النزعة الاستعمارية اليابانية – الطلبات الواحدة والعشرون – مؤتمر وشنطن – قانون الهجرة الصادر سنة ١٩٢٤ – غزو منشوريا – المملكة الجديدة – اليابان والروسيا اليابان وأوربا – هل لا بد لأمريكا من محاربة اليابان ؟

لقد أقامت اليابان الحديدة بناءها على أسس مزعزعة على الرغم من نموها السريع فى الثراء والقوة ؛ فقد عدد سكانها من ثلاثة ملايين أيام (شوتوكو تايشى) حتى بلغ سبعة عشر مليوناً فى حكم (هيديوشى) ثم بلغ ثلاثين مليوناً فى عهد (يوشيمونى) وزاد على خمسة وخمسين مليوناً فى آخر عهد (ميجى) (١٩١٢)[*] .

وإذن فقد تضاعف السكان فى مدى قرن واحد ، وضاقت الجزر التى تكتنفها الجبال ، والتى تقل فيها الأراضى الصالحة للزراعة ، بملايينها المتزايدة؛ فسكان تلك الجزر الذين يبلغون نصف سكان الولايات المتحدة ، لا يجدون مما يقيم حياتهم أكثر من جزء من عشرين جزءاً بالنسبة لثروة الولايات المتحدة[٣٨] وإذن فلا سبيل أمامها سوى المصانع ، ومع ذلك تراها فقيرة فقراً يبعث على الأسى ، فى مواد الوقود وفى المعادن التى لا غنى للصناعة عنها ، نعم إن القوة

(*) بلغ عدد سكان الإمبراطورية اليابانية سنة ١٩٣٤ ثمانين مليوناً (والإمبراطورية اليابانية تعنى اليابان وكوريا وفورموزا وبعض الممتلكات الصغيرة الأخرى) ولو نجحت اليابان فى استمالة سكان منشوريا إلى الحكم اليابانى فستتحكم فى دنيا الصناعة والحرب فى مائة وعشرة من الملايين ؛ ولما كان سكان اليابان وحدها يزيدون بنسبة مليون كل عام ، ثم لما كان سكان الولايات المتحدة يقربون مسرعين من حد الجمود لا زيادة بعده ، فربما جاء اليوم قريباً حيث تصطدم الدولتان بعدد من السكان قريب من التعادل .

الكهرباثية المتولدة عن تدفق الماء كانت كافية فى المجارى التى تسيل من الجبال إلى البحر ، لكن استغلال هذا المصدر أكمل استغلال لا يضيف إلى القوة المستعملة بالفعل إلا مقدار ثلثها[٣٩] ولا يمكن الاعتماد عليها لسد حاجات المستقبل المتزايدة ؛ ووجدت طبقات من الفحم هنا وهناك ممتدة فى عروق تكاد تعز على متناول الإنسان ، وجدت فى جزر « كيوشو » و « هوكاديو » ، كما أمكن الحصول على البترول من « سخالين » ، أما الحديد — وهو من الصناعة لبها وصميمها — فيكاد لا يكون له أثر فى التربة اليابانية[٤٠] ؛ وبعد هذا كله ، فإن مستوى المعيشة المنخفض الذى فرض على سواد الناس فرضاً بحكم صعوبة الحصول على المواد والوقود وارتفاع تكاليفها ، جعل الاستهلاك يزداد تأخراً بالنسبة إلى تقدم الإنتاج ؛ فالمصانع التى كانت آلاتها تزداد حُسناً كل عام . راحت تصب فيضاً من السلع يزيد على حاجة أهل البلاد ولا يمكن شراؤه فيها ، ويصرخ صرخات عالية مطالباً لنفسه بأسواق فى الخارج .

من مثل هذه الظروف تنشأ الرغبة فى الاستعمار ، وأعنى بكلمة الاستعمار ذلك المجهود الذى يبذله النظام الاقتصادى فى بلد من البلاد — مستعيناً فى ذلك بالحكومة التى هى أداته فى تحقيق أغراضه — يبذله نحو بسط سيادته على مناطق أجنبية يعتقد أنها تمده بما تحتاج إليه من وقود وأسواق ومواد خامة وأرباح ؛ فأين عسى أن تجد اليابان هذه الفرصة وتلك المواد ؟ إنها لا تستطيع أن تتجه بأبصارها نحو الهند الصينية أو الهند أو استراليا أو الفلبين ، لأن هذه البلاد قد سبقت الدول الغربية إلى الاستيلاء عليها ، وفرضت فيها من الحواجز الجمركية ما يناصر سادتها البيض على أهل اليابان ؛ وواضح أن الصين قد وضعها الله على أبواب اليابان مقدراً لها أن تكون سوقاً للسلع اليابانية ، كما أن منشوريا — منشوريا الغنية بفحمها وحديدها ، والغنية بقمحها الذى لاتستطيع الجزر اليابانية أن تستنبته فى بلادها على نحو يفيدها ، والغنية برجالها الذين

يصلحون للصناعة والضريبة والحرب — منشوريا هذه قد كتب عليها كذلك أن تكون تابعة لليابان ؛ وبأى حق ؟ بنفس الحق الذى استولت به انجلترا على الهند واستراليا ، واستولت فرنسابه على الهند الصينية ، واستولت به ألمانيا على شانتونج ، والروسيا على بورت آرثر ، وأمريكا على الفلبين — وهو حق الحاجة التى يشعر بها القوى ؛ وعلى كل حال فليس للناس حاجة فى نهاية الأمر إلى التماس المعاذير ، وإنما كل ما يتطلبونه هو القوة والفرصة السانحة اللتان تمكنانك من فعل ما تريد ؛ فالنجاح فى رأى أتباع المذهب الداروينى ، يبرر كل الوسائل التى تحققه

وجاءت الفرصة تفتح لليابان صدرها رحيباً — جاءت أولا فى الحرب العالمية الأولى ، ثم جاءت بعد ذلك فى انهيار الحياة الاقتصادية فى أوربا وأمريكا ؛ فلم يقتصر أثر الحرب على مجرد الزيادة من إنتاج اليابان (كما حدث فى أمريكا) زيادة تطلبتها سوق عظمى خارجية ناشئة بسبب قيام الحرب — وأعنى بتلك السوق قارة أوربا التى كانت مشتبكة فى القتال ؛ بل إن تلك الحرب قد أدت كذلك إلى إضعاف أوربا واستنفاد قواها ، وتركت اليابان وشكة أن تكون بغير شريك فى العالم الشرقى ؛ فبسبب هذا كله غزت شانتونج سنة ١٩١٤ ، وبعد ذلك بعام واحد تقدمت إلى الصين « بالمطالب الواحدة والعشرين » التى لو تمكنت من فرضها على الصين ، لأصبحت الصين مستعمرة هائلة تابعة لليابان الضئيلة .

فالمجموعة الأولى من المطالب أرادت من الصين أن تعترف بسيادة اليابان على شانتونج ؛ وطالبت اليابان بالمجموعة الثانية منها بامتيازات صناعية معينة ، وبالاعتراف بحقوق خاصة تتمتع بها اليابان فى منشوريا ومنغوليا الشرقية ؛ وعرضت المجموعة الثالثة من تلك المطالب أن تكون أكبر شركات التعدين فى أرض الصين شركة مشتركة بين الصين واليابان ؛ وطالبت المجموعة الرابعة

(وهى موجهة ضد رجاء أمريكا فى أن تكون لها محطة للفحم بالقرب من فوشو) « بألا تتنازل الصين عن أية جزيرة أو ميناء أو مرسى على طول الساحل لدولة ثالثة » ، واقترحت المجموعة الخامسة اقتراحاً متواضعاً وهو أن تستخدم الصين منذ ذلك الحين فصاعدا مستشارين يابانيين فى شئونها السياسية والاقتصادية والحربية ، وأن تكون إدارة الشرطة فى المدن الصينية الكبرى فى يد مشتركة بين الصينيين واليابانيين ، وأن تشترى الصين نصف ذخائرها على الأقل من اليابان ، وأن يكون لليابان كل الحرية فى مد السكك الحديدية وحفر المناجم وبناء الموانى فى منطقة فوكين[41] .

واحتجت الولايات المتحدة بأن بعض هذه « المطالب » فيه اعتداء على سلامة الأراضى الصينية ، وعلى مبدأ « الباب المفتوح » فألفت اليابان المجموعة الخامسة من تلك المطالب ، وعدّلت بقيتها ، ثم قدمتها للصين مقرونة بإنذار نهائى فى اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٩١٥ ، فقبلتها الصين فى اليوم التالى لتقديمها ، وتبع ذلك مقاطعة من الصين للبضائع اليابانية ، لكن اليابان مضت فى طريقها قدماً ، على زعم يؤيد التاريخ صحنه ، وهو أن المقاطعة التجارية لا بد منتهية عاجلا أو آجلا إلى فشل ، لأن التجارة تميل بطبيعتها إلى أن تتبع أقل التكاليف ؛ وفى سنة ١٩١٧ بسط « الفيكونت إشياى » فى لباقة ، موقف اليابان للشعب الأمريكى ، حتى حمل الوزير « لانسنج » على توقيع اتفاق يعترف بأن « لليابان مصالح خاصة فى الصين ، خصوصاً فى الأجزاء المتاخمة لممتلكاتها » ، وفى مؤتمر وشنطن سنة ١٩٢٢ أرغم الوزير « هيوز » اليابانيين على الاعتراف بمبدأ « الباب المفتوح » فى الصين ، وبأن تقتنع اليابان بأسطول يبلغ ستين فى المائة من حجم الأسطول الإنجليزى أو الأمريكى(*) ووافقت

(*) وضعت نسبة الأساطيل الإنجليزية والأمريكية واليابانية على أساس ٥ ، ٥ ، ٣ وباعتبار امتداد السواحل أو الممتلكات التى تتطلب من انجلترا أو من أمريكا دفاعاً ، إذا قيست إلى صغر حجم اليابان وحماية أرضها حماية طبيعية .

اليابان فى نهاية المؤتمر على أن تعيد إلى الصين ذلك الجزء من شانتونج (تسنجتاو) الذى كانت أخذته من ألمانيا إبان الحرب ، ثم مات الحلف الإنجليزى اليابانى موتاً هادئاً ، وراحت أمريكا تحلم فى فراشها الدافئ بسلام لا تزعجه الحروب أبد الآبدين .

لكن السياسة الأمريكية اصطدمت بفشل من أبشع ما شهدته فى تاريخها ، بسبب تلك الثقة الصبيانية فى مستقبل ناعم ، ذلك أن الرئيس « تيودور روزفلت » لما رأى سكان الساحل الممتـــد على المحيط الهادى قد أزعجتهم هجرات اليابانين المتواصلة إلى كاليفورنيا ، أخذ فى سنة ١٩٠٧ يفاوض الحكومة اليابانية مستعيناً بسلامة إدراكه التى كانت تكمن فى ثنايا حياته الصاخبة التى قرّبته إلى قلوب الشعب ، واتفق معها « اتفاق السيد الكريم مع السيد الكريم » بحيث وعدت اليابان أن تمنع هجرة عمالها إلى الولايات المتحدة ، لكن ارتفاع نسبة المواليد بين أولئك اليابانين الذين كانوا قد سمح لهم فعلا بالدخول ، لم تزل تزعج الولايات الغربية من أمريكا ، حتى إن كثيراً من تلك الولايات أصدر القوانين التى تحرم على الأجانب امتلاك الأراضى ، ولما قرر « الكونجرس الأمريكى » سنة ١٩٢٤ أن يحدد الهجرة إلى البلاد ، أبى أن يطبق على الأجناس الأسيوية مبدأ النسبة المخفضة التى سمح بها للشعوب الأوروبية(*) بل حرم هجرة الأسيويين تحريماً قاطعاً ، وقد كان من المستطاع أن نصل إلى نفس النتيجة تقريباً لو طبقنا النسبة الجديدة على كل الأجناس بغير تمييز ولا تعيين ، واحتج الوزير « هيوز » قائلا : « إن هذا التشريع لا فائدة منه إطلاقاً حتى بالنسبة للغاية التى سُنّ من أجل تحقيقها »[3]، لكن المتحمسين فسروا الإنذار الذى وجهه السفير اليابانى بشأن « النتائج الخطيرة التى قد تترتب على هذا القانون ، فسروه بأنه تهديد ، واستولت عليهم حمى البغضاء فأصدروا « قانون الهجرة » .

(*) يقرر ذلك المبدأ أن يكون عدد المهاجرين من أى قطر مساوياً فى نسبته إلى مجموع العدد المسموح بهجرته طول العام ، لنفس النسبة التى بين عدد سكان الولايات المتحدة من أهل ذلك القطر سنة ١٨٩٠ وبين مجموع عدد سكان الولايات المتحدة فى تلك السنة .

واشتعلت النار اشـــتعالا فى اليابان كلها لهذا الذى بدا فى عينها إهانة مقصودة ؛ وعقدت الاجتماعات وألقيت الخطب ، وانتحر وطنىٌّ متحمس على طريقة (هاراكيرى) أمام دار (الفيكونت إنوبى) ليعبر بانتحاره ذلك عن شعور القوم جميعاً بالعار ؛ أما زعماء اليابان ، فكانوا يعلمون أن بلادهم قد أضعفها زلزال سنة ١٩٢٣ ، فصمتوا وتربصوا ينتظرون الفرصة السانحة ، فلو سارت الأمور سيراً طبيعياً ، فسيفتُّ الضعف كذلك بأمريكا وأوربا ، وعندئذ ستنتهز اليابان فرصتها ، وتثأر لنفسها ولو بعد حين .

فلما أعقبت أعظم الحروب جميعاً أزمةٌ اقتصاديةٌ هى أعظم الأزمات جميعاً ، وجدت اليابان فرصتها التى طال انتظارها لها ، لكى تثبت أركان سيادتها فى الشرق الأقصى ؛ إذ أعلنت أن السلطات الصينية قد أساءت إلى تجار اليابان فى منشوريا ، هذا إلى شعور خفى عندها بأن سككها الحديدية وسائر مُسْتَغَلاتها الاقتصادية هناك تهددها المنافسة الصينية ، فأمرت جيشها فى سبتمبر سنة ١٩٤١ أن يتقدم فى منشوريا ، بادئة فى ذلك بالعدوان ، أما الصين فكانت فى حالة من الفوضى بسبب الثورة وبسبب حركة انفصالية بين أقاليمها وبسبب ارتشاء ساستها ، فلم تستطع أن تجمع كلمتها فى مناهضة اليابان إلا على صورة واحدة ، وهى أن تعود من جديد إلى مقاطعة البضائع اليابانية ، فلما تذرعت اليابان بحجة الدعاية الصينية لمقاطعة التجارة اليابانية ، وغزت شنغهاى (١٩٣٢) لم ينهض من الصينيين لمقاومة هذا الغزو إلا قلة ضئيلة ؛ ووجهت الولايات المتحدة اعتراضات فى هذا الصدد ، ووافقتها عليها الدول الأوربية (من حيث المبدأ) موافقة باعثها الحذر ، لكنها كانت فى شغل من مصالحها التجارية الفردية بحيث لم تستطع أن تجمع كلمتها جميعاً على إجراء حاسم إزاء هذه الإزالة السريعة لسيادة الرجل الأبيض على الشرق الأقصى ، تلك السيادة التى لم تدم إلا قليلا ؛ وعينت عصبة الأمم لجنة برئاسة) إيرل ليتُن) فقامت ببحث يظهر

فيه الإحكام والحياد ، ثم قدمت تقريرها ؛ غير أن اليابان انسحبت من العصبة على نفس الأساس الذى دعا الولايات المتحدة سنة ١٩٣٥ إلى رفضها الاشتراك فى (هيئة العدل الدولية) — وهو أنها لا تريد أن تحاكم أمام هيئة قضاتها هم أعداؤها ؛ وكانت مقاطعة البضائع اليابانية فى الصين قد خفضت واردات اليابان إلى الصين بنسبة أربعة وسبعين فى المائة بين شهر أغسطس سنة ١٩٣٢ وشهر مايو سنة ١٩٣٣ ؛ لكن التجارة اليابانية فى الوقت نفسه كانت تطرد التجارة الصينية من الفلبين وولايات الملايو والبحار الجنوبية ؛ ولم تحل سنة ١٩٣٤ حتى استطاع ساسة اليابان — بمعونة ساسة الصين — أن يحملوا الصين على إقرار تعريفة جمركية فى صالح المنتجات اليابانية ضد منتجات الدول الغربية (٤٣) .

وفى مارس سنة ١٩٣٢ عينت السلطات اليابانية (هنرى پوبى) وارث عرش مانشو فى الصين ، رئيساً لحكومة دولة منشوكو الجديدة ، ثم نصبته بعد عامين ملكاً باسم (كانج ته) وكان ذوو المناصب فى تلك الحكومة إما من اليابانيين أو من أهل الصين الموالين لليابان ، وقد كان خلف كل موظف صينى مستشار يابانى(٤٤) ؛ فبينما كانت خطة (الباب المفتوح) معترفاً بها من الوجهة الفنية ، التمست اليابان سبلها نحو وضع التجارة والموارد المنشوكية تحت سلطانها(٤٥)؛ ولئن تعذر على اليابانيين أن يمضوا فى هجرتهم من بلادهم إلى تلك الدولة ، فقد تدفقت رءوس الأموال اليابانية إليها تدفقاً غزيراً ، ومدت الخطوط الحديدية لأغراض تجارية وعسكرية ، وأصلحت الطرق بخطوات سريعة ، وبدأت المفاوضات لشراء (السكة الحديدية الشرقية الصينية) من السوفييت ، ولم يكتف الجيش اليابانى الظافر بتنظيم الدولة الجديدة ، بل جعل يملى سياسة حكومتها فى طوكيو ، وغزا إقليم (جهول) بالنيابة عن الملك (پوبى) ، ثم تقدم حتى كاد يبلغ (پيپنج) ، لكنه تقهقر تقهقراً مشرفاً ، لينتظر الفرصة السانحة .

وإلى أن تحين تلك الفرصة المرتقبة ، راح ممثلو اليابان فى تانكنج يبذلون جهدهم المالى كله ليكسبوا من الحكومة الصينية رضاها عن زعامة اليابان فى كل جانب من جوانب حياة الصين الاقتصادية والسياسية ؛ فإذا ما كسبت الصين بالغزو أو بالقروض المالية ، باتت اليابان على استعداد لمواجهة عدوتها القديمة : التى كانت فيما مضى إمبراطورية الروس أجمعين ، وأصبحت اليوم تعرف باسم « اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية » ؛ وإن الجيش اليابانى ليستطيع أن يضرب ضربته فى أى موضع على طول طريق القوافل فى منغوليا فيخترق « كالجان » و « أورجا » ؛ أو عبر الحدود المنشوكية فيتوغل فى « شيتا » أو فى أى موضع آخر من مئات المواضع الضعيفة التى يتثنى عندها الخط الحديدى حول الدولة الجديدة ؛ ذلك الخط الذى يخترق سيبريا ، والذى لا يزال فى معظم أجزائه فى الشرق الأقصى خطاً مفرداً ، أقول إن الجيش اليابانى يستطيع أن يضرب ضربته فى أى موضع من تلك المواضع فيقطع الرباط الحيوى الذى يربط الصين وڤلاديڤستك وما وراء بيكال ، بعاصمة الروس ؛ فأخذت الروسيا تعد نفسها لهذا الصراع المحتوم إعداداً فيه روح البطولة وحرارة التحمس ؛ فبذلت مجهوداً فى استغلال مناجم الفحم وإقامة مصانع الصلب فى مدينتى « كوزنتسك » و « ماجنيتو جورسك » ، بحيث يمكن تحويل تلك المناجم والمصانع إلى معامل هائلة للذخيرة ، وأعدت فى الوقت نفسه طائفة كبيرة من الغواصات فى « ڤلاديڤستك » ليلاقى الأسطول اليابانى ، كما أعدت مئات من قاذفات القنابل التى جعلت أعينها مفتوحة ترقب مراكز الإنتاج والمواصلات فى اليابان ، وتلحظ مدنها المنشأة من خشب دماره ميسور .

ووقفت الدول الغربية خلف هذه الطليعة المنذرة بالشر ، وقفت واجلة خائبة الرجاء : فأمريكا يأكلها الغضب لفقدانها أسواق الصين ؛ وفرنسا تتساءل : ترى كم يتاح لها أن تظل مسيطرة على الهند الصينية ، وانجلترا قلقة

على استراليا والهند ، ومضطربة بسبب منافسة اليابان لها ، لا فى الصين وحدها بل فى كل أرجاء ملكها فى الشرق ؛ ومع ذلك ففرنسا آثرت أن تعين اليابان معونة مالية على مُناصبتها العدوان ، وبريطانيا الحذرة رأت أن تنتظر فى صبر لم يسبق له مثيل ، راجية أن يفتك كل من منافستيها العظيمتين فى التجارة الأسيوية بالأخرى ، فتتركا العالم لانجلترا وحدها من جديد ؛ وأخذ تضارب المصالح يشتد حدة يوماً بعد يوم ، ويدنو رويداً رويداً من الصراع المكشوف ؛ وأصرت اليابان على أن تحتفظ الشركات الأجنبية التى تبيع لها البترل ، بمخزون من البترول على أرض يابانية يكفى حاجة الجزر نصف عام فى حالة الطوارئ ؛ وأغلقت مانشوكو أبوابها فى وجه البترول اليابانى ، واستطاعت اليابان — رغم احتجاجات الأمريكيين ورغم معارضة رئيس جمهورية أورجواى — استطاعت أن تأخذ تصريحاً من الهيئة التشريعية فى أوراجواى ، بأن تقيم على نهر پلات ميناء حرة ، تدخلها السلع اليابانية بغير ضريبة جمركية ، أو تصنع فيها البضائع اليابانية ؛ ومن هذا المركز الحربى ، ستنفذ اليابان إلى قلب أمريكا اللاتينية من حيث التجارة والمال ، ستنفذ بخطوات لم يسبق لها مثيل فى السرعة منذ عَمِلَ الغزو الألمانى السريع لأمريكا الجنوبية على نشوب الحرب العظمى ، وعلى اشتراك أمريكا فيها ؛ ولئن أخذت ذكريات تلك الحرب فى الزوال ، فإن العدة لتتخذ من جديد لحرب جديدة(*) .

أليس لأمريكا بد من محاربة اليابان ؟ إن نظامنا الاقتصادى يسخو فى العطاء لأصحاب رءوس الأموال ، فيعطيهم قسطاً كبيراً من الثروة التى يتعاون على خلقها العلم والإدارة والأيدى العاملة ، فلا يبقى إلا قدراً أقل مما ينبغى أن يبقيه لسواد المنتجين ، حتى يتاح لهم أن يشتروا السلع التى أنتجوها ؛ وبهذا يفيض قدرٌ زائد من السلع ، يصرخ مطالباً بغزو الأسواق الخارجية ،

(*) وقعت تلك الحرب الجديدة فعلا سنة ١٩٣٩ (المعرب) .

وإلا اضطرب مجرى الإنتاج فى داخل البــلاد (أو اضطر أصحاب تلك السلع أن يزيدوا من القدرة الاستهلاكية بين أفراد الشعب) ، ولئن كان هذا القول صحيحاً بالنسبة لنظامنا الاقتصادى (يقصد النظام الأمريكى) فهو أصح بالنسبة لليابان ، فهى مضطرة كذلك إلى غزو أسواق خارجية ، لا لكى تحتفظ بثروتها فحسب ، بل لتضمن كذلك الوقود والمواد الخامة التى لا غنى عنها لقيام صناعتها ، ويشاء التاريخ الساخر أن تكون هذه اليابان التى أيقظتها أمريكا من حياتها الزراعية الساكنة سنة ١٨٥٣ ودفعتها فى حياة الصناعة والتجارة ، هى نفسها التى تواجه اليوم كل قوتها وكل دهائها لكسب الأسواق الأسيوية بانخفاض أسعار السلع الأمريكية ولفرض رقابتها على تلك الأسواق بالغزو الحربى وبالأساليب الدبلوماسية ، تلك الأسواق التى كانت هى بعينها ما علقت أمريكا رجاءها عليها لأنها أوسع مخرج يمكن تهيئته لفيض البضائع الأمريكية ، وقد عهدنا فى التاريخ أنه إذا تنافست دولتان على أسواق بعينها ، فإن الدولة الخاسرة فى مجال المنافسة الاقتصادية ــ إذا ما كانت أقوى من زميلتها ثروة وعدة حربية ــ هى التى تعلن الحرب على الأخرى .

ولا شك أن حرباً كهذه لو نشبت بين أمريكا واليابان ، كانت خاتمة مُرة لما أسدته أمريكا من يد فى فتح أعين اليابان ، لكن شئون الدول ينتابها مَدٌّ لو أفلت زمامه من أيدى القابضين على الأمور ، قبل أن يستجمع قوته ، فإنه لا بد مكتسح الأمة التى يطفو بأرضها ، إلى مأزق من الظروف لا يدع أمامها مجالا للاختيار إلا بين طريقين فإما الذل وإما القتال ، ويميل مَنْ قد تجاوزوا سن الجندية ، إلى إيثار الحرب على الخشوع ، وليس يقلل من خطر نشوب قتال بيننا وبين اليابان ، الاحتمالُ القوى بأن تنشب حرب بينها وبين روسيا ، لأنه لو عادت هاتان الأمتان إلى تحدى إحداهما الأخرى ، فقد لا نجد بدا من التدخل فى الأمر على أساس المبدأ القديم ، ذلك المبدأ الذى نهضت لتأييده

أمثلة كثيرة فى عصرنا بحيث نستخلص منها الحكمة السديدة ، وهى أنه خير لنا أن نعاون على الفتك بمنافس تعرض فعلا لهجمة من عدوه ، من أن ننتظر حتى يكسب نصراً يزيد فى قوته زيادة خطرة ؛ أما إذا أردنا ألا ننساق فى هذا الطريق ، فكل ما نتطلبه هو أن نتذكر أنه مهما بلغت شدة الحاجة باليابان إلى أسواق الشرق ؛ فهذه الأسواق أبعد جداً من أن تكون شرطاً لازماً لازدهار تجارتنا ؛ وأننا إذا كسبنا تلك الأسواق إما بحرب باهظة النفقات فى بحا بعيدة ، أو بتنافس يدعونا إلى الهبوط بمستوى حياة شعبنا ، فذلك كسب أجوف ؛ وقد يكون نعمة لبلادنا أن يضطر تجارنا إلى البحث عن أسواق لسلعهم داخل حدود بلادنا ؛ وعندئذ فقد يتبين لنا أن سعادتنا لا تعتمد على غزونا لأسواق وراء البحار ، بل إن سعادتنا فى نشر ثمرات الاختراع والصناعة ومنتجاتها نشراً يتيح لأهل بلادنا — وإنهم لكثيرون — أن يكونوا سوقاً تكفى لبيع مصنوعاتنا — حتى إذا بلغت المصنوعات أعلى درجات الإنتاج ؛ لأن مساحة قدرها ٣٫٧٣٨٫٠٠٠ ميلا مربعاً تكفى لاستنفاد ذلك الإنتاج .

أما وقد علَّمنا اليابان أساليب الصناعة والحرب ، فلا بد لنا أن نصبر على القضاء الذى جعلها مؤقتاً سيدة الشرق اقتصادياً وحربياً ، فليس بنا حاجة إلى الحقد على « أبناء الشمس » إذا ما حانت ساعة قوتهم ومجدهم ، ولا إلى حسدهم على إمبراطوريتهم المتهافتة أو ثروتهم التى قد تتعرض للزوال ؛ إن العالم فيه من سعة الرحب ما يكفينا ويكفيهم معاً ؛ ولو شئنا ، لوجدنا فى البحار آفاقا لا تزال بعيدة بيننا وبينهم ؛ بحيث تهيئ لنا السلام(*) .

(*) لم يتحقق أمل الكاتب وقامت الحرب بين الدولتين على ما هو معروف. (المعرب)

خاتمــة

تراثنا الشرقى

لقد مررنا مسرعين ، على نحو لم نكن نودّه ، خلال أربع آلاف عام من أعوام التاريخ ، فررنا بذلك على أغنى الحضارات التى شهدتها أكبر القارات ؛ ويستحيل أن نكون قد فهمنا هذه الحضارات أو أن نكون قد وفيناها حقها العادل ؛ إذ كيف يستطيع عقل واحد فى حياة واحدة أن يستوعب أو يقدر تراث جنس بأسره ؟ إن النظم الاجتماعية والعادات والفنون والأخلاق عند شعب من الشعوب تصور عملية الانتخاب الطبيعى الذى تقوم به تجارب لا حصر لعددها ، يظل فيها ذلك الشعب يخطئ لكى يهتدى بالخطأ إلى الصواب كما تصور حكمة الأجيال التى تعاقبت فى ذلك الشعب فتكدست تراثاً غزيراً حتى بات من العسير صياغتها فى عبارات تضم أطرافها ؛ فلا الفيلسوف بذكائه ولا الطالب الصغير بعقله يستطيع أن يحيط بمثل ذلك التراث إحاطة الفاهم لأسراره ؛ دع عنك أن يحكم عليه حكماً عادلا ؛ إن أوربا وأمريكا هما طفل مدلل وحفيد أنجبتاهما آسيا ، ولم يُقَدَّر لها قط أن يتبينا غزارة الثروة التى جاءتهما قبل بداية تاريخهما القديم ، لكننا إذا عمدنا الآن إلى تلخيص تلك الفنون وأساليب العيش التى استمدها الغرب من الشرق ، أو التى ظهرت لأول مرة فى الشرق — حسبما يدلنا علمنا المحدود المتداول — فسنجد أننا نرسم بذلك التلخيص — عن غير قصد منا — رسما تخطيطاً لسير المدنية .

إن أول عوامل المدنية هو العمل — الزراعة والصناعة والنقل والتجارة ؛

ونحن نصادف في مصر وآسيا أقدم ما نعلمه من حضارة زراعية(*) إذ نصادف أقدم نظم الري ؛ كما نصادف أول(†) إنتاج لتلك المشروبات المنبهة التي لانظن أن الحضارة الحديثة كان يمكن أن تقوم بغيرها — وهي الجعة والنبيذ والشاي ؛ لقد تقدمت الصناعات اليدوية والأعمال الهندسية في مصر قبل عهد موسى ، تقدمها في أوربا قبل ڤولتير ؛ والبناء بالقراميد يرجع تاريخه إلى عهد سرجون الأول على أقل تقدير ؛ وأول ظهور عجلة الخزّاف وعجلة العربة كان في « عيلام » ، وأول ظهور التيل والزجاج كان في مصر ، وأول ظهور الحرير والبارود كان في الصين ؛ وخرج الحصان من آسيا الوسطى إلى ما بين النهرين ومصر وأوروبا ؛ وأبحرت السفن الفينيقية حول أفريقيا قبل عصر بركليز ، وجاءت « البوصلة » من الصين فأحدثت في أوروبا ثورة تجارية ، وكانت سومر أول من ترك لنا عقوداً تجارية ؛ وأول نظام للقروض وأول استعمال للذهب والفضة معيارين للقيمة ؛ والصين هي أول من قام بمعجزة قبول الورق مكان الفضة والذهب .

وثاني عناصر المدنية هو الحكومة — أعني تنظيم الحياة والمجتمع ووقايتهما بفضل القبيلة والأسرة والقانون والدولة ؛ ففي الهند تظهر الجماعة القروية ، كما تظهر « دولة المدينة » في سومر وأشور ؛ ومصر قد أحصت سكانها وفرضت ضريبة على الدخل وحافظت على الأمن الداخلي مدى قرون طويلة دون أن تستخدم من وسائل العنف إلا حدها الأدنى ؛ وها هما « أور — إنجور » « وحمورابي » قد سنّا تشريعين عظيمين من تشريعات القانون ؛ و « دارا »

(*) يجوز أن تكون الزراعة وإخضاع الحيوان لخدمة الإنسان قديمين في أوربا ، فيرجعان فيها إلى العصر الحجري الجديد كما يرجعان إلى مثل هذا العصر في آسيا . لكن الأرجح أن ثقافة أوربا في العصر الحجري الجديد في أوربا كانت أحدث عهداً من ثقافتي ذلك العصر نفسه في أفريقيا وآسيا (راجع الجزء الأول من سلسلة أجزاء هذا الكتاب ، الخاص بنشأة الحضارة) .

(†) في هذه العبارات وما يتلوها من عبارات ، قد حذفنا كلمة « فيما نعلم » على أن تكون مفهومة القارئ .

قد نظم بجيشه الإمبراطورى ورُسُله إمبراطوريةً من خير ما شهد تاريخ الحكومات فى حسن الإدارة .

وثالث عناصر المدنية هو الأخلاق — العادات وآداب السلوك ، والضمير والإحسان ؛ فالأخلاق قانون ينشأ فى باطن النفس ، ويولّد فيها آخر الأمر تمييزاً بين الصواب والخطأ ، وينظم ما يجيش فى الإنسان من شهوات فيخضعها للطريق السوى ؛ وبغير ذلك القانون تنحل الجماعة أفراداً وتسقط فريسة لدولة أخرى يكون فيها التماسك الاجتماعى ؛ ومن القصور الملكية القديمة فى مصر وما بين النهرين وفارس ، عرف العالم آداب المعاملة الرقيقة ؛ بل إن الشرق الأقصى ليمكنه اليوم أن يعلم آداب المعاملة وكرامة النفس للغرب الغليظ القلق ، وظهر فى مصر نظام الزواج بزوجة واحدة للزوج الواحد ، وهناك أخذ ذلك النظام يكافح ليثبت أقدامه ويديم بقاءه إزاء المنافسة التى لاقاها من نظام تعدد الزوجات للزوج أو الأزواج للزوجة الذى ظهر فى آسيا ، وهو نظام ظالم لكنه عامل على تحسين النوع البشرى ، وكذلك كانت مصر أول دولة بعثت صرختها مطالبة بإقامة العدل الاجتماعى ، كما كانت الدولة اليهودية أول من دعا الناس إلى الإخاء البشرى ، وأول من صاغ للإنسانية قانون الأخلاق الذى يشعر الإنسان بنسبته لأسرة البشرية جمعاء .

ورابع عناصر المدنية هو الدين — أى الانتفاع بعقائد الإنسان فى القوى الخارقة للطبيعة للتخفيف من الآلام والسمو بالشخصية الإنسانية وتقوية الغرائز الاجتماعية والنظام الاجتماعى ، فقد استمدت أوروبا أعز أساطيرها وتقاليدها من سومر وبابل والدولة اليهودية ، وفى تربة الشرق نبتت قصص الخلْق والطوفان وسقوط الإنسان وخلاصه ، ومن آلهات أمهات كثيرات جاءتنا فى النهاية « أجمل زهرة من زهرات الشعر » وأعنى بها مارية أم الله — كما وصفها هينى = ومن فلسطين برزت الوحدانية وانبعثت أرق أغانى الحب والثناء فى الأدب ، كما خرج منها أقوى وأعزل وأفقر شخصية شهدها التاريخ .

وخامس عناصر المدنية هو العلم — وهو النظر الصافى والتسجيل الصادق والاختبار المحايد وجمع المعرفة شيئاً فشيئاً ، بحيث تكون من الصدق الموضوعى بما يمكننا من التنبؤ بمجرى الطبيعة فى المستقبل وضبطه ، فنرى مصر قد طوَّرت الحساب والهندسة وأنشأت التقويم ، كما نرى الكهنة المصريين قد مارسوا الطب وكشفوا عن الأمراض وقاموا بشتى صنوف العمليات الجراحية وسبقوا أبقراط فى إخلاصه لفنه ، ودرست بابل النجوم ورسمت مواضع البروج وقسمت لنا الشهر أربعة أسابيع وآلة قياس الزمن اثنتى عشرة ساعة والساعة ستين دقيقة والدقيقة ستين ثانية ، وعلمتنا الهند بواسطة العرب أعدادها البسيطة وكسورها العشرية السحرية كما علَّمت أوربا دقائق التنويم المغناطيسى وفن التطعيم .

وسادس عناصر المدنية هو الفلسفة = وهى محاولة الإنسان أن يفهم شيئاً عن الوجود فى مجموعه ، ولو أن الإنسان حين يأخذه التواضع حيناً بعد حين يتبين الحقيقة وهى أن فهم الوجود فى مجموعه مستحيل إلا على اللانهاية ، هى بحث جرىء يائس عن العلل الأولى للأشياء ومغزاها النهائى ، وعن معنى الحق والجمال والفضيلة والعدالة والإنسان الأمثل والدولة المثلى ، وهذا كله يظهر فى الشرق قبل ظهوره فى أوربا بقليل : فنرى المصريين والبابليين يتأملون طبيعة الإنسان وقضائه المرسوم ، واليهود يكتبون تعليقات خالدة عن الحياة والموت ، بينما كانت أوربا تتخبط فى طور الهمجية ، كذلك نرى الهنود يتناولون المنطق ونظرية المعرفة فى نفس الوقت الذى عاش فيه بارمنيدس وزينون الأيلى على أقل تقدير ، وكتب الـ « يوپانشاد تخوض فى الميتافيزيقا ، وبوذا يذيع علم نفس يشبه ما جاء به علم النفس الحديث القريب العهد ، مع أنه عاش قبل أن يولد سقراط ببضعة قرون ، وإذا كانت الهند قد أغرقت الفلسفة فى الدين ، ولم توفق إلى استخلاص التفكير السليم من أوهام الأمل ، فإن الصين قد صممت جادة أن تجعل تفكيرها دنيوياً ، وأنجبت — قبل أن

يولد سقراط أيضاً - مفكراً كانت له حكمة رزينة لا تكاد تغير منها شيئاً إذا أردت أن تجعلها هادياً للناس فى عصرنا هذا ، ومصدر وحى لأولئك الذين يودون مخلصين أن يسوسوا الدول سياسة شريفة .

وسابع عناصر المدنية هو الأدب — وهو نقل اللغة على تتابع الأجيال ، وتربية النشء وترقية الكتابة وإبداع الشعر والمسرحية والحافز على القصة وتدوين ذكريات الماضى ؛ وأقدم ما نعرف من مدارس هو ما كان منها فى مصر وبلاد النهرين ، بل إن أقدم المدارس الحكومية كانت مصرية كذلك ، والأرجح أن تكون الكتابة قد جاءتنا من آسيا ، كما جاءت أحرف الهجاء والورق والمداد من مصر ، ثم جاءت الطباعة فى الصين ، ويظهر أن البابليين قد جمعوا أقدم مجموعة من قواعد النحو وقواميس الألفاظ وأول ما جمع من مكتبات ، والاحتمال قوى فى أن تكون جامعات الهند قد سبقت أكاديمية أفلاطون ، وصقل الآشوريون أنباء الأساطير فجعلوا منها تاريخاً ، ثم نفخ المصريون فى التاريخ فجعلوه ملحمة ، وقدم الشرق الأقصى إلى العالم تلك الصور الرقيقة من الشعر التى تركز كل روعتها فى نظرات صادقة لطيفة يصوغونها فى صور خيالية ترتسم فى أذهانهم لساعتها ، وكان « نابونيدوس » و « أشوربانيبال » من رجال البحث الأثرى — وهما اللذان استكشف الباحثون الأثريون آثارهما ، وترجع طائفة من الحكايات القديمة الخرافية التى تمتع أطفالنا إلى الهند القديمة .

وثامن عناصر المدنية هو الفن — وهو تجميل الحياة بالألوان والأنغام والصور التى تشرح الصدور ، والفن فى أبسط ظواهره يكون فى تجميل البدن ، فنرى ثياباً رشيقة ومجوهرات فاخرة ودهوناً للزينة الداعرة ، نجد كل ذلك فى العصور الأولى من حضارة المصريين والسومريين والهنود ، وإن المقابر المصرية لتملؤها قطع الأثاث الجميلة والخزف الرشيق والنحت الرائع فى العاج والخشب ، ولا شك فى أن اليونان قد تعلموا شيئاً من مهارتهم فى النحت والعمارة والتصوير والنقش البارز ، لا من آسيا وإقريطش فحسب ،

بل كذلك من الآيات الروائع التى كانت لم تزل فى أيامهم تسطع على مرآة النيل ، فمن مصر وبلاد النهرين أخذت اليونان نماذج عمدها الدورية والأيونية ؛ ومن تلك البلاد نفسها جاءنا إلى جانب العمد « البواكى » والدهاليز والقباب ؛ وساهمت أبراجُ الشرق الأدنى القديم بنصيب فى تشكيل العمارة الأمريكية اليوم ، وكان للتصوير الصينى والرسوم الحفرية اليابانية أثرهما فى تغيير بعض قواعد الفن فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، وكذلك وضع « البورسلان » الصينى أمام أعين الأوربيين نموذجاً جديداً للكمال تحتذيه ، والجلال الحزين الذى تسمعه فى الأغنية الجريجورية ، يرجع عصراً بعد عصر حتى يبلغ أصله الأول فى الأغانى الباكية التى كان ينشدها اليهود المشردون إذ هم يجتمعون خاشعين فى معابدهم المتناثرة هنا وهناك .

تلك هى بعض عناصر المدنية ، وجزء من التراث الذى خلفه الشرق للغرب .

ومع ذلك كله فقد وجد العالم القديم (من التاريخ الأوربى) مجال الإضافة إلى هذا التراث الفنى فسيحاً ، فستبنى إقريطش حضارة تكاد تبلغ فى قدمها مبلغ الحضارة المصرية وستكون حلقة اتصال تربط بين ثقافات آسيا وإفريقيا واليونان ، وسترقى اليونان بالفن بحيث لا تنشد الحجم بل الكمال ، وستزاوج بين رقة الأنوثة التى تتمثل فى الصورة النهائية والصقل الختامى للقطعة الفنية وبين قوة الذكورة التى تتمثل فى عمارة مصر وتماثيلها ، فتمهد السبيل بذلك إلى جو يظهر فيه أعظم عصر شهده تاريخ الفن ، وستُدخل فى نواحى الأدب كلها تلك الخصوبة المبدعة التى يتصف بها العقل الحر ، فتضيف ملاحم ملتوية الشعاب ومآسى عميقة الأغوار ، وملاهىَ ضاحكة وتواريخ تأخذ بالخيال ، ستضيف كل ذلك إلى ذخيرة الآداب الأوروبية ، وستنظم الجامعات وتقيم حرية الفكر الدنيوى فترة ناصعة تتخلل فترات يضطهد فيها الفكر المستقل ، وستفوق كل سوابقها فى الرقى بالرياضة والفلك وعلم الطبيعة التى خلفتها لها مصر والشرق ، وستبتكر علوم الحياة ابتكاراً ، وتنشئ نظر الإنسان إلى الكون نظرة طبيعية ، وستأخذ بيد الفلسفة حتى تصل بها إلى مرحلة الوعى

والنظام وستبحث بحثاً عقلياً خالصاً فى كل مشكلات حياتنا ؛ ستحرر الطبقات المتعلمة من سلطان رجال الدين ومن الخرافة ، وتحاول إقامة الأخلاق على أساس لا يعتمد فى شيء على معونة ما فوق الطبيعة ؛ وستنظر إلى الإنسان باعتباره مواطناً لا باعتباره « رعية » وتهبه حريته السياسية وحقوقه المدنية ، وتطلق له من الحرية العقلية والخلقية ما لم يسبق له نظير ، ستخلق الديمقراطية خلقاً وتنشئ الفرد إنشاء . وستستأنف روما السير فى هذه الثقافة فتنشرها فى أرجاء الدول القائمة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وتحميها مدى خمسمائة عام من هجمات البرابرة ، ثم تنقلها خلال الأدب الرومانى واللغات اللاتينية إلى أوربا الحديثة ؛ وسترفع المرأة إلى مراكز القوة والمجد والتحرير العقلى ، التى ربما لم تكن قد ظفرت بها من قبل ؛ وتقدم إلى أوروبا تقويماً جديداً وتعلمها مبادئ النظام السياسى والأمن الاجتماعى ، وتقيم حقوق الفرد على أساس ثابت من القوانين التى عملت على تماسك القارة الأوروبية خلال قرون من الفقر والفوضى والخرافة .

وفى الوقت نفسه سيعود الشرق الأدنى ومصر إلى الازدهار مرة أخرى بحافز من التجارة والفكر اليونانيين والرومانيين ، وستحيي قرطاجنة كل ما كان لصيدا وصور من ثروة ورفاهية ؛ وسيجتمع « التلمود » فى أيدى يهود مشتتين لكنهم ذوو ولاء ؛ وسيزدهر العلم والفلسفة فى الإسكندرية ، وسيتولد من امتزاج الثقافتين الأوروبية والشرقية دين أريد به أن يمحو الحضارة اليونانية والرومانية إلى حد ما ، وأن يُبقى عليها ويضيف إليها إلى حد ما ؛ إن كل العوامل كانت مهيأة لتنتج الفترات التى كانت بمثابة الذُّرى للعصور القديمة (الأوروبية) ، وهى أثينا فى عهد بركليز ، وروما فى عهد أوغسطس ، وأورشليم فى عصر « هيرود » ؛ وكان المسرح معدّاً لمسرحية مثلثة الجوانب ، قوامها أفلاطون وقيصر والمسيح .

كلمة عن المؤلف

ولد «وِلْ ديُورَنْت» فى «نورث آدمز» من أعمال «ماساشوست» سنة ١٨٨٥ ؛ وتلقى تعليمه فى مدارس « نورث آدمز » هذه ومدارس « كيرنى » من أعمال « نيوچيرسى » ، وهى مدارس تتبع الكنيسة الكاثوليكية فى ذينك الإقليمين ؛ وتلقاه كذلك فى كلية القديس بطرس (اليسوعية) فى مدينة جيرسى وفى جامعة كولمبيا بنيوريوك ؛ ولبث صيفاً يشتغل مراسلا ناشئاً « لجريدة نيويورك » وكان ذلك عام ١٩٠٧ ؛ لكنه وجد هذا العمل شديد الوطأة على نفسه فلم يحتمل المضى فيه ، فاكتفى بتدريس اللاتينية والفرنسية والإنجليزية وغيرها من المواد فى كلية « سيتن هول » فى سوث أورانج من أعمال نيوچيرسى (١٩٠٧ — ١١) ، وهناك التحق بإحدى حلقات الدرس سنة ١٩٠٩ لكنه عاد فتركها سنة ١٩١١ لأسباب ذكرها فى كتابه « مرحلة التحول » وانتقل من تلك الحلقة الدراسية إلى الدوائر المتطرفة فى نيويورك ، وهناك اشتغل بالتدريس فى « مدرسة فرر » (١٩١١ — ١٣) فكانت تلك الفترة بمثابة تجربة فى التربية الحرة ؛ وفى سنة ١٩١٢ طاف بأرجاء أوروبا على نفقة أولدن فريمان » الذى صادقه وتعهد أن يوسع من آفاقه ؛ وفى سنة ١٩١٣ ركز اهتمامه فى الدراسة ليحصل على الدرجة الجامعية من جامعة كولمبيا ، تخصص فى علم الحياة متتلمذاً على « مررجَنْ » و « كالْكِنْز » ؛ وفى الفلسفة متتلمذاً على « وودبردچ » و « ديوى » ؛ ونال درجة الدكتوراه من تلك الجامعة سنة ١٩١٧ ، وأخذ يعلم الفلسفة فى جامعة كولمبيا عاماً واحداً ؛ ثم بدأ فى سنة ١٩١٤ — فى الكنيسة المسيحية الكائنة فى شارع أربعة عشر وفى طريق الثانى بنيويورك — بدأ يلقى هناك تلك المحاضرات فى الفلسفة والأدب التى أعدته لإخراج كتابيه « قصة الفلسفة » و « قصة الحضارة » ؛ فقد كان

معظم المستمعين إليه فى تلك المحاضرات من العمال والعاملات الذين كانوا يتطلبون وضوحاً تاماً وعلاقة تربط ما يقال بالحوادث الجارية ، كانوا يتطلبون ذلك فى كل المواد التاريخية التى تعتبر جديدة بالدرس ، وفى سنة ١٩٢١ نظم « مدرسة لـيبـرتمبل » التى أصبحت تجربة من أنجح التجارب التى أجربت فى تربية الكبار فى العصر الحديث ، ثم تركها سنة ١٩٢٧ ليكرس نفسه لكتاب « قصة الحضارة » وطاف بأوروبا مرة أخرى سنة ١٩٢٧ ، وطوف بالعالم سنة ١٩٣٠ ليدرس مصر والشرق الأدنى والهند والصين واليابان ، وعاد فطوف بالعالم من جديد سنة ١٩٣٢ ليزور اليابان ومنشوريا وسيبريا والروسيا ، وهو يرجو لنفسه فى الخمسة الأعوام المقبلة (التى تلت إخراج هذا الجزء من قصة الحضارة) أن ينفق عاماً فى اليونان وإيطاليا ليأخذ أهبته للجزء الثانى من « قصة الحضارة » .